الشرق الأوسط الديمقراطي

فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد 53 حزيران / يونيو 2021م

محاور العدد

❖ فلسفات وفكر الشرق الأوسط

- ◆ الحضارات الشرقية وأسباب اندثار بعضها
- ◆ دلائل الانكار الفرعونية
- ◆ النظريات الدينية وتأثيرها على الفكر الشرقي

❖ حركات التحرر العالمية ونقاط التشابه والاختلاف

- ➤ الأبعاد الفنية والجمالية لـ مانيفيستو الحضارة الديمقراطية
- ➤ المرأة والميثولوجيا
- ➤ نمور تاميل

في العدد أيضاً

❖ الرؤى الاستراتيجية والمستقبلية السياسية

- ☐ مسارات صراع أمريكا مع روسيا والصين في منطقة الشرق الاوسط
- ☐ سياسة أردوغان في بث الكراهية وتأجيج الصراعات القومية

الشرق الأوسط الديمقراطي

مجلة فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد ٥٣ حزيران / يونيو ٢٠٢١م

إدارة المجلة

مجلس الإدارة

الاشراف العام

زياد محمد

رئيس التحرير

صلاح الدين مسلم

هيئة التحرير

روشن مسلم

عواس علي

أحمد دالي

مصطفى شيخ مسلم

الهيئة الاستشارية

السيد عبدالفتاح

ياسر شوحان

جاسم الهويدي

حسن ظاظا

هجار شكر

الإخراج الفني

يريفان عثمان

الآراء المنشورة تعبر عن رأي أصحابها وليس بالضرورة أن تعبر عن رأي المجلة

وسائل التواصل

يمكنكم متابعتنا والإدلاء بآرائكم ومقترحاتكم وإرسال مساهماتكم عبر وسائل التواصل التالية:

http://www.alawset.info

serqalawset@gmail.com

@AlawsetMagazine

@KovaraAlewset

@/alawsetmagazine

رقم الاعتماد
لدى نقابة الصحفيين العراقيين
١٤٨
رقم الإيداع
دار الكتب والوثائق ببغداد
٨٦٨ لسنة ٢٠٠٥

لدى وزارة الثقافة المصرية
دار الكتب والوثائق في القاهرة
رقم ٢٤٢١٧

مكتب القاهرة:
18 شارع ضريح سعد - القاهرة
ت: 27907104 / 01554349602

محتويات العدد

العدد :53 - حزيران - 2021

كلـــمة العـــدد — رئيس التحرير — ٣

فلسفات وفكر الشرق الأوسط

دلائل الإنكار الفرعونيّة / رحلة في كتاب الموتى ..... شيماء رياض أبو زيد ٤ - ٩

الحضارات الشرقية وأسباب اندثار بعضها ..... أحمـــد دالـــي ١٠ - ١٧

النظريات الدينية وتأثيرها على الفكر الشرقي ..... هيوا أحمد ١٨ - ٣٠

حركات التحرر العالمية – نقاط التشابه والاختلاف

الأبعاد الفنية والجمالية لمانيفستو الحضارة الديمقراطية ..... اسماعيل خالد محمد ٣١ - ٣٥

نساء كرديات غيّرن التاريخ ..... جيهـان مصطفى ٣٦ - ٤١

المرأة والميثولوجيـــا ..... ريمـــا خليـــل ٤٢ - ٥١

نمـــــور التـاميـــل ..... مصطـفى شيـخ مسـلم ٥٢ - ٥٤

الرؤى الاستراتيجية والسياسية

في «مؤتمر القاهرة ١٩٢١» بعد قرن من الزمان ..... ولاء أبـو سـتيت ٥٥ - ٥٩

اللجنة الدستورية السورية آفاق نجاحها وفشلها ..... آنـاهيتـــا جميـــل ٦٠ - ٧٢

مسارات صراع أمريكا مع روسيّا والصين في منطقة الشرق الأوسط جمـيـل رشـــيـد ٧٣ - ٩١

سياسة أردوغان في بث الكراهية، وتأجيج الصراعات القومية ..... شـــيران زادة ٩٢ - ٩٧

مواضيع متنوعة

دراسة في كـتاب «في نقد العقل الشرقي» ..... عـواس علـي ٩٨ - ١١٣

في فلك الأصنام الأربعة لفرنسيس بيكون ..... صـــلاح الدين مســـلم ١١٤ - ١٢٤

النزعة القبلية وعملية التحول نحو الأمة ..... ســـردار ســـتار ١٢٥ - ١٣٢

كلمة العدد ٥٣

هيئة التحرير

مازال الشرق الأوسط محطَّ أنظار الطامعين به، فلا يريد الغرب أن ينهض الشرق الأوسط من سباته، ويظلّ في هذه الحالة المأساوية من الحروب والصراعات، والفتن والنعرات، ويعيش في هذا التخبّط، لئلا يستيقظ ويسيطر على العالم، كما سيطر منذ فجر التاريخ على التاريخ والحضارة إلى ما قبل النهضة الأوروبيّة.

وفي كلّ عدد نحاول أن نتطرّق إلى محاور مهمّة، تهمّ شعوب الشرق الأوسط، لنستطيع وصف ظواهر الشرق الأوسط، ووضع أسباب للمشاكل، لاستنباط الحلول المناسبة.

لقد كان دأبُ مجلّتنا دائماً إبرازُ قضايا الشرق الأوسط، بنظرات شرقيّة متعدّدة، وكلّ كاتب من كتّاب المجلة يضع الأسباب والحلول التي تتكيّف مع نظرته الشرقيّة، فنشأت الحلول المتباينة؛ الليبرالية منها، والاشتراكيّة منها حيناً، المتأثّرة بالماضي طوراً، والمتأثّرة بالمستقبل طوراً آخر، لكنْ دأبَ كتّابُ مجلّتنا الأعزّاء على صياغة مجلّتهم بحرص ومسؤوليّة تجاه قضاياهم، وتجاه إنسانيتهم في السعي في درب الحقيقة.

كان حرصُنا الدؤوب منصباً دائماً على تناول أهمّ القضايا الفكرية والسياسيّة والاستراتيجيّة لقضايا الشرق الأوسط، فقد ركّزنا في هذا العدد على أربعة محاور رئيسة؛ فكان المحور الأوّل: (محور فلسفات وفكر الشرق الأوسط) الذي تناول (الحضارات الشرقية وأسباب اندثار بعضها، ودلائل الإنكار الفرعونيّة، والنظريات الدينية وتأثيرها على الفكر الشرقي)، في محاولة منّا في ربط الحاضر الشرقيّ بماضيه، من خلال تناول بعض التأثيرات على الحاضر من خلال الماضي الميثولوجيّ والديني الذَين يعتبران جوهرَ الفكر الشرقيّ.

أمّا في المحور الثاني، فقد تناولنا مواضيع عدّة وكان بعنوان: (حركات التحرّر العالميّة ونقاط التشابه والاختلاف) وقد عرّجنا فيه على بعض المواضيع المهمّة وهي: (الأبعاد الفنيّة والجماليّة لـ "مانفيستو الحضارة الدّيمقراطيّة" للمفكّر والمناضل عبد الله أوجالان، وموضوع: المرأة والميثولوجيا، ونساء كرديات غيّرن التاريخ، ونور التاميل) إذْ أنّ هذه المواضيع تصيغ جوهر النضال الشرقيّ، وطريقة تعامل الدول مع الثورات، فقد كان الشرق الأوسط مهد الثورات.

في المحور الثالث، والذي كان بعنوان: (الرؤى الاستراتيجيّة والمستقبليّة السياسيّة) عرّج كتّابُنا على مواضيع مهمّة وهي: (مسارات صراع أمريكا مع روسيّا والصين في منطقة الشرق الأوسط، وسياسة أردوغان في بث الكراهية وتأجيج الصراعات القومية، واللجنة الدستورية، وفي مؤتمر القاهرة 1921 بعد قرن من الزمان) ففي هذه المواضيع حاول كتّاب هذا العدد الأكارم تناول الحلول من جوانب عدّة، من خلال البحث في تركيبة الدول الإقليميّة المؤثّرة في القرار، وأيضاً ربط الحاضر باتفاقيات مرّ قرن عليها؛ قسّمت الشرق الأوسط إلى دويلات متحاربة، وشعوب تدفع ضرائب الاستعمار والهيمنة العالميّة.

أمّا في المحور الرابع والأخير: فقد تناول الكتّاب مواضيع مختلفة لها علاقة بهذه المحاور السابقة، من خلال عرض ببليوغرافي لمشاهير الأمة الكردية، ودراسة في كتاب "في نقد العقل الشرقي"، ودراسة للأصنام الأربعة لفرنسيس بيكون.

نتمنّى لقرّاء المجلّة الأعزّاء الاستفادة، والقراءة المتمعّنة، للسعي في درب حقيقةِ شعوب الشرق الأوسط.

دلائل الإنكار الفرعونيّة

رحلة في كتاب الموتى... الخروج إلى النهار

شيماء رياض أبو زيد
جمهورية مصر العربية

مقدمة:

«السلام عليك أيّها الإله الأعظم إله الحق، لقد جئتك يا إلهي خاضعاً لأشهد جلالك، جئتك يا إلهي متحلياً بالحق، متخلياً عن الباطل، فلم أظلم أحداً ولم أسلك سبيل الضالين، لم أحنث في يمين، ولم تُضلّني الشهوة فتمتد عيني لزوجة أحد من رحمي، ولم تمتد يدي إلى مال غيري، لم أكن كاذباً، ولم أكن لك عاصياً، ولم أسعَ للإيقاع بعبد عند سيده. إني يا إلهي لم أُوجعْ ولم أُبْكِ أحداً، وما قتلت وما غدرت، وما كنت محرّضاً على قتل، إني لم أسرق من المعابد خبزها ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنّس شيئاً مقدساً، ولم أغتصب مالًا حراماً ولم أنتهك حرمة الأموات، إني لم أبعْ قمحاً بثمن فاحش ولم أغشّ الكيل،ش أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر. وما دمت بريئاً من الإثم، فاجعلني يا إلهي من الفائزين».

بهذه الكلمات السابقة التي لم تكن سوى جزء من تعاويذ وترانيم ونصوص تم نقشها على جدران المقابر والمسلات والبرديات وعلى أقنعة المومياوات، تم تصوير لحظة البعث والحساب في المعتقدات المصرية القديمة، إذ يتم وزن قلب الشخص المتوفَّى أمام ريشة إلهة الحق "ماعت"، فإذا كان وزن قلبه أثقل من ريشة "ماعت" يكون من العاصين، ويُلقى به إلى وحش مفترس يلتهمه معلنًا تلك "النهاية الأبدية للميت"، أما إذا كان قلب الميت أقل وزنًا من تلك الريشة، فيكون مآله إلى الجنة، حيث النعيم الأبدي مع أحبابه، ولا يقع على عاتق الشخص المتوفي إلا إثبات دلائل الإنكار حتى ينجو من العذاب ويدخل في النعيم الأبدي.

فما هي هذه الدلائل وما أبعادها الميثولوجية في حياة المصريين والشعوب المحيطة ؟

لقد شكلت المعتقدات والطقوس في مصر جوهر الديانة المصرية الفرعونية القديمة، والتي ظهرت بظهورهم في وقت ما من عصور ما قبل التاريخ.

حيث مثّلت الآلهة صور القوى والظواهر الطبيعية، والتي حاول المصريون استرضاءها من خلال تقديم الأضاحي و القرابين وإقامة الطقوس الخاصة لكي تواصل تلك القوى عملها وفقًا للنظام الإلهي.

بعد تأسيس الدولة المصرية قبل حوالي ٣١٠٠ ق.م تولى الفراعين سلطة تنفيذ هذه المهام، وادّعى كل فرعون أنه ممثل للآلهة، وتولى إدارة المعابد حيث كانت تقام الطقوس.

واتسمت الآلهة بصفات مُعقدة ظهرت في الأساطير والعلاقات المتَشَابِكة بينهم، ومنها: الروابط الأسرية، والجماعات الحرة، والتسلسلات الهرمية في العلاقات الاجتماعية والطبقية ، والجمع بين آلهة منفصلة في إله واحد.

وساهم الاختلاف في أشكال الآلهة في الفن المصري القديم كالحيوانات والبشر والأشياء ومجموعات من أشكال مختلفة، في اكتساب رمزية أضافت السمات المميزة لتلك الآلهة.

و لقد ساد الاعتقاد بأنّ الآلهة حاضرة في جميع أنحاء المعمورة، ولها القدرة على التأثير على الأحداث الطبيعية وحياة الإنسان، وكان تفاعل البشر معهم من خلال المعابد والأضرحة، لأسباب شخصية وكذلك لأهداف كبرى من طقوس الدولة، فصلى المصريون طلبًا لعون الآلهة، وأقاموا لهم لهذه الغاية الشعائر والطقوس، ودعوهم طالبين النصيحة، وكانت العلاقات بين البشر وآلهتهم جزءاً أساسيًا من المجتمع المصري.

في عام ٢٠١٢ عثر الباحثون على ما يُعتقد أنه أول كتاب مصور في التاريخ في مصر القديمة يوضح الطريق إلى عالم الحساب والبعث عند الفراعنة، وقد يكون أقدم نسخة عُثِر عليها فيما يُعرف بكتاب "الطريقين" وتوصلوا إلى نتائج مهمة بعد اكتشاف تابوت السيدة "عنخ"، على الجانب الأسفل من التابوت الذي تعرَّض لتآكُل شديد، وسُمِّي كتاب الطريقين بهذا الاسم بسبب تصوير الكتاب لطريقين يجتازهما الشخص المتوفى وصولًا إلى النعيم الأبدي، هما طريق البر وطريق الماء. وهناك كتاب آخر يُعرف بكتاب "البوابات"، وجاءت تسميته بسبب تصوير الكتاب لبوابات يختارها المتوفى في العالم الآخر، ولا بد له من معرفة اسم الباب واسم الحارس حتى يتم العبور في سلام إلى حقول القرابين (سخت حتب)، أي الجنة (النعيم الأبدي).

"إن هذا كتاب الطريقين، الذي يعود تاريخه إلى ٤٠٠٠ عام يصور بالنقوش والخرائط طريق الروح إلى الحياة الأبدية".

بداية القصة :

ارتكزت الأخلاق في مصر القديمة على مفهوم (ماعت)، الذي يعني لدى تطبيقه على المجتمع البشري أنه يجب على الجميع أن يعيشوا باستقامة وألا يتدخلوا في رفاهية غيرهم. وبما أن الآلهة تولوا الحفاظ على ماعت، فقد رُبطت الأخلاق بهم، فمثلًا حاكمت الآلهة البشر على

استقامتهم الأخلاقية بعد وفاتهم. وبحلول المملكة المصرية الحديثة، كانوا يصدّرون حكمًا بالبراءة على الشخص لكي يتم قبوله في الحياة الآخرة. وفي العموم، كان قوام الأخلاق هو الطرق العملية للحفاظ على ماعت في الحياة اليومية، بدلا من أن تكون قواعد صارمة أنزلتها الآلهة.

تعاويذ سحرية :

تشير أجزاء كتاب «الطريقين» التي عُثر عليها في تابوت عنخ إلى أن الرحلة الشاقة للوصول إلى الحياة الآخرة، ستعوقها النيران والشياطين والأرواح الشريرة التي سيتعين على الشخص التغلّب عليها، وتضمَّن الكتاب مجموعةً من التعاويذ التي تساعد على صدّ هذه المخاطر والتغلب عليها.

لقد كان كل مصري قديم ذو شأن معين حريصاً على تكليف الكهنة خلال تحنيطه و دفنه بتجهيز كتاب الموتى الخاص به، بحيث يذكر فيه اسمه و اسم أبيه واسم أمه ووظيفته في الدنيا، وذلك استعداداً ليوم وفاته وتجهيز طقوس نقله إلى مقبرته، و لم يكن هذا الأمر متوفراً لكل المصريين لأنه مكلف جداً، لذلك اختصت به طبقة معينة من النبلاء و الموظفين و خُدّام الآلهة في المعبد.

تلك التعاويذ و التمائم التي يحملها الكتاب هي تعليمات إرشادية تمكّن الميت من تخطي العقبات والمخاطر التي ستصادف روحه أثناء رحلته إلى الحياة الأخرى، وتدله أيضاً على الوسائل التي يتعين عليه أن يستخدمها ليتمم هذه الرحلة بنجاح من دون أن يتعرض لأي سوء.

توجد في كتاب الموتى عادة صورة لأوزيريس جالساً على عرشه في الآخرة وإلى الخلف تستند إليه أخواته إيزيس ونفتيس، وأمامه أبناء ابنه حورس الأربعة الصغار ليساعدوه في حساب الميت. وقد كان تصور المصري القديم أن الإله حورس سوف يأتي بالميت بعد نجاحه في اختبار الميزان ويقدمه إلى أوزيريس، ويُعطى لباساً جميلاً ويدخله إلى الحديقة "الجنة"، وقبل ذلك لا بدّ من أن تتم عملية وزن أعمال الميت في الدنيا عن طريق وضع قلبه في إحدى كفتي الميزان وتوضع في كفة الميزان الأخرى ريشة "ماعت" وهي رمز "العدالة والأخلاق السوية"، فإذا كانت الريشة أثقل من قلب الميت، فمعنى ذلك أنه كان شخصاً طيباً في حياته و على خلق كريم فيأخذ ملبساً جميلاً ويدخل حديقة "الجنة" حيث حقول الفردوس تتخلّلها الأنهار من تحتها ليعيش فيها راضياً سعيداً أبد الآبدين. أما إذا ثقل قلب الميت عن وزن الريشة فمعناه أنه قد كان في حياته شخصاً شريراً، وعندئذ يُلقى بالقلب وبالميت إلى حيوان خرافي يكون واقفاً بجوار الميزان اسمه "عمعموت"، رأسه رأس أسد وجسمه جسم فرس النهر وذيله ذيل تمساح، فيلتهمه هذا الحيوان على التوّ وتكون نهايته.

محكمة الموتى في الصف العلوي حيث يمثُل الميت أمام محكمة مكونة من /٤٢/ قاضياً للاعتراف بما كان يفعله في حياته، في مقدمتهم "رع حوراختي". ونرى إلى اليمين أسفل منهم أوزيريس جالساً على العرش وخلفه تقف أخواته إيزيس و نفتيس وأمامه الأبناء الأربعة لحورس واقفون على زهرة البردي وقد قاموا بالمحافظة على جثة الميت في القبر، ثم يأتي حورس بالميت لابساً ثوباً جميلاً ليمثل أمام أوزيريس ويدخل بعد ذلك الجنة، إلى اليسار نرى أنوبيس يصاحب الميت لإجراء عملية وزن قلبه، و في الوسط منظر عملية وزن القلب حيث يقوم الإله أنوبيس بوزن قلب الميت ويقارنه بريشة الحق "ماعت"، بينما يقف الوحش الخرافي "عمعموت" منتظراً التهام القلب إذا كان الميت خطّاء عصياً، وفي نفس الوقت يقوم "تحوت" (إله الحكمة الذي علّم المصريين القدماء الكتابة و الحساب) بتسجيل نتيجة الميزان بالقلم في سجله الأبدي.

و من الأجزاء الأساسية في كتاب الموتى دعاء خاص يدافع به الميت عن نفسه (ويسمى الاعتراف بالنفي)، حيث يقول :

«السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق. لقد جئتك ياإلهي خاضعاً لأشهد جلالك، جئتك

لقد شكلت المعتقدات والطقوس في مصر جوهر الديانة المصرية الفرعونية القديمة، والتي ظهرت بظهورهم في وقت ما من عصور ما قبل التاريخ. حيث مثلت الآلهة صور القوى والظواهر الطبيعية، والتي حاول المصريون استرضاءها من خلال تقديم الأضاحي و القرابين وإقامة الطقوس الخاصة لكي تواصل تلك القوى عملها وفقًا للنظام الإلهي

يالإلهي متحلياً بالحق، متخلياً عن الباطل، فلم أظلم أحداً ولم أسلك سبيل الضالين، لم أحنث في يمين ولم تضلّني الشهوة فتمتدّ عيني لزوجة أحد من رحمي ولم تمتدّ يدي لمال غيري، لم أكن كاذباً ولم أكن لك عصياً، ولم أسعَ في الإيقاع بعبد عند سيده. إني (يالإلهي) لم أوجع ولم أُبكِ أحداً، وما قتلت وما غدرت، بل وما كنت محرّضاً على قتل، إني لم أسرق من المعابد خبزها ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنّس شيئاً مقدّساً، ولم أغتصب مالاً حراماً ولم أنتهك حرمة الأموات، إني لم أبع قمحاً بثمن فاحش ولم أغشّ الكيل، أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر، وما دمت بريئاً من الآثام، فاجعلني يالإلهي من الفائزين."

وثمة نصان لمقولة الأبواب: في صف الرسوم العليا نجد "أني" وزوجته يواجهان سبعة أبواب لبيت أوزيريس. وفي صف الرسوم السفلي الزوجان يدخلان بيت أوزيريس من حقل الأشجار ويقابلون ١٠ من أصل ٢١ من الأسرار السماوية وتقوم بحراستها كائنات شرسة كل واحد منها في صومعته.

يبين لنا كتاب الموتى لدى قدماء المصريين العقائد الدينية التي كانت تشغلهم طوال حياتهم، فلم يكن الموت لديهم جزءاً لا ينفصل عن الحياة فقط وإنما كان لدى الناس آنذاك مفهوماً آخر عن الموت والحياة الأخرى لا يختلف كثيراً عما نعتقده اليوم، و إن كنا نرى الموت كحتمية مرعبة نتحاور التفكير فيها و الحديث عنها، فقد كان المصريون ينظرون إليه كجزء لا يتجزأ من مفهوم الحياة، و يستعدون له كما يجب للعبور نحو الحياة الآخروية، و هنا يأتي دور كتاب الموتى بما يحتويه من تعاويذ وتوجيهات للميت، تساعده على البعث والانتقال إلى الآخرة حيث يعيش فيها مثلما كان يعيش على الأرض ولكن بدون أمراض ولا تعب و لا كبر في السن، بل يكون في الآخرة رفيقاً للآلهة يأكل ويشرب معهم في بعض المناسبات.

وهدف الميت كان الوصول إلى الحياة الأبدية في العالم الآخر، و رغم أن التصور لم يكن منطقياً لدى بعض الشعوب في تلك العصور، لكن تصور المعيشة في الآخرة لدى قدماء المصريين هو أن الميت الذي فعل صالحاً في حياته وكان أميناً وصادقاً يساعد الفقير والجائعين والعطشى، ويساعد الأرامل واليتامى، كان مثل هذا الإنسان يعيش طبقاً لما أرادته له الآلهة من " قواعد حياة سوية، ونظام عادل"، و من هنا كان وزن قلبه و أعماله طبقاً لما رمز له النظام المصري القديم ب "ماعت" آلهة الحق والعدل و النظام الكوني.

ولدينا الدلائل المنصوصة التي أقرّتها قوانين ماعت وعرفت ب الاعتراف السلبي، وقوانين ماعت هي دعوة للتناغم والتوازن الكوني، ولقد وجدت قوانين ماعت ال ٤٢ مدونة بالكامل في كتاب الموتى **"الخروج إلى النهار"** و كتبت بصيغة الاعترافات المنفية و ليس بصيغة الأمر و النهي، لأن الأمر و النهي يُستخدمان لفرض الأخلاق على الناس من الخارج و لذلك يكون دائماً مصحوباً بالتهديد و الوعيد، و لغة الأمر و النهي المشمولة بالتهديد و الوعيد ليست لغة كونية

(إلهية) . و لم يستخدمها قدماء المصريين لفرض الأخلاق على الناس فرضاً . لأنها لغة تخاطب في الإنسان غريزة الخوف التي تسجنه في الوجود الأدنى، و أيضاً لأن قوانين ماعت لم تكن قواعد أخلاقية و إنما كانت جوهر الفضيلة التي أودعها الإله داخل الإنسان .

و هي موجوده فيه منذ بداية الخلق و تنتقل من جيل إلى جيل، و كل ما يحتاجه الإنسان هو استدعاء و استحضار الفضيلة من داخله، و هو ما يُعرف بمصطلح "إيقاظ الضمير"

لذلك نجد أن قوانين الماعت ال ٤٢ كتبت على لسان أرواح الموتى الذين انتقلوا إلى العالم الآخر . و هم يقفون في قاعة الماعت (العدل) يوم الحساب؛ أي أن تلك القوانين لم تفرض على الإنسان من الخارج . و إنما هي نابعة من داخله .

لا يحتاج الإنسان إلى قواعد أخلاقية تفرض عليه من الخارج . لأن بداخله الضمير جوهر الفضيلة، و ما عليه سوى تفعيل الضمير . و هذا ما فعله قدماء المصريين.

و قوانين الماعت ال ٤٢ كما ترجمها والس بدج (Wallis Budge) هي :

١- أنا لم أرتكب خطيئة

٢- أنا لم أسلب الآخرين ممتلكاتهم بالإكراه

٣- أنا لم أسرق

٤- أنا لم أقتل

٥- أنا لم أسرق الطعام

٦- أنا لم أختلس القرابين

٧- أنا لم أسرق ممتلكات المعبد

٨- أنا لم أكذب

٩- أنا لم أخطف الطعام

١٠- أنا لم ألعن (أشتم)

١١- أنا لم أغلق أذنَي عن سماع كلمات الحق

١٢- أنا لم أزنِ

١٣ - أنا لم أتسبب في بكاء الآخرين (إيذاء مشاعر الآخرين)

١٤- أنا لم أنتحب (أحزن) بدون سبب

١٥- أنا لم أعتدِ على أحد

١٦- أنا لم أغش (أخدع) أحد

١٧- أنا لم أغتصب أرض أحد

١٨- أنا لم أتنصت (أتجسس) على أحد

١٩- أنا لم ألفق تهمة لأحد

٢٠- أنا لم أغضب بدون سبب

٢١- أنا لم أغوِ زوجة أحد

٢٢- أنا لم أدنس (ألوث) جسدي

٢٣- أنا لم أقم بإرهاب أحد

٢٤- أنا لم أخالف القانون

٢٥- أنا لم أتمادَ فى الغضب

٢٦- أنا لم ألعن (أشتم) النترو

٢٧- أنا لم أستخدم العنف ضد أحد

٢٨- أنا لم أهدد السلام

٢٩- أنا لم أتصرف بغوغائية (بدون تفكير)

٣٠ - أنا لم أتدخل فيما لا يعنيني

٣١- أنا لم أتحدث بالمبالغة (النميمة)

٣٢- أنا لم أفعل الشر

٣٣ - أنا لم يصدر مني أفكار/كلمات/أفعال شريرة

٣٤- أنا لم ألوث ماء النيل

٣٥- أنا لم أتحدث بغضب أو استعلاء

٣٦- أنا لم ألعن أحداً بكلمة أو فعل

٣٧- أنا لم أضع نفسي موضع شبهات

٣٨- أنا لم أسرق ما يخص النترو

٣٩- أنا لم أنبش القبور و لم أسئ إلى الموتى

٤٠ - أنا لم أخطف لقمة من فم طفل

٤١- أنا لم أتصرف بكبر و غطرسة

٤٢- أنا لم أخرب المباني الدينية (المعابد) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إليه أن المتوفى عليه أن يقدم نوعين من الدفاع:

الدفاع الأول عن نفسه وهو دفاع عام.

الدفاع الثاني: إلى كل من القضاة باسمه وصفاته وأن يبرئ نفسه أمامهم من اثنتين وأربعين خطيئة.

كتاب الموتى يحتوي على عدة فصول تصف وتشير إلى الآتي :

- وقاية الميت من الشياطين والأرواح الشريرة والثعابين وغيرها.

- تعرّف الميت عند البعث الطريق إلى الآخرة.

- تساعده على عبور بحر النار والصعاب التي تهدده.

- تسمح له بالتردد بين العالم الأرضي والعالم الآخر.

- تساعده على الحياة في الآخرة.

- تساعده على الحصول على الماء والغذاء وتلقي الهبات والأضحية، وعطائها في العالم الآخر.

- تساعده على معرفة الأماكن في الآخرة، وتذكر أسماء الآلهة والأسماء الهامة مثل اسم باب الآخرة.

- تساعده على معرفة الأبواب وأسمائها وتعاويذ فتحها والمرور منها والوصول إلى الآلهة وتعريف نفسه إليهم.

ورغم وجود بعض الاختلافات بين تصورنا في الحاضر عن الحياة الآخرة و رؤية الحضارات القديمة لمسألة الحياة بعد الموت، فلا نستطيع أن ننكر أنه توجد بين معتقداتنا ومعتقدات المصري القديم تماثلات كبيرة، ففي حين كان قدماء المصريين يعتقدون في البعث والمثول أمام هيئة قضائية مشكلة من ٤٢ قاضياً يعترف الميت أمامهم بأنه لم يسرق، ولم يقتل أحد، ولم يكذب، ولم، ولم، وكل ما لم يكن يفعله من سيئات في حياته في الدنيا، نجد أن الديانات الإبراهيمية الثلاث التي ظهرت بعد الحضارة المصرية القديمة، تتفق بكل مذاهبها و توجهاتها على فكرة رئيسية يقوم عليها مبدأ الإيمان، و هي مسألة البعث بعد الموت و الحساب بين يدي الإله الخالق لكل شيء، و إذا ما أزيلت هذه الفكرة الأساسية، ينهار بناء الأديان كلياً، و تنتفي الحاجة إلى الإيمان بالآلهة ما دامت لن تعيد تصحيح الموازين المختلة في الحياة الدنيا و تقيم العدل المطلق و الأبدي في الآخرة و تكافئ الطيبين و تعاقب الأشرار.

الخاتمة :

إن التشابه الكبير بين الأساطير المصرية القديمة و ما تذكره الكتب المقدسة للديانات الإبراهيمية فيما يخص مفهوم الحياة والآخرة والبعث بعد الموت و الوقوف بين يدي الآلهة من أجل الحساب و المكافأة أو العقاب على ما سبق من حياة الإنسان، يصل إلى درجة تتجاوز حدود التناص الأدبي، إذ يبدو من الواضح و المؤكد اليوم أن الأديان الإبراهيمية قد اقتبست تلك التفاصيل بحذافيرها لتغيّر فقط تعدد الآلهة بمفهوم التوحيد و تترك الباقي كما هو في غالبيته.

و يبقى السؤال الأهم مطروحاً من جديد : من اقتبس مِن مَن؟.

المراجع المستخدمة في البحث :

١ - كتاب الموتى الفرعوني و أسطورة البعث من الموت و الحساب أمام الآلهة ، مهدي بوعبيد مركز القلم للأبحاث والدراسات ، 2017 م

-2 المبادئ اللاهوتية للديانة المصرية. توبين ، فينسينت آريه (1989)

-3 تعاويذ «العالم الآخر» عند الفراعنة ، مقالة بقلم داليا فاروق بتاريخ 29 فبراير 2020

-4 كتاب الموتى الفرعوني ، برت ام هرو ، ترجمة فيليب عطية ، مكتبة المدبولي القاهرة 1988

الحضارات الشرقية وأسباب اندثار بعضها

أحمد دالي

تمهيد:

نهدف من خلال هذا البحث الوصولَ إلى معرفة ما يمكن معرفته، ولو بإيجاز، عن حضارات بعض الأمم الشّرقيّة ومقوّماتها البشريّة وصلاتها بجيرانها، وخاصّة العلاقات التّجاريّة، والمواقف التي عملت، ومازالت، بشكل دؤوب لتفسير حوادث التّاريخ والمراحل التي تطوّر الإنسان خلالها منذ أولى الحضارات لإيضاح الطبيعة الاجتماعيّة. ومن هنا تكون معرفة فهم الحضارات من الأمور الضروريّة والملحّة لفهم حاضر اليوم، فما من غصن إلا وقد خرج من جذع أصيل.

ويذهب فريق كبير من النّاس وحتّى الدّارسين، إلى اعتبار كلمة حضارة مرادفاً حقيقيّاً للمدنيّة، على اعتبار أنّ المصطلحين يحملان معنى التمركز والاستقرار والتقدم؛ أي التحضّر والتمدّن. وبهذا المعنى البسيط؛ نرى أنّ جميع الأمم والشّعوب قد مرّت بمرحلة سابقة للاستقرار والثّبات، قبل أن ينتهي بها الطريق للركون في بقعة جغرافيّة معيّنة، ثمّ اتّخذت تلك البقعة مكاناً ثابتاً راسخاً لأوجه نشاطاتها وعيشها. وبعد مرور سنين طويلة على استقرارها حتّى بدأت تتوضّح بعض الملامح والصور التي تميّز جماعة بشريّة بذاتها عن غيرها، لتترك أثراً من شأنه أن يميّز بين شعب وآخر، وصولاً إلى بروز تباينات واضحة إلى حدّ الاختلاف أحياناً بين جماعة وأخرى ومنطقة جغرافيّة وأخرى.

وإذا كانت الحضارة في مفهومها العام ذات معنى تقدّمي وتطوّري؛ أي أنّها مفهوم ذو معنى ارتقائيّ، فإنّها في الوقت عينه عمل ذو بعد تراتبيّ وتسلسليّ زمنيّ، والإنسان هو محور تلك الحضارة وهو الفاعل فيها والمنتج لها، وبالتّالي كان الإنسان، ولا يزال المحرّك الطبيعيّ والعفويّ لكلّ فعلٍ تطوّريّ وارتقائيّ. وإن لم يكن ثمّة فكر مدروس ممنهج يبحث عن ذلك التطوّر والارتقاء، لكن الفطرة والغريزة كانتا تدفعانه – أي الإنسان – إلى سلوك سُبُل البحث عن الأفضل.

مع طول فترة الاستقرار، والاعتياد إلى ممارسة أفعال متكرّرة على بقعة واحدة؛ برزت التجمّعات البشريّة المتماسكة – إلى حدّ كبير – مقارنة مع أجدادها، لتتحوّل المجموعة البشريّة إلى ظاهرة سكنيّة وحالة اجتماعيّة أكثر تكاتفاً وتعاوناً من ذي قبل، ضمن أسس وقواعد مرعيّة ومحترمة من قبل جميع أفرادها. ومع مرور الزمن توسّعت وكبُرت القرى وأصبحت مدائن، ومن المدينة خرج مصطلح «التمدّن».

في العقود الأخيرة تمّ تداول مصطلح «صراع الحضارات» وتناحرها بشكل واسع، على أنّ هناك حضارات إنسانيّة مختلفة ومتباينة، وفي نفس الوقت هي حضارات متصارعة متضاربة متناحرة. ولكن يرى فريق آخر من علماء الاجتماع والمفكّرين ومنهم الدّكتور "علي حرب" من لبنان، أنّ الحضارة الإنسانيّة واحدة، وهي نتاج البشريّة جمعاء، ولكن هناك صراع ثقافات، فهناك ثقافات إنسانيّة متنوّعة في إطار حضارة إنسانيّة واحدة.

ومهما يكن من أمر الحضارات في التسمية والاتّفاق والاختلاف؛ فإنّ واقع الحال يقرّ بوجود الشّرق والغرب، الشّمال والجنوب، واختلاف النتاجات الإنسانيّة، عبر سيرورتها الزّمانيّة وظروفها المكانيّة وتنوّع إبداعاتها البشريّة. ومن هنا كان لا بدّ من التقسيم والفصل بين ما هو شرقيّ وما هو غربيّ، وبين آخر شماليّ ومختلف عنه جنوبيّ. فكان للشرق دائماً حصّته الغنيّة من الحضارة الإنسانيّة الشّاملة. لقد كان الشّرق، ولا يزال، غنيّاً بشعوبه وتنوّع ثقافاته ودياناته وآثاره وأساطيره وملاحمه وفنونه، فالشّرق هو شرق ألف ليلة وليلة وجلجامش وأبي الهول وسومر وبابل و...

في رحلة البحث عن الحضارة؛ لا بدّ من المرور بواحة التّاريخ، لأنّ التّاريخ واجهة الحضارة الإنسانيّة، ولذلك انصبّ اهتمام الباحثين على دراسة مراحل تطوّر الشّعوب ورقيّها وربط النتائج بالأسباب، فكان الاستلهام الأكبر من الآثار والنّقوش والرّسوم التي هي أصدق شاهد على تلك المراحل القديمة والغامضة، والتي لا تعكس الكتب والأقوال في كثير من الأحيان الحقائق فيها، حيث تُرجعها إلى شخص أو قائد أو شعب قويّ كتب تاريخه وفق أهوائه.

لقد جرت العادة لدى المؤرّخين والباحثين في حديثهم عن الحضارات أن يمهّدوا لها بالكلام عن تاريخ تلك البلاد التي يبحثون

في حضارتها، وعن جغرافيّتها وتركيبتها السكّانيّة، مع التنويه إلى أنّ العامل الجغرافيّ ليس هو الأساس في تشكيل وتسيير الحضارات. إلا أنّه ينبغي إدخال هذا العامل في الحساب، لأنّه وإن كان صحيحاً أنّ الإنسان هو العامل الفاعل والحاسم في الموضوع، إلا أنّه لا يمكن تجاهل أثر الإنسان في تشكيل حضارته وتسييرها من مبدأ التّفاعل بينه وبين بيئته، وإيجاد الطرق والوسائل التي ابتدعها لترويض الطبيعة واستغلال موجودات البيئة وتسخيرها، وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه تسمية "الجغرافيّا التّاريخيّة"، وهي تغيّرات جغرافيّة مهمّة تؤثّر في حركة التّاريخ لدى شعب ما، كتغيير مجرى نهر مثلاً أو شقّ طريق في جبل أو إغلاق ممرّ طبيعيّ، فكلّ ذلك يمكن أن يعكس آثاره سلباً أو إيجاباً على حركة وفاعليّة ذلك الشعب وعلى مدى تفاعله مع واقعه ومحيطه الجغرافيّ الجديد، وبالتّالي قد تتغيّر طرق التّجارة والسّياحة، فينعكس أثرها على تلك المنطقة الجغرافيّة بما تحتويها من سكّان وعلى تفاعلهم مع جغرافيّتهم، وما ينتج عن ذلك من أحداث قد تؤثّر في تاريخهم وتنعكس مع الأيّام على حضارتهم.

ومن عوامل التأثير الثقافي الأخرى بين الحضارات: الاحتكاك فيما بينها نتيجة الحروب عندما يغزو شعب من حضارة معيّنة شعباً آخر من حضارة أخرى ويزيله من الوجود أو يخضعه له، وربّما كان من أمثلة الانتشار الثّقافي – كنوع ومثال – هو انتشار البوذيّة في الصّين بعد مئات الأعوام من نشأتها في شمال الهند.

سوف نتطرّق في هذا البحث إلى بعض الحضارات الشّرقيّة، على سبيل المثال وليس الحصر، لنتعرّف على بعض الصور والجوانب لدى الشّعوب أصحاب تلك الحضارات، مع التنويه إلى أنّه لا يمكن الإحاطة بجميع شعوب وحضارات الشّرق من خلال بحث كهذا

> **"التّاريخ واجهة الحضارة الإنسانيّة، ولذلك انصبّ اهتمام الباحثين على دراسة مراحل تطوّر الشّعوب ورقيّها وربط النتائج بالأسباب، فكان الاستلهام الأكبر من الآثار والنّقوش والرّسوم التي هي أصدق شاهد على تلك المراحل القديمة والغامضة، والتي لا تعكس الكتب والأقوال في كثير من الأحيان الحقائق فيها، حيث تُرجعها إلى شخص أو قائد أو شعب قويّ كتب تاريخه وفق أهوائه"**

ولا التعمّق فيها.

حضارة بلاد ما بين النّهرين «ميزوبوتاميا»:

كعادته يستند التّاريخ في ظهوره على الوثائق المكتوبة، بصرف النّظر عن شكل وطريقة كتابتها والمادة التي كُتبت عليها سواء كانت حجراً أو جلداً أو بُرديّاً. وتثبت الدّراسات أنّ أقدم الوثائق التّاريخيّة التي عثر عليها كانت في وادي الرّافدين ووادي النيل، وتعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

«ميزوبوتاميا» هي التسمية الإغريقيّة التي شاع استعمالها عند الكتّاب الأوروبيّين، وهي ذات مصطلح "بلاد ما بين النّهرين» الجغرافيّ الذي استخدمه اليونان والرّومان في الفترة ما بين القرنين الرّابع والثّاني قبل الميلاد، والذي يُطلق على الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات. وقد جاء في التّوراة بعد ترجمته إلى اليونانيّة مُسمّى

«آرام نهرايم» الذي يعني "بلاد ما بين النّهرين» وتُرجِمَ المصطلح بكلمة "ميزوبوتاميا" اليونانيّة، وبعد ذلك شاع استخدام "بلاد ما بين النّهرين» ليُطلق على العراق بأكمله من النّاحية الجغرافيّة.

ومع أنّ البيئة الطبيعيّة للمنطقة اشتهرت بتدفّق ثرواتها المائيّة الكبرى وغناها بالمحاصيل الزّراعيّة، إلا أنّها كانت فقيرة بشكل كبير بالمواد الأوّليّة التي تلزم لبناء وتوطيد الحضارة، مثل الأخشاب والمعادن والحجارة، ولذلك كان الاضطرار إلى تأمين تلك المواد من الأقاليم المجاورة القريبة منها والبعيدة، وهذا ما أضفى صفة التّجارة على حضارة "ميزوبوتاميا" إلى جانب بروزها كحضارة زراعيّة. وكونها أصبحت حضارة تجاريّة؛ فقد استلزم ذلك تنظيم شؤون التّجارة الخارجيّة، مثل الحفاظ على الطرق وتأمينها وتسيير القوافل وتنظيم وتطوير المعاملات التّجاريّة، وهذا بدوره استدعى من النّاحية السّياسيّة توحيد الجهود وتكاتف القوى للوصول إلى دولة مركزيّة قويّة قادرة على حماية التّجارة الخارجيّة وازدهارها. فكان الاتّحاد بين المدن الكبيرة المتضاربة في مصالحها التّجاريّة، بهدف توزيع الفائدة على الجميع، بدلاً من التّناحر والتّضارب في المصالح، ومن هنا كان ظهور البذور الأولى لأنظمة الحكم، وتطوّرها فيما بعد إلى الوحدة السّياسيّة والاقتصاديّة الشاملة، وخاصّة من جهة تنظيم شؤون الريّ والزّراعة والسيطرة على الأنهار وإقامة مشاريع الريّ الكبيرة.

أمّا الحملات العسكريّة والحروب الخارجيّة التي كانت تشغل حكّام البلاد منذ أقدم العصور؛ فكانت لهدفين اثنين، الأوّل من أجل حماية وسلامة الطرق التّجاريّة، وذلك بالسّيطرة على المناطق التي تمرُّ منها تلك الطرق وإخضاع سكّانها لسيطرتها، وإقامة الحصون والحاميات العسكريّة في النّقاط الإستراتيجيّة فيها. والثّاني من أجل ضمان الحصول على المواد الأوّليّة التي تفتقر إليها المنطقة من الخارج، ولهذا السّبب اشتهر وادي الرّافدين بالموانئ على الأنهار وتطوّرت المعاملات التّجاريّة والقوانين المكتوبة، ومنها شريعة حمورابي الشّهيرة.

هذا الأمر تطلّب اهتماماً كبيراً بالطرق والاتّصالات الخارجيّة، ولذلك أخذ هذا الموضوع بُعداً وحيّزاً واسعاً لدى أهل الخبرة، فوضعوا ما يشبه دليل الطرق والمسالك التّجاريّة الخارجيّة، وقسّموها إلى:

– الطرق المؤدّية إلى الأقاليم الغربيّة، أي إلى بلاد الشّام وسواحل البحر المتوسّط.

– الطرق المؤدّية إلى الأقاليم الشّرقيّة والشّماليّة الشّرقيّة، وكانت أكثر صعوبة ووعورة من الطرق الغربيّة بسبب الطبيعة الجبليّة لتلك المناطق.

– الطرق المائيّة: من خلال الأنهار التي تصل إلى الخليج الذي يربط بدوره العراق بالجزيرة العربيّة والهند وشرقيّ آسيا.

أمّا من ناحية العبادة والجوانب العقائديّة؛ يلمس المتتّبع ذلك جليّاً في أساطير المنطقة، إذ تبرز صفة الصراع والاحتراب في تلك العقائد، وما يتطلّب ذلك من صراع وكفاح للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها، وترويض عناصر البيئة لخدمة الإنسان، حيث نجد التفكير إلى أبعد الحدود في الحياة الدنيا والانشغال بها. وتبدو سمة الصراع والقوة والعنف واضحة في أساطير ميزوبوتاميا، وموضوع الطوفان الذي يحتلّ مكانة مرموقة في حضارتها، وجدت تعبيرها بشكل قويّ في ملحمة جلجامش، كحدث مهمّ.

حضارة وادي النيل:

كلّما ذُكِر اسم الشّرق وحضاراته؛ قفزت إلى الأذهان حضارة وادي النيل، وكلّما

حضر اسم النيل وحضارته؛ فرض الفراعنة أنفسهم كأصحاب إحدى أهمّ وأرقى وأقدم حضارات المنطقة برمّتها. وصدق من كنّى مصر بـ "أم الدنيا" نظراً لموقعها الجغرافيّ وإشرافها على البحرين المتوسّط والأحمر ونهرها العظيم (النيل)، وأهراماتها وجميع آثارها وفراعنتها، إلى جانب تنوّعها الإثني والبشريّ عبر التّاريخ وإلى اليوم.

ولا يمكن إغفال فنون وادي النيل ونحن نخوض في حضارته، ففي مصر عُثر على رسوم لأشكال حيوانيّة وآدميّة تعود إلى الألف الخامسة قبل الميلاد شبيهة إلى حدّ كبير بمثيلاتها في بلاد ما بين النّهرين، كما كشفت البعثات الأثريّة والأبحاث التّاريخيّة عن رسومات وأشكال لقوارب الصيد والملاحة لدى القبائل التي سكنت على ضفاف النيل. كما تدلُّ آثار تلك المناطق على أنّ سكّانها عرفوا صناعة المنسوجات والسّلال واستخدموا العاج والصدف والعظم للزينة والتجمّل. وما من شكّ أنّ ما تتميّز به مصر في عصرنا من فنون الموسيقا والغناء والرّقص، قد استمدّت عظمتها من سابقاتها وأسلافها ممّن برعوا وأبدعوا في تلك الفنون، "فمن لا ماضي له لا جديد له" على رأي المثل الشّعبيّ.

حضارة الآشوريّين:

من الطبيعي أن يُنسب التّاريخ بما يحتويه من حضارات إلى الأقوام والشّعوب التي أوجدتها وابتدعتها فتُذكر باسمها، واسم الآشوريّين مأخوذ من النّسبة إلى "آشور"، كما تشير التسمية. و»آشور» كلمة أطلقت على أقدم مراكز الآشوريّين وهي عاصمتهم التّاريخيّة، ونفس التسمية كانت تُطلق على إلههم القوميّ، وبالتّالي فإنّ نسبة الأقوام إلى المدن والأماكن كان ومازال استخداماً مألوفاً وشائعاً مثل نسبة البابليّين إلى مدينة بابل، ونسبة الأكاديّين إلى أكاد وهكذا. والموطن

> **برع السّومريّون في علوم الفلك بشكل لا يُضاهى، فهُمْ أوّل مَنْ وَضَعوا التقويمين الشّمسيّ والقمريّ، ومن خلال معرفتهم العميقة بالفلك؛ اكتشفوا الفصول الأربعة ومواعيدها بدقّة، ولعلّ من الاختراعات الفريدة التي تفرّد بها السّومريّون في زمانهم هو ابتكار الدّولاب الذي أحدث ثورة في الصّناعة ووسائل النّقل، ومن اختراعاتهم أيضاً المحراث**

الذي حلّ فيه الآشوريّون هو الجزء الشّماليّ الشرقيّ من العراق، وهم من الأقوام السّاميّة الذين تكلّموا السّاميّة الشّرقيّة.

اشتهرت حضارة وادي الرّافدين كمثيلاتها بالصلات والعلاقات التّجاريّة مع جيرانها منذ عصور ما قبل التّاريخ، وكان ازدهار التّجارة في عصر دول المدن، حيث كانت المتاجرة بموادّ مهمّة مثل الفضّة والصوف. واتّسعت دائرة العلاقات التّجاريّة أكثر مع بلاد الأناضول في العصر الآشوريّ القديم (٢٠٠٠ – ١٥٠٠ ق.م)، حيث أقام التُّجار الآشوريّون مستوطنات وجاليات تجاريّة في الأناضول، وأقدم الأخبار المدوّنة عن تلك الحقبة، بحسب المؤرّخين، تعود إلى زمن الملك الآشوريّ «إيريشيم» الأوّل (١٩٤١ – ١٩٠٢ ق.م). وقد اشتهر من تلك المراكز التّجاريّة مدينة "كول تبه» إذ ورد اسمها في النّصوص المسماريّة وكذلك مدينة "علي شار".

أهمّ ما يميّز الحضارة الآشوريّة من ناحية الفنون؛ الاهتمام بالتّماثيل وخاصّة تلك التي تُكرّس قوّة الحضارة الآشوريّة مثل الثيران المجنّحة، وكانت تُبنى أمام قصور الملوك، كما اشتهرت هذه الحضارة بتزيين جدران القصور والبيوت، على السّواء، بالرّسوم والنّقوش التي تعبّرُ عن طبيعة ومعالم الحياة في الحضارة الآشوريّة، ومنها رحلات الصيد

وأهمّ ما يميّز الحضارة الآشوريّة من ناحية الفنون؛ الاهتمام بالتّماثيل وخاصّة تلك التي تُكرّس قوّة الحضارة الآشوريّة مثل الثيران المجنّحة، وكانت تُبنى أمام قصور الملوك، كما اشتهرت هذه الحضارة بتزيين جدران القصور والبيوت، على السّواء، بالرّسوم والنّقوش التي تعبّرُ عن طبيعة ومعالم الحياة في الحضارة الآشوريّة، ومنها رحلات الصيد. ويُعرف عن الاشوريّين أنّهم كانوا من أعظم البنّائين ولذلك أقاموا وأشادوا أروع المدن والقصور والمعابد، وفي الحرب ابتكروا المنجنيق واستخدموا المركبات الحربيّة والخيول، لأنّها في أساسها كغيرها من دول عصرها قامت على أساس عسكريّ وحربيّ.

ومن أشهر ملوك آشور وآخرهم هو الملك «آشور بانيبال» وعُرف عنه علمه وثقافته، ويُقال إنّه في فترة حكمه أنشأ مكتبة ضخمة ليحفظ فيها السجلّات القديمة والنّقوش الأدبيّة والتّاريخيّة والرّياضيّة والفلكيّة.

الحضارة السّومريّة:

تُعتبر الحضارة السّومريّة من أشهر حضارات بلاد الرّافدين، وهي من أقدم الحضارات في تاريخ الإنسانيّة، وتحوي الكثير من الأسرار، حيث يعود بها التّاريخ إلى خمسة آلاف قبل الميلاد، إذ أنشئت في الألف السّادس قبل الميلاد على أرض سومر – وهو سبب تسميتها – في المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، لتمتدّ بعد ذلك إلى سوريّا ومنطقة الخليج العربيّ.

أولى الحِرَف التي امتهنها السّومريّين كانت الزّراعة إلى جانب الصيد في مرحلة لاحقة، كما امتهنوا دباغة الجلد والخياطة وغزل الصوف، والبراعة في الهندسة كانت إحدى ميّزات هذه الحضارة، ومن نتائجها تخطيط وبناء المدن الشّهيرة مثل مدينة «أور»، والقصور الفارهة الضخمة، وعرفت الحضارة السّومريّة كذلك الموسيقا والفنون التشكيليّة.

برع السّومريّون في علوم الفلك بشكل لا يُضاهى، فَهُمْ أوّل مَنْ وَضَعوا التقويمين الشّمسيّ والقمريّ، ومن خلال معرفتهم العميقة بالفلك؛ اكتشفوا الفصول الأربعة ومواعيدها بدقّة، ولعلّ من الاختراعات الفريدة التي تفرّد بها السّومريّون في زمانهم هو ابتكار الدّولاب الذي أحدث ثورة في الصّناعة ووسائل النّقل، ومن اختراعاتهم أيضاً المحراث.

والحديث يطول ويطول عن كلّ حضارة شرقيّة على حدة وخاصّة السّومريّة، وكما نوّهت في البداية أنّه سيقتصر حديثنا على الإلمام ببعض أشهر حضارات الشّرق وذِكرِ بعض الجوانب التي تميّزت بها، وليس هدفنا الخوض والتعمّق في حيثيّات وتفصيلات جميع حضارات المنطقة.

أسباب اندثار الحضارات.. سقوط الحضارات:

الديمومة والاستمرار صفات يبحث

عنها الإنسان منذ الأزل، سواءً على المستوى الفرديّ أو الجماعيّ، وكذا الحضارات الإنسانيّة حاولت، ولا تزال تحاول، الحفاظ على ديمومتها واستمرارها ما أمكن من الزّمن. وكما أنّ هناك أسباباً موضوعيّة وذاتيّة تساهم في نشوء دولة أو حضارة ما، فإنّ أسباباً معاكسة، إن وُجدت، تؤدّي بتلك الدّولة أو الحضارة إلى الاندثار والزّوال. ولكي نفهمَ عوامل السّقوط والزّوال؛ لا بُدَّ من التأمّل في عوامل الازدهار. فإذا ما جُفّت منابع التطوّر والعطاء لدى أمّة ما انهارت على أثَرِها، وليس بالضرورة أن تكون تلك الأسباب نتيجة لعوامل خارجيّة، سواءً من فعل الإنسان نفسه، مثل الحروب والتّحالفات المضادّة والمؤامرات، أو من فعل الطبيعة كالزّلازل والفيضانات وما شابه. فقد تكون تلك الأسباب نابعة من الضعف فتؤدّي بالنهاية إلى السّقوط فالزّوال، وهي أسباب عائدة إلى عوامل ذاتيّة داخليّة مرتبطة بطبيعة المجتمعات التي تعيش وتُحكم داخل تلك الحضارات، ومنها أيضاً المؤامرات الدّاخليّة والانقلابات داخل الأسر الحاكمة، أو فساد نظام الحكم، بشكل أو بآخر، نتيجة الانجرار وراء المصالح الشّخصيّة والاستبداد بالحكم والتفرّد بالسُّلطة، والتحكّم بخيرات البلاد والانفصال عن الشّعب.

تلك الأسباب العامّة التي تمّ طرحها؛ تكادُ تكون واحدة على صعيد المجتمعات الصغيرة منها والكبيرة بما فيها المدينة والدّولة وحضارة شعب ما، وحتّى على صعيد العائلات والمقاطعات وجميع أنظمة الحكم وأشكال التجمّعات الإنسانيّة منذ نشأتها. ولكن عندما يتعمّق المرء أكثر في أصل ولادة الاستبداد، ويبتعد عن حديث العموميّات؛ سيرى أنّه ثمّة أسباباً عمليّة وواقعيّة تطرح نفسها على طاولة المناقشة حيال سقوط واندثار حضارة من الحضارات، ومنها العامل السكّاني (الدّيموغرافيّ) والعوامل الاقتصاديّة من حيث تأمين التّجارة والغذاء والوحدة الثقافية وتقسيم العمل ووجود حكومة مركزيّة قويّة وجيش لا يُهزم، وهذه العوامل تعمل فيما بينها بطريقة متلازمة ومتطلّبة، وأيُّ سقوطٍ في عامل منها سيؤدّي إلى اهتزاز وزحزحة في بقيّة العوامل، وإذا استمرّ الاهتزاز؛ سيصل مع الزّمن إلى زلزال نتيجته السّقوط، وبذلك تتداعى الحضارة وتؤول إلى الزّوال والاندثار، لتقوم ثقافة أو حضارة أخرى مقامَها.

ويرى العلماء أنّ من أسباب اندثار الحضارات أيضاً العوامل الطبيعيّة مثل تغيّر المناخ والأوبئة والأمراض والمجاعات الكبرى، ويؤكّد علماء اليوم أنّ التغير المناخيّ أدّى بشكل مباشر أو غير مباشر لاختفاء بعض الحضارات القديمة، ويستشهدون باندثار حضارة وادي السّند (باكستان) التي تُعتبر من الحضارات العالميّة القديمة إذ نشأت قبل حوالي ٤٥٠٠ سنة.

ويضرب العلماء أمثلة أخرى لانقراض الحضارات وزوالها، مثلما حصل في أوروبا أثناء المجاعة الكبرى في أوائل القرن الرّابع عشر الميلادي، بسبب ارتفاع مستوى الأمطار بشكل غير مسبوق وطبيعيّ ودمار الأراضي الزّراعيّة. وتشير بعض الدّراسات التي توصّل إليها علماء المناخ أنّ الجفاف والعواصف التّرابيّة كانت السّبب في اختفاء الحضارة السّومريّة بصورة مفاجئة قبل نحو ٤٢٠٠ عام، بحسب مقال صدر عن فريق علميّ متخصّص من جامعة أكسفورد، وكذلك الحضارة الأكّاديّة بعد حوالي ٢٠٠ سنة على قيامها على يد سرجون الكبير، حيث اختفت مع عاصمتها «أكّاد» رغم أنّها كانت أعظم حضارة وأقوى دولة في وقتها، وبقي اختفاؤها موضع جدلٍ بين المؤرّخين والعلماء، فمنهم من يرى أنّ شعوب ومدن بلاد ما بين النّهرين لم تكن راضية عن السُّلطة المركزيّة، فناضلت وثارت على سرجون وأحفاده، وآخرون يرون أنّ أسباب اختفائها مرتبط بالحروب والغزوات. إلا أنّ بعض الجيولوجيّين وعلماء المناخ يتحدّثون في الفترة الأخيرة عقب الحفريّات في سوريا، عن كارثة مناخيّة ضربت المدن الكبيرة

> **مثلما هناك أسباباً موضوعيّة وذاتيّة تساهم في نشوء دولة أو حضارة ما، فإنّ أسباباً معاكسة، إن وُجدت، تؤدّي بتلك الدّولة أو الحضارة إلى الاندثار والزّوال. ولكي نفهمَ عوامل السّقوط والزّوال؛ لا بُدّ من التأمّل في عوامل الازدهار، ويعتقد بعض المؤرّخين والعلماء أنّ شعوب ما بين النّهرين لم تكن راضية عن السُلطة المركزيّة في الامبراطوريّة الأكّاديّة، فناضلت وثارت على سرجون وأحفاده، وأنّ أسباب اختفائها مرتبط بالحروب والغزوات**

في بلاد ما بين النّهرين قبل حوالي ٢٢٠٠ سنة قبل الميلاد، وبدأت على أثرها مرحلة جفاف شديد في الشّرق الأوسط، وبسببها دُمّرت حضارة سومر.

خاتمة:

تبرز الحضارة بصورة واضحة في نمط حياة الشّعوب والقبائل البدائيّة، من حيث هي جماعات منظّمة، وفي أسلوب توجّههم ونظرتهم إلى الكون، وخصوصاً في النّسيج الاجتماعيّ وجملة العلاقات التي تترسّخ بينها، ولكن هذا لا يعني أنّ الجماعات غير المنظّمة تاريخيّاً لا تتميّز بخصوصيّة ثقافيّة معيّنة.

وينبغي الاعتراف أنّه ليس في هذا الكون حقيقة واحدة وثابتة، فالحقائق التّاريخيّة والسّياسيّة ليست دائماً هي وجه الحقيقة النّاصع، ثمّ إنّها تتغيّر على الدّوام بتطوّر الوعي المعرفيّ للإنسان وقدرته المتزايدة على كشف الحقيقة المزيّفة، والحقيقة التي كانت صحيحة في يوم من الأيّام قد تصبح في زمن آخر حقيقة مزيّفة، لأنّه لا توجد حقيقة بأحرف كبيرة لا تشوبها شائبة ولا يصيبها الشكّ، بل جميع الحقائق هي صحيحة بقدر ما يحمل أصحابها من قوّة على الأرض وثبات في الكتب ورسوخ التّاريخ. وفي هذا الصدد لا بد من إجراء التبادلات الثّقافيّة بين الشّعوب لدفع تطوّر الحضارة الإنسانيّة إلى الأمام بصورة سليمة ومنسجمة، فالتّبادل الثّقافيّ هو القوّة المحرّكة للحضارات، وهو من ساهم بشكل أو بآخر في خلق الاندماج الثّقافيّ بين الشّعوب.

المراجع:

— اللّغات والحضارات الشّرقيّة نظر وتطبيق — تنسيق أحمد شحلان وإدريس عبيزة.

— مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة — طه باقر.

— الدين في الحضارات الشّرقيّة القديمة — د. محمود أيّوب الشنّاوي.

— الحضارات القديمة — ترجمة: نسيم اليازجي.

النظريات الدينية وتأثيرها على الفكر الشرقي

هيوا أحمد

مخطط البحث:

١ـ مدخل عام إلى مفهوم المعتقد الديني

٢ـ لمحة عن بعض الصفات المشتركة في المعتقدات القديمة

وندرس فيها:

ـ الرهبة تجاه المقدَّس

ـ تداخل الطقوس مع الأساطير

ـ الأرواح ما بين العبادة والرهبة

ـ القرابين وطقوس التطهير

ـ الطوطمية

ـ الإله الأعلى ـ آلهة السماء

٣ـ بعض الديانات الشرقية القديمة

وندرس فيها:

ـ بلاد ما بين النهرين

ـ معتقدات مصر القديمة

٤ـ الديانات التوحيدية

٥ـ أثر النظريات الدينية على الفكر الشرقي

٦ـ خاتمة

مدخل إلى المعتقدات الدينية

تقترن الحياة الإنسانية بمجموعة من الروادع الدينية والأخلاقية، إلى جانب الضمير والترغيب والترهيب في كثير من الأحيان، وقد تلتقي تلك الروادع في وقت واحد مجتمعة أو تكون منفردة لدى الإنسان، ولعلّ الوازع الديني يبقى أقوى تلك الروادع أمام بني الإنسان، نظراً للقدسية التي منحها إياه الإنسان نفسه، لذا فإن الملاحظ هو أن الوازع الديني كان الأقوى وما يزال، في الردع والكبح والتعبئة والتحكم فيما يتعلق بالإنسان العاقل السويّ، وإذا أما أخذنا بفرضية أن الحسّ الديني جزء أساسي في تكوين الإنسان وكينونته، وأنه موجود بالفطرة لدى جميع البشر، ولكن بدرجات متفاوتة تبعاً للبيئة الاجتماعية وقوة المسائل الروحية السائدة والمستويات الثقافية والطبيعة الفردية للإنسان، إلا أنه قد يكون مخفياً بل مطموراً عند أولئك الذين يمانعون في ظهوره إلى الوجود و يجحدونه، أو قد يكون عارماً طاغياً مسيطراً عند الصوفي الذي يرى الفعل الإلهي في كل حركة في الكون من حبة الرمل إلى نجوم السماء.

وإذا كان «أرسطو» قد عرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق أي إنه مفكر إلا أن غيره من الفلاسفة عرّفه على أنه حيوان متديّن، فذهب «هيغل» إلى أن الإنسان وحده يمكن أن يكون له دين دون باقي الحيوانات، التي تفتقر إلى الدين بمقدار ما تفتقر إلى القانون والأخلاق، ذلك أن التديّن كما أسلفنا عنصر أساسي في تكوين الإنسان.

ويذهب بعض المتصوّفة في الإسلام، مثل الجنيد وابن عطاء الله السكندري إلى القول إنّ الإيمان فطريّ في النفس البشرية، شأنه في ذلك شأن العقل تماماً، وهذه النفس سابقة في وجودها على البدن، وأن البدن هو الذي حجب الإيمان ومنع ظهوره، وأطلقوا على فكرتهم هذه «الميثاق الأعظم»، وكان ابن سينا أيضاً من المتكلمين عن النفس واستقلالها عن البدن، ولكن تفسير الحسّ الديني قد خضع لنفس التطور الذي خضع له الإنسان بجميع جوانبه، ولذلك مرّ هذا الحسّ بمراحل كثيرة تبعاً للإطار الثقافي الذي نشأ فيه، وربما هذا ما يفسر كثرة الديانات منذ أن وُجد الإنسان على الأرض، بدءاً بالأساطير والخرافات والشعوذة حتى مرحلة ظهور الديانات البشرية ومن ثم الديانات السماوية.

إن دراسة الديانات والمعتقدات على علاقة وطيدة بمعرفة سلوك البشر في مختلف العصور التي عاشها والكشف عن طبائع الشعوب والأمم، وهذا ما دفع الإنسان منذ القِدم بكل رغبة وفضول إلى دراسة المعتقدات والبحث فيها وحتى يومنا هذا.

إذاً الديانات مرتبطة بالإنسان منذ نشأته الأولى، وخاضعة لتطوّره عبر تاريخه الطويل، بمعنى أنّ كل المراحل التي خضع لها التطور البشري يمكن إسقاطها على المعتقدات والديانات أيضاً، فالإنسان لم يُخلق دفعة واحدة على هيئته الحالية لا من حيث الشكل ولا من حيث المعرفة، ومن ناحية كل ما يتعلق بالتطور البيولوجي والفكري على السواء، وإذا كان الإنسان قد بدأ بما يسمى المرحلة البدائية «الإنسان البدائي» فإن ذلك ينسحب حكماً على معتقداته التي ستكون «معتقدات بدائية».

إن مفهوم البدائية في علم الأنتروبولوجيا «علم الوجود الإنساني» مرتبط بشكل وثيق بمفهوم «الارتقائية» أو «التطورية»، و مفهوم التطورية قد نشأ و ظهر في أواسط القرن التاسع عشر للإشارة إلى النظريات البيولوجية والأنتروبولوجية التي ظهرت في ذلك الوقت، وكانت الغاية منها تقسيم الظواهر الاجتماعية و البيولوجية على أساس أنها ارتقاء عمودي من الأدنى إلى الأعلى، بحيث يؤدي بالنتيجة المستوى الأدنى السابق أو القديم إلى شكل لاحق أو جديد أرقى وأعلى، لا شكّ أن ظهور كتاب «داروين» في أصل الأنواع قد أحدث ثورة في علم البيولوجيا والتطور، وكان الفيلسوف الإنكليزي «هربرت سبنسر» قد تحدث قبل ذلك عن التطور وأنه المبدأ الذي يحكم التغير على كل صعيد، و قد ورد ذلك من خلال مقالته (التطور و قوانينه» حيث قال فيها: «إن

التحرك قِدماً من البسيط إلى المركب عبر عملية متسلسلة من التمايز والتتابع، هو شأن أكيد يمكن ملاحظته في تطور الإنسانية، و في تطورها ما لا يحصى من النواتج الفكرية و المادية للنشاط الإنساني».

إن سبب نظرتنا إلى كل ما هو قديم على أنه الأدنى في سلم التطور، وأن كل ما هو حديث هو الأرقى والأعلى على هذا السلم التطوري الصاعد، يعود إلى نظرية «داروين» في أصل الأنواع، لأن المفهوم التطوّري قد دخل إلى صلب تفكير الإنسان الحديث و نظرته إلى الأمور بعد تلك النظرية، وحكماً قادت هذه الفكرة مع الزمن على الحكم بما هو أدنى بالتدنّي، وعلى ما هو أعلى بالرقي والسمو والتطور، وقد توسع مفهوم التدني ليشمل الانحطاط والدونية من النواحي العقلية والخلقية والاجتماعية، وحتى من الناحية الطبيعية، إذ أنّ شجرة التطور لنسب الإنسان وفق نظرية «داروين» تقوم على الرسوم البيانية النشوئية الخاصة بتطور الإنسان، حيث تُرسم الأشكال الأقدم في الجزء الأدنى من الشجرة، وتُرسم الأشكال الأحدث في الجزء الأعلى، وهكذا حتى المجموعات البشرية الأحدث التي تقع في أعلى الشجرة، والتي تُعتبر الأرقى والأسمى، لذلك تجد أن الإنسان الأوربي الحديث الأبيض يعتلي الشجرة كآخر وأعلى فروع الرسم على شجرة تطور النسب تلك بينما تظهر الأجناس الأخرى في الأدنى، وهي تتفرّع من المناطق الدنيا الأكثر قِدماً، لذلك تجد إنساناً في أدنى رسم الشجرة مثل الإنسان الأسترالي الأصلي. طبعاً هذا التصنيف عائد إلى شجرة داروين في تصنيف الأنواع البشرية.

لقد قادت المفاهيم التطورية بالنتيجة إلى ابتكار وإحداث مصطلح «البدائي أو البدائية»، وعلى ذلك اعتُبر الإنسان البدائي هو ذلك الإنسان الذي عاش في بداية مرحلة النشوء والارتقاء، مثل إنسان القبائل البدائية، ومن هنا خرج الحديث عن إنسان بدائي يرافقه دين بدائي وأخلاق بدائية وتجمعات إنسانية بدائية على شكل مؤسسات بدائية، وبالتالي سوف يُطبّق عليها الحكم

تقترن الحياة الإنسانية بمجموعة من الروادع الدينية والأخلاقية، إلى جانب الضمير والترغيب والترهيب في كثير من الأحيان، وقد تلتقي تلك الروادع في وقت واحد مجتمعة أو تكون منفردة لدى الإنسان، ولعلّ الوازع الديني يبقى أقوى تلك الروادع أمام بني الإنسان، نظراً للقدسية التي منحها إياه الإنسان نفسه، لذا فإن الملاحظ هو أن الوازع الديني كان الأقوى وما يزال، في الردع والكبح

القيمي الذي يعتبر كل ما هو بدائي حالة متدنية كما أشرنا سابقاً، وسيحجز ذلك الإنسان البدائي الفروع السفلى من شجرة التطور.

لكن السؤال المطروح هنا: هل هذا الحكم القيمي بهذه الصورة حكم عادل ودقيق؟ إن الأدوات القديمة هي لا شكّ بدائية مقارنةً مع الأدوات العصرية الحديثة، بالتالي لا أحد ينكر أن تلك الأدوات القديمة ستأتي في الدرجات الدنيا من السلم الارتقائي الصاعد لتطور الأدوات والوسائل، مثل السهم والرمح والسكين وأدوات الحراثة والزراعة والصيد وغير ذلك، لكن كيف لنا أن نحكم بأنّ الأحكام الاستبدادية التي سادت في الحضارات الكبرى الحديثة نسبياً بالنظر إلى سلالم تطور المجتمعات أنها أكثر تطوراً و ارتقاء من الحكم القبلي القديم القائم على العدالة و المساواة بين أفراد القبيلة الواحدة إضافة إلى تمتعهم بحريتهم؟ وكيف للإنسان السويّ ذي الفطرة السليمة أن يقتنع بأن العلاقات الإنسانية في ظل المدنية الحديثة القائمة على التنافس والحروب هي أكثر تطوراً

ورقياً من العلاقات البدائية القائمة على المشاركة والتعاون والتقاسم العادل؟ ثم إن الأديان المتأخرة في نشوئها أو نزولها والتي لم تتوانَ هي الأخرى في قرع طبول الحروب ضد الشعوب الأخرى التي لم تنضوِ تحت لوائها ولم تستظلّ تحت رايتها، هل هي الأخرى أكثر تطوراً وإنسانية من الأديان البدائية التي كانت تتّسم بالتسامح مع جميع المعتقدات الأخرى حتى وإن كانت مختلفة معها؟ وهل يستطيع أحد أن ينكر أن ابن البداوة في رماله وابن الأسكيمو في جليده هما أكثر وفاء وصدقاً وتعاوناً وإخلاصاً من أبناء أكثر المجتمعات الحديثة المتمدنة؟

من المهم أن تعترف الإنسانية الحديثة التي فرضت نفسها في أعلى فروع شجرة التطور «الداروينية» بخطأ ذلك التصنيف المجحف، بحق البدائي والقديم في مجالات كثيرة جداً، إن لم نقل كلها. فالمجتمعات القديمة لم تكن مرحلة طفولية أو عالة على البشرية، ولم تكن أيضاً انحرافاً فجّاً أو وصمة عار على جبين البشرية عبر مراحل تطورها، ولم تكن كذلك سدّاً مانعاً أمام ما يسمى بالسلم الارتقائي الصاعد كما يدّعون. وعلى ذلك فإنّ الإنسان القديم الذي ابتدع أجمل الفنون والهندسات التي مازالت شاهدة على العصر، وتُصنّف إلى الآن على أنها من عجائب الدنيا، ليس قاصراً عن أن يبتدع دياناته ومعتقداته التي تصونه وتضمن له حريته وعدالته وإنسانيته كما ينبغي، لأنه من الخطأ الجسيم الارتكاز على نواحٍ غير متطورة في الإنسان والثقافات القديمة مثلَ التكنولوجيا والاقتصاد والفيزياء والطب ثم استخلاص تعميم يفترض أن باقي نواحي وجوانب حياة تلك الثقافات هي الأخرى غير متطورة بالمقدار ذاته.

بعض الخصائص المشتركة في المعتقدات والديانات البدائية

قد يصعب الثبات على خصائص جامعة للديانات البدائية من الوهلة الأولى، وذلك نظراً لتنوع المشهد الديني عند الشعوب البدائية بتنوع أنماط الحياة والثقافات التي عاشت لدى تلك الأقوام، لأن كل ديانة تقوم على تصورات فكرية وممارسات طقسية خاصة بها، من هنا تبدو صعوبة التعميم، إلا أنه مهما يكن التنوع طاغياً فإنه يمكن الركون إلى استخلاص سمات دينية متشابهة للأقوام البدائية جمعاء، والثبات على مظاهر وطقوس مشتركة لممارساتهم الدينية.

١ـ الرهبة تجاه المقدَّس

تفرض القداسة نفسها كأولى السمات للدلالة على الحالة الدينية لدى الجماعات والأقوام البدائية، ونظرة التقديس تلك تجمع بين الاحترام والرهبة والحذر معاً مهما كان الشيء المقدَّس، إن كان إنساناً أو مكاناً أو ظاهرة طبيعية، فالمقدَّس يحمل الوعد بالبركة والفوز والنجاة، وله قوة خارقة تُحيي وتميت معاً، إضافة إلى امتلاكه قوة الخير وقوّة الشر بشكل مباشر، والمهم هنا موقف الفرد تجاه المقدَّس، لأن هذا الموقف هو الذي سيتحدّد عليه ما سيصدر عن المقدَّس من خير أو شر، من فرج أو ابتلاء، من سعادة أو شقاء.

لكن الغريب في الأمر هو أن المتعاملين مع المقدَّس والممتثلين لأمره من النادر ألّا يُصابوا بضرر، لأن التعامل مع المقدسات يتطلب التقوى والخشوع والشعور بالرهبة والتبجيل والتعظيم، وقد لا تتوفر تلك المتطلبات بالشكل الصحيح في كل حين، ولدى كل فرد أو جماعة.

٢ـ تداخل الطقوس مع الأساطير

لكل من الطقس والأسطورة جذورٌ في الآخر، فهما وجهان لعملة واحدة، وقلّما نجد شعباً لا يمتّ بصلة إلى الأساطير أو الطقوس. لقد نسج الإنسان الأساطيرَ من وحي الخيال وأعطى بذلك سمة عالمية للجنس البشري، ولا توجد أمة بشرية بريئة من ذلك. إن الدافع وراء خلق الأساطير يعود إلى الطقوس نفسها، فعندما وجد البدائيون أنفسهم يمارسون طقوساً معينة و يتّبعون عادات بعينها و بشكل متواتر و منتظم، لكن دون إدراك فعلي لمعانيها، لم يجدوا جواباً

مقنعاً إلا أن يقولوا إن آباءنا وأجدادنا علّمونا أن نقوم بذلك، وإننا على نهجهم سائرون، وعندما يصبح القول غير مقنع حتى لقائله، سيدفعه هذا إلى البحث عمّا يفسر تلك الطقوس والعادات، فغاصوا في الزمن البعيد ينسجون الأساطير إلى ما قبل الآباء والأجداد الحاضرين في الذاكرة، وصولاً إلى أسلافهم الأسطوريين، وهم الأبطال الذين رُسمت صورهم في المخيلة على أنهم أبطال بداية الخلق و العالم، أو ربما يجري التفكير في البحث عن إله أعلى يُرمى على ظهره كل شيء بوصفه الخالق، وواضع طريقة الحياة وكيفية العيش.

بالنتيجة تعود الأساطير برمّتها إلى الموروث الميثولوجي للجماعات البدائية، وأساطير الخلق والكون تأخذ الحيّز الأوسع من ذلك الموروث، لكن تبقى الأسباب التي دفعتهم إلى تداولها وتناقلها بكثرة تخمينية، وغير جازمة، فمن الأسباب التي تطرح نفسها وبقوة؛ هي الحاجة إلى تفسير كيفية تحول الأرض التي نعيش عليها إلى مكان آمن وصالح للحياة والسكنى، وهنا تتعدد الروايات في هذا الصدد: فربما قام الإله الأعلى أو بطل من أبطال بداية الخلق في الأزمان الأولى بالغوص في أعماق المياه الأولى، ثم اغترف منها قبضة من الرمل، وصنع منها الأرض بالشروط الصالحة والمهيئة للحياة، أو ربما فصل بقوته الخارقة بين الأب السماء والأم الأرض الملتصقين ببعضهما من أجل خلق فسحة أو إيجاد مكان لحركة الآلهة والبشر وبقية الكائنات وأشكال الحياة التي أنجبها الزوجان البدائيان الأرض والسماء، أو ربما أخرج هذه الكائنات والمخلوقات من كهف عميق يقع في إعماق الأرض، أو ربما خاض ذلك الإله الأعلى أو البطل الأسطوري معارك ضارية مع العمالقة من أجل تأمين المواد اللازمة لتهيئة العيش لمخلوقاته.

تبقى الأغلبية من الأساطير عبارة عن تعبير فانتازي أشبه بالأحلام أو برموز تعبيرية محمّلة بالمعاني، لكنّها عندما تُتلى بشكل متكرّر فإنها تساعد على تحرير الضغوطات وتعمل على التنفيس عن خبايا النفس المكبوتة، وقد يكون

"لقد قادت المفاهيم التطوّرية بالنتيجة إلى ابتكار وإحداث مصطلح "البدائي أو البدائية"، وعلى ذلك فقد اعتُبر الإنسان البدائي هو ذلك الإنسان الذي عاش في بداية مرحلة النشوء والارتقاء، مثل إنسان القبائل البدائية، ومن هنا خرج الحديث عن إنسان بدائي يرافقه دين بدائي وأخلاق بدائية وتجمعات إنسانية بدائية على شكل مؤسسات بدائية، وبالتالي سوف يُطبّق عليها الحكم القيمي الذي يعتبر كل ما هو بدائي حالة متدنية"

هذا أحد الأسباب المهمة في تكوين الميثولوجيا، وهناك نوع آخر من الأساطير تستند على حدث حقيقي وقع عبر التاريخ، وتقوم هذه الأساطير شبه التاريخية على التوسع في حدث واقعي يدور حول شخصية بطولية مميزة بحيث تتحول تلك الشخصية إلى حكاية عجيبة ويتجلّى فيها البطل محاطاً بهالة سحرية ودينية تشع منها القداسة.

٣ ـ الأرواح ما بين العبادة والرهبة

ساد اعتقاد عام بين الأقوام البدائية أن جميع الأشياء المدرَكة سواء كانت متحركة أم ساكنة لها أرواح، و أن روح الإنسان تغادره بشكل مؤقت أثناء الأحلام و بشكل نهائي عند الموت، وهنا لابد من التمييز بين مصطلحي « الأرواحية و المانا»، فالأرواحية تعني تصوّر الأرواح بشكل تشخيصي على هيئة إنسانية لها إرادة وعقل وشعور، بينما ال (مانا Mana) تدل بحسب الأنتروبولوجيين المحدثين على قوة سحرية فوق طبيعانية قائمة

بذاتها تسري في مظاهر الكون والطبيعة بمعزل عن الشخصيات و الأرواح، أي حضور قوة خفية طاغية تعمل بذاتها في الأشياء. ويعود هذا المصلح إلى ثقافة شعب "ميلانيزيا" في جزر المحيط الهادي شمال شرق أستراليا، حيث تتمتع تلك الجزر وشعوبها بمجموعة متميزة و متنوعة من الأساطير والآلهة والثقافات المختلفة، و منها جزر سليمان في ميناليزيا. وبشكل عام هنالك حقيقة جوهرية عند البدائيين حول مفهوم العالم، فهم ينظرون إلى الطبيعة على أنها بجملها مسكونة ومليئة ومتخللة بالمخلوقات الروحية. ويُقال كذلك إنّ الإنسان منذ نشأته قد عبد بالفعل كل شيء لمحه أو استطاع التفكير به على الأرض أو في السماء، ولكن عبادته تلك لم تكن اعتباطية بالنسبة للمعبود. فالأشياء المقدّسة المعبودة إما أن تُعبد لذاتها باعتبارها ملموسة وفاعلة ومشبعة بالحياة، وإما أن تُعبد بسبب الروح التي تحل فيها وتسكنها.

إن العبادة كانت تتصدر الطقوس حيال نظرة واعتقاد البدائيين للأرواح، وبدرجة أقل كان الأمر ينطوي على الرهبة والحذر والتبجيل والتقديس، لكن من الصعوبة بمكان معرفة حدود كل من العبادة والرهبة؛ أي معرفة أين تنتهي العبادة وتبدأ الرهبة وبالعكس.

٤ـ القرابين وطقوس التطهير

القربان هو نقل شيء حيّ أو جامد من ملكية البشر إلى ملكية القوى الروحية أو الإلهية على شكل هبة أو عطيّة أو هدية، أو يمكن القول بعبارة أخرى هو إفناء شيء حيّ أو جامد في سبيل تلك القوى بقصد التكفير عن سوء الأفعال أملاً في إرضائها. ويلجأ البدائي إلى تقديم القرابين عندما يشعر أن القوى تتصرف بشكل غير طبيعي وغير اعتيادي وتميل إلى الاضطراب، فيتولد لديه شعور أنه ارتكب ذنوباً أو أتى أفعالاً أغضبت القوى الروحية، والقرابين هي الكفيلة بمسح خطاياه وآثامه على حدّ اعتقاده.

وطقوس التطهير تكاد تكون مشابهة للقرابين من حيث الهدف والغاية، فعند انتهاك محرمات التابو من قبل الفرد أو الجماعة سيتبع ذلك غضب القوى وانتقامها، وبالإضافة إلى الخوف من عواقب تجاوز حدود التابو وانتهاك المحرمات، وتوقع إمكانية تعرّض الفرد أو الجماعة للخطر والانتقام، فإن انتهاك تلك الحدود يولّد شعوراً بالذنب والإثم والدنس، ويبقى الفرد الذي وقع في المحظور منبوذاً ما يستوجب التطهير من دنسه أو أن يواجه عقوبة الموت المحتوم. وتأخذ طقوس التطهير مظاهر شتى، منها الصيام والقفز فوق النار أو المرور من خلالها، وحلاقة الشعر وقصّ الأظافر والزحف من خلال الدخان والغسل بالماء أو الدم، وجرح أجزاء من الجسم لطرد الشرّ والدنس من خلال الدم الخارج.

وهناك مظهر آخر من طقوس التطهير خاصة بالكُهّان قبل أداء الطقوس المتوجبة عليهم، وقد تكون هذه الطقوس بالصراخ أو الامتناع عن الجنس لفترة محددة قبل ممارسة الطقس أو الغسل. ومن المعلوم أن الكهانة هي إحدى الطرق المهمة للعبادة وأن الكاهن يُعتبر من الشخصيات المركزية في الحياة الدينية، ومن مظاهر الكهانة أنها تختصر الصلاة أو تقفز من فوقها للوصول إلى الآلهة بشكل مباشر إما باستخدام الوحي أو باستخدام وسائط روحانية كما كان الحال عند كهنة الفراعنة، والحال نفسها عند كهنة الإغريق، مثل «بلوطات دودونا» التي كانت تهمس ناطقة بكلمات زويوس، إذ يوجد أحد هياكل زويوس الشهيرة في مقاطعة دودونا شمال غرب اليونان في أيكة من شجر البلوط، ويعتقد الناس هناك أن زويوس يتكلم ويهمس عبر حفيف أوراق البلوط، أو عرّافة معبد دلفي التي كانت تهمس بوحي أبولو، و «دلفي» مدينة في مقاطعة فوكيس اليونانية، و»بيثيا» لقب يُطلق على أية راهبة في المعبد، و بيثيا باليونانية تعني الوسيط الروحي و كاهنة الإله أبولو.

ومن المظاهر الأخرى للكهانة القدرة على قراءة البشائر واستشعار الغيب من خلال الأحلام والرؤى وحركة الطيور في السماء وصوت الرعد وعلامات النجوم والكسوف وغيرها من الظواهر

الفلكية.

٥ـ الطوطمية

الطوطمية ديانة قديمة مركبة من رموز وطقوس وأفكار تعتمد على خلق علاقة بين جماعة إنسانية وموضوع طبيعي يسمى الطوطم، ويمكن أن يكون الطوطم طائراً أو حيواناً أو نباتاً أو ظاهرة طبيعية مع اعتقاد الجماعة الارتباط به روحياً. أما كلمة طوطم فمأخوذة من لغة شعب «الأوجيبوي» وهي قبيلة ألونكوينية من قبائل أمريكا الأصلية، وتعني صنفاً أو نوعٍ الشيء الذي تحمل العشيرة اسمه أو تتخذه رمزاً وشعاراً لها.

والطوطم في معجم المعاني ورد بالعبارة الآتية: «أسرة أو عشيرة يجمع ما بين أفرادها طوطم مشترك ـ رمز مقدّس كحيوان أو نبات يُتّخذ رمزاً للأسرة أو العشيرة. فالطوطم وثن يمثل هذا الشيء». أو يمكن أن يكون أي كيان أو مجسّم يمثل الرمز المقدّس الذي اتخذته القبيلة لنفسها، وعلى ذلك يمكننا تعريف الطوطمية بعبارة أخرى أنها «إيمان بوجود صلة خفيّة بين أشخاص أو جماعة وطوطم ما».

وكانت الطوطمية موجودة عند عرب الجاهلية إذ كان لكل قبيلة صنم خاص بها على صورة حيوان أو نصف إنسان، وهو عادةً شيء مادّي مرسوم أو مجسّم، وقد يكون حيواناً أو نباتاً أو طائراً تعتقد الجماعة أنه يحمل صفات روحانية خارقة وفق مقدّساتها وميراثها الديني. إنّ أول من أدخل مصطلح الطوطم إلى الإنكليزية الرحّالة: «ج. لونك» عام (١٧٩١) واستعمله في كتابه «رحلات مترجم هندي وأسفاره»، واستخدمه أول مرة في الدراسات الأنتروبولوجية العالم الأسكتلندي «ج. مكلينين» في العام (١٨٧٠)، عندما كتب مقالاً بعنوان «الطوطمية».

وكانت القبائل والجماعات البدائية تلجأ إلى الطوطمية لحل مشاكل كبيرة تتعلق بوجودها وحفظها من الهلاك أو الانقراض ربما، وطقوس سكان أستراليا الأصليين جديرة بالتوقف عندها في هذا الشأن لكونها ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببقاء القبيلة، لأن الأستراليين حلّوا مشكلة عدم توفر غذاء كافٍ للقبيلة من خلال الطوطمية، لأنّ كلّ نوعٍ من الحيوان أو النبات أو الجماد يملك دوراً حاسماً في الإمداد الغذائي، سيغدو طوطماً لإحدى عشائر القبيلة. ولقد وُجدت الطوطمية في مصر القديمة واليونان والجزيرة العربية كما أشرنا سابقاً. والطوطم رغم أنه اسم أو شعار أو رمز للقبيلة إلا أنه يستخدم كذلك في سياق الطقوس الدينية، نعم هو رمز جمعي لكنه في الوقت نفسه يتّسم بالطابع الديني والقدسية.

٦ـ الإله الأعلى ـ آلهة السماء

في ظلّ السمات والخصائص التي تميزت بها الديانات البدائية، هل كان هناك في معارفهم مكان لوجود إله أعلى وأسمى؟ أو إلى أيّ مدى كانت فكرة الإله الأعلى حاضرة أو شائعة في تلك الديانات؟ من الشائع بين العديد من الأقوام البدائية وجود إدراك لإله بعيد موجود في السماء أو في مكان ما بعيد، واعتقدوا أنّ هذا الإله البعيد هو الخالق والصانع لكل شيء وأنه يراقب من مكانه البعيد كل ما يجري على الأرض، ومع أنه غير راضٍ عن الكثير مما يحصل على الأرض إلا أنّه لا يتدخّل في شيء إلا نادراً، وهذا الاعتقاد ساد بوضوح تحديداً بين أدنى الجماعات البدائية: (أقزام إفريقيا والفوجيون في أمريكا الجنوبية وسكان الأدغال في أستراليا).

ويسود اعتقاد عام عند تلك الجماعات البدائية أن الإله الأعلى كان يعيش على الأرض قبل أن ينتقل إلى السماء فيما بعد، وأنّه يتابع ويراقب شؤون الأرض والبشر من موقعه في السماء، لكنّه غير مرئيّ لأحد وخافٍ عن الأنظار. لكنّ الرأي السائد والراجح بين الأنتروبولوجيين هو أنّ اهتمام البدائيين بالأرواح وقوى الطبيعة كان أكبر من اهتمامهم وعنايتهم بالإله الأعلى نفسه، ذلك بسبب اعتقادهم أنّ الأرواح أكثر قرباً وفاعلية من الإله الأعلى، فهي أكثر قدرة على التحكم بالمصير والقدر على الأرض.

بعض ديانات الشرق القديمة

ا. بلاد ما بين النهرين

لقد طوّر السومريون خلال الألف الثالثة قبل الميلاد، وجهات نظر كان لها تأثير هائل لا على معاصريهم من السومريين الأوائل فحسب، بل على خلفائهم أيضاً من البابليين والآشوريين والحثيين والعيلاميين وسكان فلسطين من الشعوب المجاورة الذين اعتنقوا معتقداتهم الأساسية، وكان تصورهم الرئيسي في جوهره هو أن الكون يتسم بالنظام، وأنّ كل ما يمكن أن يدركه الإنسان هو انعكاس لتجلّي العقل الإلهي ولنشاط خارق للطبيعة.

والعناصر الرئيسية التي يتألف منها الكون عند السومريين هي السماء (آن an.، والأرض كي ki) وهم يعتقدون أن البحر الذي كان في البدء، هو السبب الأول الذي انبثق عنه الكون المخلوق وتشكلت فيه الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وكل يتحرك في طريقه الإلهي المرسوم، وأن ما يحدث في السماء يحدث على الأرض، ثم ظهرت النباتات والحيوانات والحياة البشرية. أما الكائنات التي تعلو على الإنسان والموجودات غير المنظورة التي تتحكم في الكون الكبير وتتجسد فيه، فكانت بالضرورة توصف بصفات بشرية، من ذلك أنها كالرجال والنساء لها انفعالاتها الطاغية وجوانب ضعفها، كما أنها تأكل وتشرب وتتزوج وتنجب أطفالاً، وتقتني خدماً ومنازل، لكنّها على خلاف البشر خالدة، فالآلهة عندما خلقت البشر احتفظت لهم بالموت وأبقت الحياة في يدها.

لقد اعتقد السومريون وفقاً لما تقوله عقيدتهم الدينية وقد بقي قائماً في نصوص مفصّلة منذ فجر العصر البابلي القديم، حوالي ١٩٠٠ ق.م أن لكل موجود كوني أو ثقافي قواعده وقوانينه الخاصة التي تجعله يستمر في الوجود إلى الأبد وفقاً للخطة التي وضعها الإله الذي خلقه، وهناك قائمة (وهي تسمى مه me) بالسومرية وتشمل تلك القواعد والقوانين: (السيادة، الألوهية، التاج، العرش، المُلك، الكهانة، الحقيقة، الهبوط إلى العالم السفلي والصعود منه، الفيضان، الأسلحة، المعاشرة الجنسية، القانون، الغنى، الموسيقا، القوة، العدوان، الأمانة، تدمير المدن، الصناعات المعدنية، الكتابة، الصناعات الجلدية، البناء، الحكمة، الخوف، الرعب، الصراع، السلام، الضجر، الانتصار، القلب، الاضطراب، القضاء).

الحاكم الأسمى

كان «آن. و. Anu" إله السماء في الأصل هو الحاكم الأسمى والإله الرئيسي في مجمع الآلهة السومري، وكان في البداية مهتماً بشؤون الحكم، ويُرمز له بغطاء للرأس ذي قرون علامةً على ألوهيته، وكان معبده الرئيسي في أوروك Uruk (الوكاء).

ولكن عندما هُزمت مدينة نيبور Nippur المجاورة لمدينة أوروك أصبح إلهها إنليل Enlil (سيد الغلاف الجوي والرياح)، وأصبح معبده الرئيسي في إكور Ekur موضوع توفير عال. وإنليل هو المحسّن والجدّ الأول الذي يُعزا إليه خلق الشمس والقمر والنباتات والأدوات الضرورية التي يسيطر الإنسان بواسطتها على الأرض. وتقول بعض النصوص الدينية إنّ إنليل هو ابن آنو Anu.

وعلى الرغم من أن إنليل يرتبط بمدينة نيبور لكنه يُعدّ الإله الأسمى للسومريين وهو يمسك بالألواح التي سُطرت فيها أقدار البشر جميعاً، لكن الإله "مردوخ" استولى في أواسط الألف الثانية ق.م على مكانة إنليل ووظيفته داخل بابل، أما في آشور فكانت نينليل (زوجة إنليل) متّحدة مع الإلهة العظمى (إينين السومرية) التي تُسمى (إينانا) شعبياً، وهي سيدة السماء التي تُسمى (عشتار) عند البابليين.

أما إله العالم السفلي (أنكي Enki) والد الإله

"مردوخ". فقد حكمَ المياه وهو من تُعزى إليه الحكمة كلّها، وكان محبوباً من البشر لأنه كان قد علّم الإنسان الأول الأسرار والفنون اللازمة للحياة والاستمرار والتقدم، وكان هذا على عكس استعلاء و تكبّر آنو وإنليل، وهذا ما جعله محبوباً، وكانت مدينة (إريدو) على الخليج العربي المركز الرئيسي لعبادته.

نعود إلى مردوخ الذي عُهد إليه رئاسة مجمع الآلهة كله عند البابليين في الفترة التي أصبحت فيها بابل مركز القوة والسيطرة على معظم بلاد ما بين النهرين، ففي تلك الحقبة كانت رعاية العلم وخاصة فنون الكتابة وعلم الفلك من نصيب الإله (نابو Nabu) ابن مردوخ.

حتمية الموت

الموت قدر الإنسان رغم وجود أساطير كثيرة تؤكد سعي الإنسان وراء الحياة الخالدة التي لا موت فيها، ومنها أسطورة الملك «إيتانا» وهو الذي يوصف بالراعي الذي صعد إلى السماء، إذ حاول أن يرتقي إلى السماء على أجنحة النسر بحثاً عن الخلود، لكن الموت لم يفارق البشر وباءت جميع محاولات البحث عن الخلود والهرب من الموت بالفشل، حتى أنّ (تموز أو دموزي) الذي كان ملكاً على مدينة أورك لم يسلم من الموت، ويُقال إنه كان قد تزوج من الإلهة (إينانا أو عشتار) وعندما مات تموز راحت زوجته تبحث عنه في العالم السفلي، ويُقال إن الأرض لم تخصب في تلك السنة، وبقيت جرداء بسبب نزول عشتار آلهة الخصوبة إلى العالم السفلي بحثاً عن تموز.

والموتى في العالم السفلي يحتاجون إلى الطعام والملابس وأدوات العيش مثل البشر الذين يعيشون فوق الأرض أي العالم العلوي، ومكانة كل شخص ومرتبته في العالم السفلي تعتمد على أعماله وأفعاله وأنشطته في حياته الأولى، ويتولى الحكم على أرواح الموتى إله الشمس الذي يمر بالعالم السفلي أثناء غياب الشمس، وكذلك يصف «أنكيدو» العالم السفلي لـ « كلكامش» بأنه عالم كئيب، وأنّ الحياة فيه موحشة، وانعكاس شاحب ومظلم للحياة على الأرض.

الإثم والعقوبة

كان لدى البابليين قوائم بالأخطاء والذنوب التي تستوجب القصاص الإلهي والعقاب، وقوائم أخرى لتسجيل الأعمال الحسنة التي تستوجب المكافأة والرضا الإلهي، أمّا الأخطاء والخطايا التي كان يقع فيها الآثم فكانت تنتج عن تحليل أو أكل ما حرّمه إلهه، أو من يقول (نعم) في المواقف التي تستوجب أن يقول فيها (لا) أو يقول (لا) في الوقت الذي عليه أن يقول (نعم)، أو رمي أحد الأشخاص بتهمة باطلة أو أن يحتقر الإله أو يسخر من الآلهة، والذي ينطق بالباطل ولا يقول الحقّ والذي يظلم الضعفاء ويعتدي عليهم ويفسد بين الأبناء والآباء أو بين الأصدقاء فيباعد بينهم. والقصاص الإلهي على تلك الذنوب والآثام يقع على صورة مرض أو اضطراب أو حتى الموت.

كيف يمكن أن تُغفر هذه الخطايا والذنوب؟ يمكن أن تُغفر تلك الأخطاء والآثام بتلاوة تراتيل التوبة وصلوات الاستغفار والتفجيع والنواح، كما يمكن التخلص منها عن طريق تقديم القرابين، حيث يحلّ الحمَل محلّ الإنسان ولا يُقدّم الإنسان قرباناً، ولكن الفقراء الذين لا يملكون القدرة على تقديم قربان: يمكنهم استدعاء كاهن متخصص في طرد الأرواح الشريرة لتلاوة التعاويذ المناسبة والمخصصة لمحو الذنوب والخطايا.

٢. معتقدات مصر القديمة

معظم آثار مصر القديمة بحسب علم الآثار ترتبط بالدين أكثر من ارتباطها بالأمور الدنيوية، وتؤكد الآثار أنّ تلك المادة الدينية هي في غالبيتها جنائزية الطابع، فالأهرامات المشهورة (أهرامات خوفو و خفرع و منقرع) في الجيزة، قد بُنيت لدفن الموتى من الملوك والفراعنة، وهناك احتمال أن يكون السبب وراء بنائها هو الوصول إلى الشمس أو السماء، لأن عبادة الشمس في «هليوبوليس» حيث يقع معبد الإله «رع» كانت

حاضرة. ففي المعبد قطعة مخروطية تسمى (بن بن) موضوعة في فناء مكشوف اعتقد المصريون أنّ الشمس ينبغي أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر المخروطي. وبعض قبور ملوك مصر محفورة في الصخر ومنها قبر (توت عنخ آمون) في وادي الملوك بالقرب من مدينة طيبة. وعلى جدران بعض تلك القبور الصخرية نُقشت نصوص دينية تصف الرحلة الليلية لإله الشمس أثناء مروره بالعالم السفلي إلى حين ظهوره مجدداً مع صباح اليوم التالي في العالم العلوي. والاعتقاد السائد لدى قدامى المصريين أنّ الملك المدفون يصاحب إله الشمس في رحلته تلك ويشرق معه من جديد في فجر جديد وذلك ضماناً لبقاء الملك حياً حتى بعد موته.

لقد كان لاختراع الكتابة الهيروغليفية (٣٠٠٠ق.م) دور مهمّ في الديانة المصرية القديمة. لأن التراتيل والتعاويذ التي كانت تُتلى في المعابد والقبور، كان الكهنة يقرؤونها من نصوص مكتوبة على أوراق البرديّ. وكذلك النقوش المرسومة والمنحوتة على أحجار القبور والتي تظهر أسماء الأشخاص الذين دُفنوا في هذه المقبرة أو تلك، إنما هي من نتائج اختراع الكتابة. كما تم إضافة بعض التراتيل والنصوص الدينية على قبورهم لضمان تقديم القرابين كي تضمن السعادة الأبدية للميت. ولقد آمن المصريون أن مثل تلك النقوش تكفل و تضمن البقاء السحري للبركات الروحية و البدنية للمتوفى. ومع التقدم في الزمن (حوالي ٢٣٥٠ ق.م) أي مع وصول الأسرة السادسة من الملوك إلى الحكم، ازداد استخدام النقوش والرموز في الأهرامات والمقابر، حيث أصبحت جدران غرف الدفن والممرات المؤدية إليها مغطاة ومنقوشة بالنصوص الهيروغليفية التي تتحدث عن الحياة المقبلة للملك. وتُسمى هذه الكتابات (متون الأهرام) وهي تشكل أقدم مجموعة متكاملة تتعلق بالديانة المصرية.

تصوّر المصريين حول الخلق

في جميع مجامع الآلهة تكون الصدارة للآلهة المسؤولة عن الخلق. والأمر نفسه كان في مصر. وأسطورة «هليوبوليس» كانت الأكثر انتشاراً ورواجاً على الرغم من وجود أساطير أخرى متعددة عن الخلق. وتقوم هذه الأسطورة على أن الإله الخالق الأول «أتوم» قد اتحد مع إله الشمس «رع» في هوية واحدة. وحروف كلمة «أتوم» تعني الإله الذي خلق نفسه أو أتمّ نفسه بنفسه. أي خلق نفسه أولاً ثم خلق العالم. وتقول الأسطورة إن الإله «أتوم» قد خرج من «نون» وهو المحيط الذي خرجت منه جميع الكائنات. ثم ظهر فوق جبل وأنجب من غير زواج إله الهواء «شو» وإلهة الرطوبة «تف نوت». وكانت مهمة الزوجين (شو وتف نوت) هي حمل الأفق وإسناد السماء بأيديهما لتبقى صامدة.

ظهور النيل والشمس كآلهة

لقد أرجع المصريون خصوبة أرضهم وخيراتها إلى آلهة مسؤولة عن تلك الخيرات. فاعتقدوا أن كلاً من الشمس ونهر النيل يعود لهما الفضل في تلك الخصوبة. ولذلك ربطوا بين هاتين القوّتين (الشمس والنيل) وبين الآلهة التي ترتبط بهما. ومن هنا كان تبجيل الإله «رع» إله معبد هليوبوليس الذي يمثل الشمس. لأن المصريين كانوا يستخدمون لفظ «رع» بمعنى الشمس. ثم توحّد «رع» مع إله السماء «حوريس» الذي يُعرف أيضاً باسم (الإله الصقر) ولذلك أخذ هيكل الإله الجديد بعد اتحاد «رع» مع «حوريس» شكل جسم إنسان ورأس صقر. ولقد اتخذ فراعنة مصر لأنفسهم لقب «ابن الإله رع» ابتداءً من الأسرة الخامسة. وقبل ذلك كان يُعتبر فرعون إلهاً. كما أنّ فكرة الانتظام في الكون والعدالة ارتبطتا أيضاً باسم هذا الإله «رع».

أما فيضان النيل فقد ارتبط باسم الإله «حابي» للدلالة على الخصوبة والخير. كما أن عبادة الحيوان كان لها حضور قوي وكانت جزءاً أساسياً من الديانة المصرية. وهذه العبادة تقوم في أساسها على خصوبة الحياة في وديان الأنهار في إفريقيا. فظهرت عبادة التمساح في منطقة الفيوم على النيل. على أنه الإله الذي يمنح الحياة للنبات على شاطئ بحيرة الفيوم. وكان الناس يحتفلون كل

عام مع بداية فيضان النهر.

الديانات السماوية / التوحيدية / الحديثة

بقيت الميثولوجيا هي المسيطرة على النواحي الدينية آلافَ السنين، أي منذ أن اكتسب الإنسان صفة العقلانية، إلى أن وصلت البشرية مع التطور الفكري والرقي العقلي إلى مرحلة الأديان التوحيدية منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة بحسب تقدير المتخصصين، ولهذه النقلة النوعية من التفكير العقلاني والوصول إلى مفهوم الإله الواحد الأعلى أسبابها الذاتية والموضوعية، منها محاولة الخلاص من الاستبداد والاستغلال الواقعين على البشر باسم آلهة الأرض المتعددة، والسعي لسحب ذلك البساط الإلهي من تحت أقدام أولئك السلاطين المتألّهين، وتجريدهم من صفة الربوبية التي منحوها لأنفسهم بغاية تنصيب أنفسهم آلهة على عامة الناس، وأقرب الأمثلة إلى ذلك ديانة إبراهيم الحديثة في وجه نمرود، وديانة موسى ضد الفرعون، والديانة الإسلامية المحمدية في وجه آلهة قريش وأربابها. ناهيك عن الزردشتية بوصفها ديانة شرقية تتأرجح لدى البعض إن كانت ديانة سماوية أو أرضية، وحسب الدارسين فإن في الزردشتية صفات الديانات التوحيدية مثل الدعوة إلى إحقاق الحق ونصرة المظلوم ومناهضة الشر.

والعبرة ينبغي أن تكمن في الوسيلة والغاية قبل التصنيف السماوي والأرضي، فهذه «تعاليم بوذا» يفوح منها عطر الخير والصدق، (بوذا) أمير إحدى الممالك على حدود دولة نيبال الحالية شمال الهند، وقد نشأ في قصور الإمارة وعاش حياة مرفّهة ورغيدة، ومنذ صغره لاحظ فيه والده ميولاً وتساؤلات حول ما يدور في الحياة من فقر ومرض وفساد وشيخوخة وجشع وحب التملك وغير ذلك من المسائل الدنيوية والحياتية، ولهذا السبب كان والده يحاول جاهداً إبعاد ابنه عن جميع مظاهر الصراع الطبقي التي تنمّي فيه روح تلك التساؤلات.

كان آخر عهد بوذا وآخر أيامه مع حياة القصور

> **تفرض القداسة نفسها كأولى السمات للدلالة على الحالة الدينية لدى الجماعات والأقوام البدائية، ونظرة التقديس تلك تجمع بين الاحترام والرهبة والحذر معاً مهما كان الشيء المقدّس، إن كان إنساناً أو مكاناً أو ظاهرة طبيعية، فالمقدّس يحمل الوعد بالبركة والفوز والنجاة، وله قوة خارقة تُحيي وتميت معاً، إضافة إلى امتلاكه قوة الخير وقوّة الشر بشكل مباشر، والمهم هنا موقف الفرد تجاه المقدّس**

والرفاهية عندما بلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً، وكان حينها قد تزوج وأنجب ولداً، فقرر حينها ترك حياته كأمير وأن يمضي في طريق البحث عن الحقيقة وإيجاد الأجوبة على أسئلة الوجود التي لطالما شغلت فكره، وأثارت حفيظته وحرّضت فيه تلك الروح التوّاقة إلى معرفة الأسباب الكامنة وراء تساؤلاته تلك، وهنا بدأ بهجر قصره وترك زوجته والانتقال من حياة الرفاهية إلى العيش حياة الزهد والتنسّك وممارسة التأمّل، ومع بلوغ سنّ الخامسة والثلاثين اكتسب الأمير "سيظاراثا" لقب (بوذا) أي "كامل النور" بعد رحلة طويلة ومعاناة قاسية وصراع مرير مع الذات والقوى السلبية المتمثلة بجميع الشرور، ومن هنا كانت روح الرسالة التي بشّر بها (بوذا) وحملها محاربة الذات والانتصار عليها، وإجبارها على الخضوع والانصياع لمفاهيم الفضيلة والتسامي على جميع الأهواء والغرائز والأرجاس الأرضية، والملذّات المادية الفانية.

تعاليم بوذا:

إن الرمز الذي يشير إلى تعاليم بوذا هو (عجلة ظارما) الشبيهة بعجلة العربة، وهي ذات الأضلاع الثمانية، التي تمثل الاتجاهات النبيلة الثمانية للبوذية وهي:

(الرأي السديد، التفكير السليم، الحديث الجيد، السلوك القويم، العيش الجيد، الجهود الحثيثة، التعليم الجيد، التأمّل الجيد).

هذه العجلة التي تشبه عجلة العربة التي تظلّ تدور كانت موجودة قبل ظهور بوذا، وكانت تُستخدم للعبادة، لكنها اتّخِذتْ رمزاً للبوذية فيما بعد.

والديانات التوحيدية تُعتبر حديثة من ناحية الترتيب الزمني، بالمقارنة مع الميثولوجيا وديانة الأساطير التي يعود بها الزمن إلى الوراء إلى حوالي خمسة وعشرين ألف عام، وهنا لا ندّعي أنّ تلك الحقبة الطويلة من الزمن كانت تتّصف فقط بالسلبية، وأنّ حقبة الأديان التوحيدية تتصف فقط بالإيجابية، فإطلاق حكم من هذا النوع يجانب الصواب ويخالف الموضوعية، إذ أنّ لكلّ حقبة ـ القديمة الميثولوجية والحديثة التوحيدية ـ إيجابيات وسلبيات، ولكان يمكن إصباغ صفة الإيجابية المطلقة على أيّ منها لو أنّها عملت على التحرّر الفكري بعيداً عن الترهيب والترغيب، وبعيداً عن التمجيد الشخصي لرموز عاشت في فترة القوة والجبروت ثم كُتب تاريخهم على هواهم وبأقلام البلاط الحاكم.

أثر النظريات الدينية على الفكر الشرقي

إن السؤال الذي يقفز إلى الذهن في ظل هكذا عنوان، هو:

ـ ماذا استفاد الشرق من كل تاريخه الحافل الذي يتغنّى به؟

ـ ماذا بقي للشرق من حيث كونه مهداً للديانات والحضارات القديمة؟

ـ على ماذا حافظ الشرق بوصفه مكتشف الزراعة والنار والأبجدية؟

ـ بماذا استطاع الشرق أن يتميز عن الغرب؟

ـ بماذا تتفوق الشعوب الشرقية على غيرها؟

يبدو أن الفكر الشرقي بقي إلى حدّ كبير أسيراً في فلك التعلق بالماضي، وتمجيد الماضيين، يبدو أنه لم يستطع في كثير من المحاولات ـ إن كانت هناك محاولات ـ أن يتحرّر من العبودية العمياء لأصنام الماضي:

ـ صنم تمجيد الشخوص: الذين ربما لا يذكر التاريخ سوى صفاتهم الإيجابية، ويتناسى السلبيات.

ـ صنم التفاضل بين دين وآخر: واعتقاد كلّ ملة أنهم على الحق المبين، وأنّ من خالفهم إلى جهنم وبئس المصير، فدينهم هو دين الحق وكل دين أو شريعة مخالفة لهم هي باطل، وهذا على رأي هواهم وسيفهم.

ـ صنم تقديس الماضي وتجاهل الحاضر: نحن كنا كذا وكذا.... وغيرنا كان يعيش في بحور من الظلمات. طبعاً هذا لسان حال بعضهم.

ـ صنم اللغة: عندما كل أمة ترى في لغتها أنّها متقدمة على جميع لغات الأرض، وأن تميّز لغتها هو انعكاس لتمييز ورقيّ أهل تلك اللغة، والمنطق العقلي لا يقبل مثل هذه القياسات.

ـ صنم النعامة: وهذا الصنم يختزل بداخله جميع الأصنام التي ذكرتها، والتي سهوت عن ذكرها، النعامة التي تخفي رأسها في الرمل كي لا ترى شيئاً، في أن جسمها الضخم لا يُخفى على أحد.

وبدون شك انعكس هذا النمط من التفكير على النظرة الشرقية الدينية لكل تغيير، أو محاولة للتغيير نحو الأفضل، فاختلفت طبيعة الثورة، ومكانتها في الأديان السماوية بحسب السياق العام لكل ديانة، فالسياق العام لدى اليهود، هو

السعي الدائم للوصول إلى الجنة التي وُعد بها بنو إسرائيل في كتبهم المقدسة (أرض الميعاد). وتتمثّل تلك الجنة الموعودة بأرض يعيشون فيها بسلام وأمان، وبالتالي نجد أن جميع المحاولات اليهودية تعمل جاهدة لتحقيق ذلك السعي.

بينما نجد أن الديانة المسيحية اهتمت بالآخرة أكثر من الأمور الدنيوية، ولذلك كان السيد المسيح يحثّ أتباعه على الزهد في الدنيا و تأجيل جميع أمنياتهم وما تشتهيه أنفسهم إلى جنة السماء الخالدة، ولهذا السبب لم تحدد الديانة المسيحية نموذجاً دنيوياً للدولة والمجتمع، فكانت نظرتها للدنيا وما فيها نظرة حالمة زاهدة، لكن تلك النظرة المثالية لم تبقَ كما هي على مرّ الزمن، بل تغيرت مع ظهور شخصيات من أمثال (مارتن لوثر) قامت بإعلان الثورة على الكاثوليكية والسلطة الكنسية، نتج عنها حروب طاحنة لعشرات السنين داخل القارة الأوربية.

وأما في الديانة الإسلامية فقد أخذ مفهوم التجديد والتغيير منحى جديداً متطوراً ومتبايناً عمّا كان عليه في اليهودية والمسيحية، لأنّ الإسلام جاء ديناً توفيقياً بين الديانتين السابقتين ليصبَّ اهتمامه على الجانبين المادي الدنيوي، وكذلك الروحي الأخروي، فوفّق بذلك بين خطين لا يطغى أحدهما على الآخر.

بعض المصطلحات والنظريات التي تمكن العالم من خلالها من عبور أشواط طويلة نحو الأفضل ـ لا يوجد أفضل مطلق ولا سيّئ مطلق ـ ما يزال بعض المنظرين والمفكرين الشرقيين ينظرون إليها بعين الريبة والشكّ، فما زال هناك من يعتقد أن " فصل الدين عن الدولة" هو ضياع للهوية وتشتيت للثقافة وتحطيم للثوابت، وثمة من يرى في العلمانية أنها نظام حياة يجرد الإنسان من القيم المثلى والروحانية الأخروية، وطبعاً أنا لست بصدد المدح والذم في هذا، ولا أقول إنّ هذه الأنظمة الحديثة هي المثال الأسمى والأنقى للعيش الإنساني، لكنني أنتقد فكرة "التعلق بأصنام الماضي ونبذ كل ما هو جديد ومبتكر".

خاتمة

تبقى مسألة دراسة المعتقدات والأديان مسألة شائكة ومعقدة، لأنها تدخل ضمن دراسة العلوم الإنسانية لا الفيزيائية، وبالتالي تبقى عرضة للأهواء الإنسانية في أحيان كثيرة، شأنها في ذلك شأن كتابة التاريخ، إذ لا يمكن لأحد إعادة الأحداث القديمة كما وقعت، أو العمل عليها مخبرياً لبيان وكشف بعض الجوانب المشكوك في أمرها، أو لإزالة اللبس والغموض عن البعض الآخر، لكن في الحقيقة الموضوع متعلّق بنقل تلك الأخبار إلينا بالتواتر عن طريق الجموع البشرية عبر الأزمنة.

إن العقول التوّاقة إلى المعرفة تحمل على عاتقها مهمة البحث فيها، مع عدم إنكار الوازع الديني وقداسته في الدفع نحو الرغبة في الغوص، والكشف عن نشأة الديانات ومبعثها، والأشخاص الذين حملوا راياتها، ومدى استثمارها ـ إن صح التعبير ـ لتلعب دورها وغايتها الأساسية التي جاءت من أجلها: (الخير، الحق، الصدق، الحرية، العدالة، الأخوّة، المساواة، .....).

المراجع

.موسوعة تاريخ الأديان: الكتاب الأول .تحرير: فراس السواح

.المعتقدات الدينية لدى الشعوب: المشرف العام على التحرير: جفري بارندر - ترجمة: الدكتور إمام عبد الفتاح إمام .مراجعة: الدكتور عبد الفتاح مكاوي

.تعاليم بوذا .ترجمة: رعد عبد الجليل جواد

.الزرادشتية واليزيدية تقابل أم تدابر .محمد ضاهر

الأبعاد الفنيّة والجماليّة لمانفيستو الحضارة الدّيمقراطيّة

«الدمقرطة وقضايا تجاوز الحداثة الرأسمالية» للمفكر عبدالله أوجالان

إسماعيل خالد محمّد

مقدّمة:

"عندما تبلغ النّظمُ الذّروة؛ تبدأ بالانهيار والتهاوي"، بهذه العبارة بدأ المفكّر والفيلسوف عبد الله أوجلان تحليل ذهنيّة الحداثة الرّأسماليّة والتي قال عنها إنّها: «القوّة الحقيقيّة والأصيلة للحداثة الرّأسماليّة التي لا تنبع من مالها أو سلاحها؛ بل من قدرتها على خنق كافّة – اليوتوبيات – بما فيها يوتوبيا الاشتراكيّة الأخيرة والأقوى، وكتم أنفاسها ضمن ليبراليتها المتنكّرة بألبسة متغايرة الألوان بما يفوق قوّة أمهر ساحر». اليوتوبيا أو الطوباويّة معناها؛ ما ليس في مكان، أيّ المكان الخياليّ وغير الموجود.

تتميّز قدرة المفكّر عبد الله أوجلان في التعرّف على (**الحداثة الرأسمالية**) المتحصّنة بألف درع وقناع، وحسب تحليله ورؤيته فإنّه سوف يتعلّق بالدولتيّة القوميّة كقوميّ بدائيّ، أو كان سيُنهي مَصيره كحركة يساريّة كلاسيكية مثل مئات الأمثلة، حتّى لدى موسّسي الدّول.

وبالعودة إلى الحداثة الرّأسماليّة، إذا لم يُحلَّل موضوع خنقها لكافّة اليوتوبيات الإنسانيّة في بوتقة ليبراليّتها؛ فإنّ أعظم تيّار فكريّ واثق من نفسه لن يتخلّص من التحوّل إلى خادم مُطيعٍ لها في أحسن الأحوال.

ما منْ أحد حلّل الرّأسماليّة بقدر ماركس، وقِلّة نادرة تعمّقت في موضوع الدّولة والثّورة بقدر لينين، ولكن من وجهة نظر المفكّر عبد الله أوجلان: «أنّ التّقاليد الماركسيّة – اللّينينيّة قد أهدت كَمّاً لا يُستهان به من المواد والمعاني إلى الرّأسماليّة، حتّى لو بدت مضادّة لها، وهناك ضرورة للتركيز بعمق أكثر على يوتوبيا الحُرّيّة. إذا لم نحلّل الفرد والمجتمع اللذين حُرّضهما الليبراليّة، ولم نوجّه الإنسان إلى مساره الطبيعيّ، فلن تكون النتيجة أبعد من الموت بالسّرطان الاجتماعيّ.

يعتبر مانفيستو الحضارة الدّيمقراطيّة بمجلّداته الخمسة «المدنيّة، المدنيّة الرّأسماليّة، سوسيولوجيا الحُرّيّة، الشرق الأوسط، القضيّة الكُرديّة»" من أكثر المؤلّفات التي اكتسحت مجالات الوعي البشريّ وفتحت أمامه أبواب الوعي السّياسيّ والتّاريخيّ الاجتماعيّ. هذه الثّمرة الفكريّة الخلّاقة التي نُشرت حتّى الآن بثمان لغات هي «الكُرديّة، التركيّة، الإنكليزيّة، الفرنسيّة، الإسبانيّة، الألمانيّة، الإيطاليّة، والفارسيّة"، تحوّلت إلى أيقونة للثّورة المجتمعيّة، وأحد أهمّ أسسها أنّها شملت جميع المناحي، وخاصّة ما يتعلّق بقضايا الحداثة والمرأة والفكر والنقد.

ارتكزت الفكرة الرّئيسيّة لهذه المؤلّفات القيّمة «**مانفيستو الحضارة الدّيمقراطية**»، التي قدّمها المفكّر عبد الله أوجلان على المناورة الإيديولوجيّة الفنيّة والنقديّة التي حملت التأثيرات الاجتماعيّة والثّقافيّة في اللّحظة والعمق التّاريخيّين، والتي اعتبَرها المفْصَل الحقيقيّ في رحلة الوعي البشريّ نحو إشكاليّة حداثيّة جديدة هي (**الحداثة الرأسمالية**).

رَكّز أوجلان من خلالها بشكل كبير وتفصيليّ على عصور ما قبل التّاريخ، وتاريخ المجتمعات القائمة إلى الآن، كذلك كان التركيز على (اليوتوبيا). اعتبار تلك التفاصيل هي تاريخ كفاح الطبقات الاجتماعية، وأيضاً صراع الثنائيّات والإيديولوجيّات والمصطلحات (الحرّ والعبد، النبيل والسّوقيّ، السيّد والتّابع، الميثولوجيا والدّين، الآلهة والبشر، الظالم والمظلوم)، ووقوف تلك الثنائيّات في تعارض دائم الواحد ضدّ الآخر، وخوضها صراعات متواصلة، علناً تارّة وسراً مستترةً تارّة أخرى، صراعٌ انتهى في كلّ مرّة، إمّا بتحوّل ثوريّ للمجتمع كلّه، وإمّا بالهلاك العام للطبقات المتصارعة.

وباعتبار المرافعة أيضاً ركّزت وبدرجة كبيرة على حقيقة الفكر الميثولوجيّ المقنّع المُستَلهم من الآلهة والآلهة الملوك، فإنّه تمّ التركيز على القوالب الدّينيّة التي اُعتبرت الأساس في فهم الكون، والمشحونة بالرّياء والخداع المقنّع، ويرى أنّ أيّ حراك رئيسيّ في الفكر الدّينيّ يتلخّص في الخضوع للذّات الإلهيّة المقنّعة، كما كشفها ووصفها أوجلان في الفصل الأوّل من المجلّد الأوّل (**المدنية**).

وباعتبار الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتعايش مع الميتافيزيقا؛ كان لا بُدَّ من الأسلوب ونسق الحقيقة؛ انطلاقاً من الحيويّة والجمود في الإنسان، كما يطرح أوجلان. وهذه لا شكّ فيها، طالما الوقائع الاجتماعيّة من فعل أناس يسبغون المؤسّسات والبنى الاجتماعيّة بخاصيّة وكأنّها واقع طبيعيّ واعتيادي ومقدّس وثابتٌ وإلهيٌّ.

يقول المفكّر أوجلان: «التقسيمُ الآخَر

الذي اضطررتُ لعَمَلِه: معنيٌّ ببُعدُ الحضارةِ الدّيمقراطيّة. فرغم تواجدها ضمن النّهر الأم، إلا أنّه لا يُمكِن مطابقتُها بالأخريات. علماً أنّ الحضارةَ والمدنيّةَ كلٌّ متناقضٌ إلى أبعدِ الحدود. والتّناقضُ الأوّليّ يكمن فيما بين المدنيّةِ الاحتكاريّة والحضارةِ الدّيمقراطيّة للمجتمع غيرِ المتدوّل. ونتلمّسُ التّناقضَ بين المدنيّةِ الدّولتيّة والحضارةِ الدّيمقراطيّة بأفضلِ صُوَرِه بين المدينتَين الإغريقيّتَين في العصرِ القديم. أي، بين إسبارطة التي تُحكَمُ بالمَلَكيّة، وأثينا التي تُدارُ بالدّيمقراطيّة. وقد شوهدَ تناقضٌ محتدمٌ مشابهٌ لدى تطوّرِ المدنيّة الأوروبيّة أيضاً. فالتّناقضاتُ الحادّةُ القائمة بين الدّولة وديمقراطيّاتِ المدائن منذ القرن الرّابع عشر وحتّى أواسطِ القرن التّاسع عشر، هي تناقضاتٌ دارَت من حيث الجوهرِ بين الدّولة والحضاراتِ الدّيمقراطيّة»".

لا يمكن لأيّ عمل أن يصبح ذات قيمة وحياة دون فكرة الصراع وتخطّي القوالب الجامدة، ومحاربة التفكير الأخلاقي لدى الشعوب. وهذا ما ركّز عليه المفكّر في مرافعته العظيمة حين طرح، وبقوّة، فكرة عندما عاد مجدداً ليكمل ما بدأه عن الأسلوب ونسق الحقيقة، وليميّز هذه المرّة بين الفكر العاطفيّ والفكر التحليليّ، وأنّ النّظام الكونيّ يَكْمُنُ خلف العلاقة بين الحقيقة والعدالة، وأنّ الحياة الخاطئة لا تُعاش بصواب، وأنّ الدّول القوميّة هي من ثمار الحداثة الرّأسماليّة، وهذه الحداثة الرّأسماليّة هي السّبب الرّئيسي في مآسي الشّعوب.

في الفصل الثاني يعود بنا المفكّر إلى تاريخ ظهور المدنيّة وإلى قضايا انتشار اللّغة والثّقافة والتطوّر الاجتماعيّ والتفسير السّليم للحداثة وما بعدها. ويركّز هنا حديثه عن منطقة الهلال الخصيب وقوس جبال طوروس وزاغروس، ويتحدّث عن السرّ الذي جعل العلماء والباحثين في الآثار ليتوجّهوا إلى هذه المنطقة بالذّات. وهنا يسرد المفكّر سيرة حياته الطّفوليّة في القرية، عندما كان يرى النّسوة كيف كُنَّ تَخرُجنَ إلى العمل صباحاً، وكيف كان يرى أمّه والنّسوة الأخريات وهُنَّ عائدات من البئر لإحضار الماء،

> **"ما من أحد حلّل الرأسمالية بقدر ماركس، وقلّة نادرة تعمقت في موضوع الدولة والثّورة بقدر لينين، ولكن من وجهة نظر المفكر عبد الله أوجلان: "أن التقاليد الماركسية – اللينينية قد أهدت كما لا يستهان به من المواد والمعاني إلى الرأسمالية، حتى لو بدت مضادة لها، وهناك ضرورة للتركيز بعمق أكثر على يوتوبيا الحرية"**

وكيف كانت المعاناة والأنين بسبب ثقل الدّلو المملوء بالماء، وما كان لذلك من الأثر البالغ بضرورة الخروج عن العادات والموروثات التقليديّة المتّبعة، ليطرح فلسفة جديدة قائمة على إعطاء المرأة الرّيادة والدّور الكبير باعتبارها العنصر المحرّك لأيّ مجتمع، وفي الباخوسيات(١) وديونيسوس(٢)، كما كان يحلم المفكّر ليكون عبرة كبيرة للوصول إلى المرحلة التي كان يخطّط لها ويعايشها في وجدانه وقلبه على الدّوام.

ويربط القائد بداية تكوّن المجتمعات المدنيّة ببداية دولة الزُّهبان السّومريّة، ويحلّل معنى الحداثة الرّأسماليّة وعلاقتها بالثّورة النيوليتيّة في منطقة الهلال الخصيب والسوسيولوجيا الوضعيّة، باعتبارها البنية الارتكازيّة لنشوء القبيلة التي هي الأساس في

١ الباخوسيّات (أو الباكوسيّات): دراما كتبها الشاعر يوربيديس (٤٨٠ ق.م - ٤٠٦ ق.م) كجزء ثالث من إحدى رباعيّاته (تيترالوجي)، وربح من خلالها عام ٤٠٥ ق.م أوّل جائزة للتراجيديا في أثينا.

٢ ((ديونيسوس: هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثولوجيا الإغريقيّة.

نشوء المدنيّة.

يركّز أوجلان اهتمامه في المجتمع الحضريّ في المدينة، ويتحدّث عن عصر الآلهة المقنّعة والملوك المتستّرين، ويفسّر العلاقات الاجتماعيّة في المجتمع السّومريّ من خلال الدّور الذي كان يلعبه الرُّهبان ودور الزقّورات في إدارة شؤون المجتمع السّومريّ القديم. ويُعرّج على قضايا انتشار المجتمع الحضريّ وتوسّع المدنيّات ذات الأصول السّومريّة، ولا يهمل قضايا المقاومة في مراحل المجتمع الحضريّ في أوائل التّشريعات الدّينيّة لدى المسيحيّة والإسلام أيضاً، وكذلك يبحث في اللّاهوتيّة المُستقاة من الفلسفة الإغريقيّة والسّومريّة والمصريّة والدّعامات الهشّة لليوتوبيا الدّينيّة (المسيحيّة والإسلاميّة).

لقد تطوّرت الدّيمقراطيّات القديمة في عددٍ من المدن الصغيرة ذات الدّيانات المحلّيّة، ولهذا فإنّ نشوء الدّول الكبرى والإمبراطوريّات في معظم البلدان في العصور الوسطى ضمّت إليها الدّيمقراطيّات الأولى أيضاً، وهذا الأمر قلّص فرص تطوّر الدّويلات الدّيمقراطيّة وسرّع في القضاء عليها. في المقابل سجّل في فترة العصور الوسطى تطوّر في مجال الدّيمقراطيّة، لكنّه كان تطوّراً على مستوى حقوق الأفراد والقيم النّاجمة عن قيم الليبراليّة التي ظهرت مع فلاسفة التّنوير أمثال «جون لوك، توماس هوبز، وإيمانويل كانط"، قبل حدوث أيّ تقدّمٍ ملموس في مجال الدّيمقراطيّة. ومن هنا ازدهرت الدّيمقراطيّة الليبراليّة في الغرب. كان للدّيانات الكبرى كالمسيحيّة والإسلاميّة إسهامٌ كبير في توطيد عددٍ من الثّقافات والقيم، الأمر الذي أدّى إلى تغيّر معنى الدّيمقراطيّة وسلوكها السّلوك الحداثي لاحقاً.

لا نهاية للصراع المستمرّ والدّائم، كما يعتقد المفكّر أوجلان، بين ما تفرضه وتصنعه مجتمعات عصر الحداثة الرّأسماليّة، ومفهوم الحُرّيّة التي يسعى إلى تحقيقها، حيث يقول في هذا الصدد: «إنّ الماضي والتّاريخ يبيّن اليوم والمستقبل، تعلموا، انْهَلوا من معارفه ولا تنسوا أبداً ما تمّ عيشه ضمن هذه الجغرافيّة». الشيء الأساسيّ والبارز هو الإيمان بالحُرّيّة والإصرار في السير على طريقها، أمّا سلطة سلاطين اليوم؛ فما هي إلا حالة مؤقتة كما كانت عليه في غابر الزّمان.

يقول أوجلان: «تَكتَسِب الحداثةُ الغربيّةُ المؤلَّفةُ من ثالوثِ الصناعويّةِ والدّولتيّة القوميّةِ والرّأسماليّة، ماهيةً تفيد بأنّها من أشدِّ عصورِ التّاريخ ومدنيّاته دمويّةً، بسببِ شموليّتها هذه. إنّ الحداثةَ المرتكزةَ إلى هذا الثّالوثِ المتداخل، تَسقُطُ في وضعٍ تندلع معه الحروبُ الدّاخليّة (الفاشيّة) داخلَ المجتمعِ من جهة، والحروبُ الوطنيّة والإقليميّةُ والعالميّة فيما بين الدّول من الجهةِ الأخرى. وكما ذكرنا مِراراً، فما يكمن وراء ذلك أساساً هو كيفيّةُ نشوءِ وتقاسُمِ الأرباح. فبينما تُحدِّد الدّولةُ القوميّةُ هدفَها في التّصنيع، فهي تضع ماهيّتَها أو رغبَتها في الرَّسملة ضمن الأجندة. وعندما يُدَلِّلُ الرّأسماليّون على الدّولةِ القوميّةِ كهدفٍ سياسيٍّ لهم؛ فإنّهم بذلك يُظهِرون أنّ تشييدَ الدّولةِ القوميّة يَمُرُّ مِن رَصِّ صفوفِ الأمّة ولصقِها بالنّزعة القوميّة، وأنّ هذا هو نظامُ الدّولةِ الأكثر لزوماً في سبيلِ ترسيخ نظامِ الرّبح. وهكذا يَكُون مصيرُ القرنَين التّاسع عشر والعشرين قد تَبَيَّن، مع تَحَوُّلِ الصناعةِ إلى هدفٍ رئيسيّ للدولة والرّأسماليّة، على حدٍّ سواء. الصّناعةُ أيضاً عصرٌ إنتاجيّ، مثلما هي الزّراعةُ والمانيفاكتورة. وهي تَعتَمِدُ على الإرثِ الحضاريّ، إلا أنّه ما مِن عصرٍ إنتاجيٍّ مَدَّ الدولةَ والاحتكارَ الرّأسماليّ بقدرةِ الإكثارِ من الأرباح والسُّلطات، بقدرِ ما هو عليه عصرُ الصّناعة. لذلك تَبدأُ الدّولَةُ والرّأسماليّ بالتّنافس في موضوعِ التّصنيع، ويُظهِران هذا الحبَّ الأعمى السّوداويَّ له، لا لِتفكيرهما الجدّيّ بالمجتمع والفرد، ولا لاحترامِهما الكبيرِ للأمّة؛ بل لأنّهما حَظِيا بفرصةِ ربحٍ تاريخيّة».

يصف أوجلان "المدنيّة الرّأسماليّة» بالقول: «المدنيّة الرّأسماليّة باصطلاح ضيّقُ النطاق. لكنّ تصويرَ مدنيّةٍ كالمدنيّة الأوروبيّة

– والتي تشمل في ثناياها على العديد من العناصر الدّيمقراطيّة المنيعة للغاية – وكأنّها مدنيّةٌ مشترَكةٌ بين طبقتَين وحسب (العمال – الرّأسماليّون). هو تصويرٌ يحتوي على معانيَ خاطئةٍ جدّاً. لذا، سيَكُون من المفيد أكثر التمييزُ بين أوروبا الدّيمقراطيّة وأوروبا الرّأسماليّة، بدلاً من القول بوجودِ حضارةٍ أوروبيّةٍ وحيدة. وما الاتّحادُ الأوروبيّ الحالي سوى مساعٍ لتطويرِ نمطٍ لأوروبا يَسُودُ الوفاقُ فيه بين الحضارةِ والمدنيّة. إنّها تجربةٌ مثيرةٌ وخليقةٌ بالبحثِ والدراسة. فالضرورةُ الماسّةُ لتأمينِ توازنٍ مدنيّةٍ أوروبا الدّولتيّة المتصلّبة مع التّقاليد الدّيمقراطيّة الحصينة للغاية، ومع القوى المرنةِ كالمنطقِ والحقوق؛ إنّما يتماشى وتعريفَنا بصددِ المرحلةِ الأخيرة من المدنيّةِ الدّولتيّة (أي تداخُل المدنيّة والأزمات). وما الحروبُ الضاريةُ المستمرّةُ على مدى أربعةِ قرونٍ بحالها؛ سوى برهانٌ آخَر على البنيةِ المتأزّمة. هذا وبالإمكان اعتبارُ مثالِ النّظام السوفيّيتي برهاناً آخَر على النّقاشات الدّائرة على قدَمٍ وساق بشأنِ النّظام القائم. وبُنيةُ الاتّحاد الأوروبي، وجدالاتُه بشأنِ المستقبلِ كافيةٌ لوحدِها لتبيانِ مدى تَرَدُّدِ الحداثةِ وعجزها عن النّفاذِ من الأزمة».

خاتمة:

لا نملك وصفاً أعمق ممّا ذكره المفكّر عبد الله أوجلان حول ذهنيّة الحداثة الرّأسماليّة «الوحش غير المروّض»، حيث قال: «لا يمكننا التغلّب على نظامٍ يقتات دائماً على الحرب داخلَ المجتمع وخارجه، إلا بالالتفاف حول يوتوبياتنا في الحُرّيّة، وبتأسيس بؤرِ المقاومة والعدالة في كلّ مكانٍ يتواجد فيه الاضطّهاد والاستغلال والسُّلطة. وكلُّ السُبُل الأخرى أَشبَهُ بدوّامةٍ عقيمةٍ للحياة، حيث لا هدفَ ولا نتيجةَ لها سوى استهلاكُ العمر واستنفاذه.

أخيراً وليس آخراً يُعبّر أوجلان من خلال مرافعته الأخيرة «مانفيستو الحضارة الدّيمقراطيّة» أنّه انقطع وتخلّص من الحداثة الرّأسماليّة إلى الأبد، من دون الالتفات إلى الوراء

> **ركّزت مرافعات أوجلان بدرجة كبيرة على حقيقة الفكر الميثولوجيّ المقنّع المُستَلهم من الآلهة والآلهة الملوك، وتمّ التركيز على القوالب الدّينيّة التي اُعتبرت الأساس في فهم الكون، والمشحونة بالرّياء والخداع المقنّع. فهو يرى أنّ أيّ حراك رئيسيّ في الفكر الدّينيّ يتلخّص في الخضوع للذّات الإلهيّة المقنّعة**

أو الرّجوع لها، من خلال الوعي الإيديولوجيّ والفكريّ لسياسته التي تعتمد على التّنظيم والعمل والأخلاق والثّقافة، والإيمان الكامل بقُدُرات الفرد والمجتمع وخلق الممكن من المستحيل، والإمكانيّات من العدم.

المراجع:

-1 مانفيستو الحضارة الدّيمقراطيّة، المجلّد الأوّل: العصرانيّة الدّيمقراطيّة وقضايا تجاوز الحداثة الرّأسماليّة (المدنيّة) عصر الآلهة المُقَنَّعة والملوك المتستّرين – تأليف: عبد الله أوجلان.

-2 مانفيستو الحضارة الدّيمقراطيّة، المجلّد الثّاني: (العصرانيّة الدّيمقراطيّة وقضايا تجاوز الحداثة الرّأسماليّة) المدنيّة الرّأسماليّة) عصر الآلهة غير المقَنَّعة والملوك العُراة – تأليف: عبد الله أوجلان.

نساء كرديات غيّرن التاريخ -1-

جيهان مصطفى

مقدمة

قدم لنا التاريخ قصصاً لنِساء قدّمن الكثير للإنسانية، فكانت رؤيتهن أعمق وأوسع في إحداث تغيير في عالم السياسة والاقتصاد والعلم والبحث والتاريخ ومجالات أخرى، وبعضهن أصبحن نماذج يحتذى بها، وتحولن إلى مصدر للإلهام في يومنا.

لقد لعِبت النساء الكرديات تقليدياً أدواراً هامة في المجتمع والسياسة الكردية، واختلف الوضع المعاصر للمرأة الكردية اختلافاً كبيراً بين البلدان التي عاش فيها الكرد (تركيا، سوريا، العراق، إيران وأرمينيا) وغيرها نساء لن تنساهن ذاكرة الشعوب، وخلدهن التاريخ بصفحاته بفضل إنجازاتهن التي غيرت مجرى حياة المرأة، فأقل ما يمكن القول عنهن أنهن غيرن التاريخ وسطرن أسماءهن بين أعظم النساء اللواتي عرفها العالم.

ذُكر في الرحلات والمذكرات والكتابات التي خطتها أقلام الرحالة والسواح والتجار الأجانب، الذين مروا بأرض كردستان دور وفاعلية المرأة الكردية، حيث دونوا ذلك بضمير حي، ويؤكدون على تلك الحقيقة القائلة إن المرأة الكردية أنموذج للمرأة الشرق أوسطية، فهي أكثر حرية وتحركاً من غيرها، ومناضلة تخدم جنباً إلى جنب الرجل في كل الميادين، وقلّ نظيرها في العالم كله في القتال إلى جانب الرجال.

واستطاعت المرأة الكردية عبر التاريخ أن تكون صرحاً ومنارة تذكر وتنير للنساء طريقاً يهتدين به، فكانت الشاعرةَ والأديبة والملكة والحاكمة، وأيضًا المحاربة والحكيمة، ففي صفحات التاريخ ما تزال هناك نساء شهرتهن تذكر إلى يومنا هذا.

إن العديد منهن كسرن أبواب التاريخ، وتمكنّ من الولوج به، حيث أعلن الكفاح بكلا وجهيه الثقافي والعسكري، ليتركن بصمات محالٌ محوها؛ وتحدين أشد العقبات والضغوطات، فالأوابد الأثرية والمخطوطات ما زالت شاهدة على تلك الشخصيات، فكانت المحاربة والمناضلة، وأيضا الشاعرة والكاتبة التي التحم قلمها مع نضالها، لدرجة أن بعض المستشرقين لم تستطع أقلامهم غضّ البصر عنهن أو تجاوزهن، ناهيك عن القصائد والقصص التي حيكت وطرزت من قبل العديد من الكتّاب والأدباء.

ومن الشخصيات النسائية اللاتي أثرن في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية

١- الشاعرة والمؤرخة الكردية ماه شرف خان المعروفة بـ (مستورة كردستان)

كانت ولادة الشاعرة الكردية ماه شرف خان المعروفة بـ مستورة الأردلانية أو "مستورة الكردية"، سنة ١٨٠٥م كبرت وعاشت في مدينة سنندج، عاصمة الإمارة الأردلانية في إيران، في فترة حكم أمان الله خان، والد خسرو خان. عرف عنها شغفها بالتاريخ إلى جانب كتاباتها في الشعر والعقائد. وتعتبر أول شاعرة ومؤرخة

ماه شرف خان (مستورة خانم)

كردية.

تعود أصول (مستورة) إلى عائلة ارستقراطية، وكان والد مستورة (أبو الحسن بك)، يكرس اهتماماً كبيراً لتربية أولاده، وكانت ابنته الكُبرى (ماه شرف)، موضع فخره وحبه البالغ، وكثيراً ما كانت ترافقه في زياراته للمناطق الأثرية والعشائر، فتصغي لقصص وأساطير وسَّعَتْ من آفاق خيالها.

وكان جد (مستورة) من طرف والدها (محمد آغا)، أحد وجهاء البلاد الكبار، وكانت حياته الطويلة مليئة بالأحداث، وظل لمدة نصف قرن في فترة حكم أربعة أمراء أردلانيين.

وفي عمر ٢١ عاماً تزوجت "ماه شرف" من الأمير /خسرو خان/ الذي استلم حكم الإمارة الأردلانية عام ١٨٢٦م، وكانت تقوم بمرافقة زوجها في أعماله وزياراته لتَفَقُّد القلاع والآثار التاريخية، والرعية، والاستماع إلى حكاياتهم، وشؤون حياتهم المختلفة، مما مكّنها وساعدها من تأليف

كتابها التاريخي "تاريخ أردلان"، المصدر المهم لدراسة التاريخ الكردي في تلك الحقبة.

وقد ساعدت البيئة الثقافية والأدبية وازدهارها في عاصمة الأردلانيين، "سنندج" لكتابة وتدوين التاريخ، بإشراف عدد من المؤلفين اللامعين في مجالات العلم والأدب، وماه شرف خان بدورها مارست كتابة التاريخ وبرعت فيه، واشتهرت كشاعرة عُرفت في قصائد الغزل والرثاء، كما كانت خطاطة بارعة، فجمعت في شخصيتها الجذابة بين الأصالة والنبل والنبوغ وتعدد المواهب والاهتمامات.

ديوان (مستورة)، والذي يتضمن (٢٠) ألف بيت كتب باللغتين الفارسية والكردية، وتم جمع وطبع وإصدار قصائدها بالفارسية في العام ١٩٢٦، تحت عنوان (ديوان ماه شرف خانم كردستاني – مستورة). وبعد عشرين عاماً، أي في ١٩٤٦، تم طباعة كتاب (تاريخ أردلان)، من تأليفها أيضاً، الذي ضم تفاصيل واسعة عن سيرة حياة مستورة وعائلتها.

إن المهتمين والدارسين لشعر مستورة يقولون إنها تستوحي أفكار أشعارها من تحولات الحياة في مداراتها الكثيرة، مازجة بين الحلم والرؤية، في متخيل رومانسي، مفعم بنفحات روحها الهائمة، ويمكننا اعتبار ديوانها، شهادة نصر للأنثى في خِضم مجتمعٍ لا صوتَ يعلو فيه على صوتِ الرَّجُل.

والتعبير الأمثل عن مدى ما تختزن في داخلها من رقة أنثوية وإنسانية، وتدفّق في المشاعر والأحاسيس، يكمن في قصائدها الغزلية، حيث تتقطع الجمل والتراكيب كاللهاث، محدثة موجات متكررة من المناجاة والتأمل والمونولوج الداخلي، ويبدو ذلك جلياً وهي تخاطب شريك حياتها الفقيد بأبيات كهذه:

وحدي و بعيون خسرو .... أتأمل الربيع

أروي بدموعي الزهور .... وقدمي المكسورتين

ووجنات التهبت آهات .... يضحك لها الشامتون

وتتوجع الأشجار ..... فحتى العشب في الصباح يبكي لكثرة غيابك

وكان الرصيد الثقافي والروحي في تجاربها يعتمد على ما كان سائداً في عصرها من شعر كردي وفارسي، وثقافة مختلطة بطابع شرقي، إذ تلقت علومها عن أشهر علماء عصرها، كما تبين من خلال سيرتها الواردة في كتاب "مجمع الفصحاء" لمؤلفه (رضا قلي خان هدايت)، مما مهد لها ذلك الارتقاء إلى منزلة رفيعة نالت بها حظوة كبيرة لدى العلماء والشعراء، فالشاعر الكبير (مولوي)، يقول فيها في قصيدة له:

"شمسُ الحُسنِ والدَّلال، جالسة على عرش ملكوت الطُّهرِ والعفَّة، تفيضُ دفئاً ونوراً على الجميع".

فالشاعرة والمؤرخة؛ مستورة أردلاني تركت إرثاً غنياً في القرن الثامن عشر، وكانت صاحبة القلم الذي كسر القيود الذهنية في مجتمع ذكوري بكل تفاصيله، وعندما أرّخت بلادها في كتاب أسمته (تاريخ أردلان) ذاع صيتها أكثر فأكثر، لشدة حسّها القومي.

وصفت رحلتها المؤلمة ببعض كلمات لدى ترحيلهم من بلادهم؛ أمارة أردلان إلى إمارة بابان، قائلة:

لو حلق النسر فوقنا، وحدّق فينا ... لسقط كل ريش جسمه.

ولو كان البدر ساطعاً في سمائنا ... لهوى في أعماق الأرض.

تلك الحقبة التي عاشتها توجتها بأعمالها الأدبية، لتخطّ ديواناً كاملاً، نظمت قصائده شعراً ونثراً باللغتين الكردية والفارسية، حيث أضحت رمزاً للمرأة المثقفة والمتنورة وبالأخص المرأة الكردية، وله من الأعمال الأدبية التي شكلت

زخما وإرثا ثقافيا وتاريخيا للأجيال القادمة، كتاب رسالة في العقائد، وكتاب مجمع الأدباء.

ومن المحطات الهامة في حياة مستورة أردلاني (ماه شرف خانم)، أنها تقلدت منصب وزيرة (الأندرون)، لتكون المسؤولة عن شؤون العائلة الحاكمة دوناً عن باقي نساء البلاط، إلى جانب تفقدها القلاع والآثار التاريخية برفقة خسرو خان، وكل ذلك يعود إلى اتصافها بفيض ثقافتها ومتانة العلاقة بينها وبين زوجها خسرو خان، الذي لامس فيها حرصها القومي الدؤوب في إعلاء شأن بلادها وتسلحها بالوعي الثوري، وتسخير قلمها لخدمة شعبها، ناهيك عن؛ الاستماع لأحاديث الرعية والوقوف على مشاكلهم، وبالتالي استمدت خامات موادها الكتابية من أفواههم، ودونتها في كتاباتها ولتصبح على المدى البعيد تاريخ شعب مقهور ومسلوب الحقوق.

وتتطرق في كتاباتها إلى أن بلادها تعرضت لعشرات الغزوات، وتحولت لميدان تشتعل فيها المعارك، كما عاث الأعداء فيها نهباً وتخريباً طال كافة معالمها، ولم يستثنَ علماءُ وشعراء وتجّار بلادها من البطش، بغية إمحاء آثار حضارتها، لكن تلك الحضارة غزلت في قصائد أشهر نسائها، وغدت منارة للأدب الكردي الثوري نسجتها أنامل امرأة كردية صاحبة أدب ثوري مؤرخ، لتنال لقب لؤلؤة الشعر الكردي بجدارة.

ويُروي أن الشاعرة مستورة نظّمتْ حوالي عشرين ألف بيت شعر، ضاع أكثره، ولم يبق منه سوى ثلاثة آلاف بيت بالفارسية، وباللهجتين الكرديتين السورانية والكورانية.

كانت وفاة الأمير خسرو خان عام ١٨٣٥ م صدمة عنيفة للشاعرة، إذ شعرت بأنها فقدت بموته أعز وأفضل صديق ومعلم، إذ كان ينظم الشعر بالفارسية، وكان هذا من أقوى أسباب العشق والهيام بينهما، ولعل قصائدها الغزلية، هي التعبير الأمثل عن مدى ما تختزن في داخلها من رقة وإنسانية، وتدفق في المشاعر والأحاسيس.

توفيت الشاعرة والمؤرخة مستورة الكردية إثر مرض ألم بها في عام ١٨٤٧ بالسليمانية (كردستان العراق)، ودُفنت في مقبرة "كردي سةيوان"، إلى جانب الكثير من المشاهير والمثقفين الكرد.

٢- غدام خير قلافند (الأميرة قدم خير)

ولدت الأميرة قدم خير قلافند عام ١٨٩٩م في مقاطعة الفار غرمسيري من أنديمشك، وتنحدر بأصولها من قبيلة قلاواند، و تعتبر من مشاهير نساء الكورد، فهي البطلة والقائدة الثائرة الكوردية الصلدة، وهي الفارسة المقدامة الشجاعة الهمامة، وكان أملها أن تتحرر كوردستان من المحتلين العنصريين، ولم تخشَ التضحية والفداء والجود بالنفس من أجل هذا الهدف المقدس، فما عادت تطيق الظلم والجور والاضطهاد الذي تعرّض له الكورد على يد شاه إيران رضا بهلوي، وجسدت المثل الكوردى الذي يقول "**عش قليلاً ولكن عش عظيماً**" فكانت تفضل ذلك على حياة الأسر والعبودية، وحملت سلاح (الكوردايتي) والرجولة و قامت بإعلان الانتفاضة والثورة في منطقة لورستان، وقد تزامنت هذه الثورة مع ثورة القائد الكبير سمكو الشكاك (**إسماعيل خان الشكاك**)، وثورة الأذريين في إيران.

وبالمقارنة مع القائدة الثورية الفرنسية (**جاندارك**) ضد الإنكليز الذين احتلوا بلادها، نجد أن **قدم خير** الكورد أشجع منها، ولكن الاثنتين قضتا غدراً.

الأميرة (**قدم خير**) ابنة الأمير (**قند القلاوندي**)، الذي كان أحد أمراء إمارة لورستان الصغرى، من قبيلة لورية فيلية، معروفة بالبطولة والشجاعة وحب وعشق الكورد وكوردستان. وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولدت قدم خير (المؤسف أنه ليس هناك مصدر يشير إلى سنة ولادتها وموتها).

كانت **غدام خير** فتاة جميلة وناضجة

غدام خير قلند _ الاميرة قدم خير

وشجاعة مشوقة القوام ذكية وواعية وذات فكر لماع، وفارسة شجاعة، وصارت مادة للعديد من الأشعار والأغاني خصوصاً باللهجة الفيلية، التي بقي صداها حتى يومنا هذا على لسان الكورد الفيليين، والتي تتحدث عن شجاعتها وبطولتها وثوريتها.

قضت فترة مراهقتها في ظروف قبلية وبدوية مع إخوتها، وفي صراعات بين القبائل وكذلك صراعات قبلية مع الحكومات في ذلك الوقت.

قام الشاه **رضا البهلوي** بقتل **شامراد خان**، آخر أمراء إمارة لورستان الصغرى غدراً وذلك عام ١٩٢٥، وهو شقيق **قدم خير**، وهذا الأمر أثار غضبها الشديد على الشاه، ودفعها ذلك أن قطعت على نفسها عهداً ألاّ تقبل بالظلم والاضطهاد، وألاّ تدع بلادها لقمة سائغة يقوم الشاه بالتهامها.

وخلال فترة قصيرة تمكنت تجهيز جيش من الكورد الفيليين، وأعلنت الانتفاضة والثورة وقادتها بنفسها، وأرادت أن تعلن استقلال لورستان، وجعلت من جبال لورستان الحصينة معقلاً للثورة، وهاجمت أكثر من مرة قوات الشاه من عدة جهات وألحقت بها خسائر كبيرة، وغنمت الكثير من الأسلحة والعتاد، وبسبب ذلك كانت محاولة الشاه أن يخدع العشائر الكوردية بإغرائها بالمال والمناصب، ويجعل منها جحوشاً مرتزقة لمواجهة الثورة، لكن موقف العشائر جاء بخلاف ما كان الشاه يتمنى، ولم تقبل أن تلطخ أيديها بدماء بني جلدتها، فقامت قوات الشاه بهجمات أخرى ضد الثورة ولكنها قوبلت بالإرادة التي لا تقهر من جانب الثوار، حيث أوقعت بهم أفدح الخسائر، واستطاعوا في مدة وجيزة تطهير كامل مناطق لورستان من جيش الاحتلال.

وعلى أثر ذلك أرسلت الأميرة **قدم خير** وفداً إلى الشيخ **محمود الحفيد** يحمل له رسالة شرحت فيها المظالم التي وقعت وما تزال تقع عليهم، وكيف أن الشاه **رضا البهلوي** قتل أخاها الأكبر الأمير **شاه مراد خان** غدراً، وطلبت من الشيخ الحفيد توحيد جيشيهما وتشكيل قوة واحدة لمواجهة المحتلين في شرق وجنوب كوردستان، وكتبت له أيضاً أنها على استعداد أن تكون بإمرته، هي وجميع الثوار مع كامل أسلحتهم وعتادهم، بما فيها مؤونة قتال تكفي لسنتين كاملتين، لكن الشيخ لم يصغِ لطلبها، ويقال بأنه خشي إن اتفق معها فسيبتعد عنه فرسانه لاعتقاده بأنهم سيسيئون فهمه، ويظنون أن الشيخ إنما يفعل ذلك طمعاً في ثروة وجاه أميرة غنية.

وبعد أن تكبدت قوات الشاه هزائم عديدة، لجأ إلى التحايل والكذب، فأرسل وفداً إلى الأميرة **قدم خير** مع مجموعة من الهدايا القيمة، ووعدها من أن يقوم بإصلاحات وعمليات إعمار في لورستان، وأن يرفع المستوى المعيشي لسكانها، وأعلن عفواً عاماً عن جميع الذين رفعوا السلاح ضده، وطلب يد **قدم خير** للزواج، فغضبت قدم خير من الوفد وأمرتهم أن يحملوا كل ما جلبوه من هدايا، وأن ينقلوا للشاه نص كلامها الآتي: **"أنا**

لست امرأة لأتزوج، إنما أنت امرأة".

لقد كانت قدم خير على علم بنوايا وأهداف الشاه الخبيثة، ولكن وللأسف صدّق عدد من الثوار العفو الذي أصدره الشاه، فسلموا أنفسهم مع أسلحتهم للشاه، الأمر الذي أضر كثيراً بالثورة.

وحين علم الشاه بموقف الأميرة **قدم خير** استشاط غضباً وتوتراً، وجهّز جيشاً جراراً مزوّداً بأقوى الأسلحة وتوجّهَ به نحو لورستان، ولم يدع هذا الجيش أمراً شائناً إلا وفعله، فقام بقتل المئات من الأطفال والنساء والكهول الأبرياء، وخرب ودمّر عشرات القرى وأحرقها، وسلب ونهب ماكانت تحتويه البيوت، ولكن ورغم كل هذا لم يستطع أن يحتل جبال لورستان.. فقام الثوار بتنظيم صفوفهم في الجانب الجنوبي من منطقة كَرميان، وعبروا تارة أخرى إلى لورستان، وهاجموا جيش الشاه من عدة جوانب وألحقوا به أنكر الهزائم والخسائر والأضرار.

وحينما أدرك الشاه أنه من المحال أن يسيطر على المنطقة بقوة الجيش والسلاح وينهي ثورة **قدم خير**، لجأ مرة أخرى للمكر والخديعة والأيمان الكاذبة والوعود العسلية، في مؤامرة أكبر من سابقتها، وعلى الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي يقوم الأعداء بخداع الكورد عبر التستر بستار الدين الإسلامي، فقد أرسل الشاه الغادر وفداً آخر إلى قدم خير محملاً إياها رسالة أخرى مع نسخة من القرآن الكريم، دوّن على جلدها الأول توقيعه مع طبعة يده، حتى يصدقوا بأنه مسلم يخشى الله، وقد وضع يده على هذا القرآن دلالة على حسن نيته، وجاعلاً القرآن شاهداً على ذلك، وكتب لهم عفواً عاماً بلا قيد أو شرط، وأن يعود كل مسلح لداره وعياله، واعداً أن يعمّر لورستان أفضل من السابق.

وعندما وقعت أعينهم على القرآن الكريم صدّق أغلب الثوار وعود الشاه وانطلت حيلته عليهم، فسلموا أنفسهم بأسلحتهم لجيش الشاه، عدا **قدم خير** وعدد قليل من الأشخاص الذين أدركوا، فلا حيلة لديهم وليس بمقدورهم فعل شيء أمام جيش الشاه، فسلموا أنفسهم أيضاً، وإن كانوا غير مطمئنين للعفو الذي أصدره الشاه، فقام جيش الشاه الغادر في أول ليلة بقتل معظم الثوار واعتقل الأميرة قدم خير و١٧ من قادة الثورة وأرسلهم إلى طهران، وبعد وصولهم بيوم واحد أعدموا جميعاً. ويروي البعض، وفي فعل مشين وغادر أنهم قاموا بربط ضفائر قدم خير لذيل بغل، فتحطم جسمها وتقاطرت دماؤها ومن ثَم رموها في زنزانة.

توفيت قدم خير في عام ١٩٣٣ م، بعد أربع سنوات من وفاة إخوتها وزوجها في سوزا، ودفنت في مقبرة بجوار الجسر القديم فيها دزفول، حزينة على فقدان إخوتها.

الخاتمة

إن الحديث عن النساء الكرديات عبر التاريخ، وخاصة تلكم اللواتي خلّدن أسماءهن في صفحات التاريخ بفضل إنجازاتهن وأعمالهن وتضحياتهن، لحديث متواصل ومستمر، ففي كلّ زاوية يجري الحديث عن امرأة أثبتت أنّها قادرة على كتابة التاريخ وصنع الحاضر والمستقبل، وترك بصمة وأثر يدوم أجيالاً متعاقبة.

إن واقع الشعب الكردي، حتَّم على المرأة الكردية بعض الخصال وأكسبها هوية نضالية، لتغدو خصلة متجذرة ومتوارثة، ولتميزها أيضا عن باقي نساء الشعوب الأخرى، الأمر الذي دفع بها لتلعب أدواراً هامة وقيادية في كافة ميادين الحياة، وعلى رأسها تسلحها بسلاح المقاومة الفكرية من خلال التبّحر في العلم، وتوظيفه لأجل إيصال آلام شعبها للعالم أجمع.

المراجع

-1 التاريخ الجغرافي والاجتماعي لرستان، حميد إزبانة، طهران، جمعية الأعمال الثقافية والتكريم، 1997

-2 كتاب لورستان، جهد سيد فريد قاسمي، طهران، الهروفيه، 1999

-3 مقالة، أيقونة الأدب الكردي... مستورة أردلاني (كردستاني) – ثناء حاجي، أبريل 2019.

-4 كتاب مجمع الفصحاء، رضا قلي خان هدايت، مقال رضا شوان، ترجمة: ماجد السوره ميري.

المرأة والميثولوجيا

ريما خليل

بداية لا أريد أن أُظهر المرأة بمظهر الكائن الذي لا حول له ولا قوة لها، وربما كثير من الباحثين سعى إلى جعل هذا المخلوق من خلال أبحاثه بأنه وُلِد أو بُعِث على وجه البسيطة بامتيازه وخاصيته الضعيفة. غير أنّ كل هذا يجانب الصواب والحقيقة من خلال بحث بسيط سنقوم فيه بالكشف عن حقيقة هذا المخلوق الذي يتّصف بالرّقة والحنية على مدار العصور بداية من عصر الأمومة التي كانت فيه المرأة العقل المدبر للأسرة، والقائد بامتياز.

وربما أسند إليها هذا الدور في عصر كان يتوجب عليها رعاية الطفال وتربيتهم من خلال خوفها على صغارها وهذه الخاصية منحتها الطبيعة أو الآلهة، فنجدها ساهمت في بداية بزوغ الحضارة البشرية وعلى يدها تم اكتشاف الزراعة وطهو الطعام، ويكفي هذا المخلوق فخرا عبر العصور بأن جميع الالهة التي كانت تمتاز بالحب والحنية هي كلها من فئة الإناث من عشتار وآناهيتا.

من خلال هذا البحث المتواضع سأقوم بالكشف عن المراحل التي مرت بها حياة المرأة عبر العصور والحضارات البشرية.

في المجتمع الأمومي كما يقول الأستاذ فراس السواح -بالعودة إلى كتابه «لغز عشتار»: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة - ينتسب الأولاد إلى أمهم وعشيرتهم لا إلى أبيهم الذي ينظر إليه نظرة الغريب.

حيث أنّ المرأة كانت ولا زالت هي المسؤولة الأولى عن حياة أطفالها.. ففي المجتمع الأمومي كانت المرأة هي أول من زرع وأنتج الغذاء، ونسج وصنع الأواني الفخارية والمفارش والأغطية بالإضافة إلى أنها كانت أول من اكتشف خصائص الأعشاب الطبية وشفاء الأمراض..

ولم يكن الرجل خانعاً لها بل على العكس تماماً فقد أعطته المرأة دوراً كبيراً في الدفاع، وصدّ العدوان وملاحقة الطرائد.

ومن هنا نستنتج أن المرأة تنشر روح العدل والمساواة والعاطفة بين أطفالها وجماعاتها فهي كرهت العنف الجسدي، وابتعدت عنه وألغته بشكل نهائي بين جماعات المجتمع الأمومي.

في حين المجتمع الأبوي الذكوري على العكس تماماً، إذْ يعتمد على التسلط والتملك والذي يفرض قوانين مصطنعة، ويعتمد أيضاً على العنف الذي مازلنا نعيشه حتى اليوم.

في المجتمع الأمومي كانت العلاقات الجنسية في بادئ الأمر حرة وليس لها أيّة روابط ثم مع مرور الوقت تمّ تنظيمها، وحُرِّمت إقامة أيّة علاقة بين الآباء والأبناء ومن ثم حُرِّمت بين الأخوة وقد سُميت هذه المرحلة بالهيتيرية (Heterisme) وفي هذه المرحلة حُظيت الأمهات بكمٍّ كبيرٍ من الاحترام والتقدير؛ لأنّهنّ وحدهنّ المعروفات، وهذا ما يسمّى بالجينيكوقراطية (Gynecocratie) حكم النساء، ومع مرور الزمن تابع هذا التنظيم طريقه إلى أن تم تشكيل عائلة ثنائية مؤلفة من أب وأم وأبنائهما، وفي هذه الأثناء أصبح الرجل يستلم السلطة رويداً رويداً، وانقلب الوضع ضدّ المرأة حتى باتت المرأة مستعبدة مُهانة من قبل الرجل، وهنا بدأت مقاومة النساء ضد الرجال، وضدّ الاستعباد، ومن أشهر تلك الأساطير أسطورة الأمازونيات.

الأمازونيات هي قبيلة من النساء المقاتلات المحاربات -اللواتي رفضن الاستعباد من قبل الرجال أو بالأصح الذكور- أتين من شواطئ البحر الأسود، وسكنّ عند تخوم بلاد الإغريق فأنشأن عدداً من المدن التي تحكمها ملكة، فإذا أردنَ إنجاب الأطفال ذهبن إلى مدن مجاورة وضاجعن رجالها، وعُدنَ أدراجهنّ، فإذا كان المولود ذكراً، قتلنه في المهد، وفي أساطير أخرى عُدن به إلى مكان والده، أمّا إذا كانت المولودة أنثى أبقين عليها وربينها وعلّمنها منذ الصغر الحرب وفنون القتال وكره الرّجال، وقد حاول أكثر من بطل أسطوري محاربتهنّ وإبادتهنّ والقضاء على ملكتهنّ ومن هؤلاء الأبطال الأسطوريين هرقل.

ولاتزال هناك إلى يومنا هذا قبائل أو شعوب تعتمد مبدأ الثقافة الأمومية، ومنها قبيلة (الموسو).

قبيلة الموسو هي مجموعة عرقية صغيرة تعيش على مقربة من حدود الصين مع التيبت مكونة من /٥٦/ ألف شخص تكون فيها المرأة غالباً ربة المنزل وتورث للمرأة التي تليها بالإضافة إلى اتخاذ القرارات وإجراء الكثير من الأعمال.

من وجهة نظري أنّ الأنثى كاللبوة، وأظنّ هذا من وجهة نظر أغلب الذكور في مجتمعنا – أقول

الذكور لأنه ليس كل ذكر برجلٍ - الذين يرفضون الاعتراف بهذه الحقيقة وهذا ما يؤكده قول أرسطو في كتاب السياسة (أغلب الشعوب العسكرية الميّالة إلى القتال هي شعوب منقادة إلى النّساء، ذلك أن المرأة رغم طبيعتها المسالمة تسلك سلوك اللبوة الكاسرة إذ يتعرض أشبالها للخطر).

وكانت (كرستيان ديروش نوبلكور) عالمة المصريات الفرنسية، ولدت في / ١٧/ نوفمبر عام /١٩١٣/ وكانت أول امرأة التحقت بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية، أطلقت مع ثروت عكاشة وزير الثقافة المصري في الثامن من مارس عام /١٩٦٠/ النداء العالمي لإنقاذ آثار النوبة من الغرق والضياع، وبالفعل تم إنقاذ ونقل أربعة عشر معبد مصري ببلاد النوبة من الضياع والاندثار والغرق.

تؤكد كرستيان ديروش بأن المرأة المصرية كانت تحيا حياة سعيدة في بلد يبدو أن المساواة بين الجنسين فيه أمر طبيعي، وتؤكد أنّ الإنسان المصري يعتبر أن المساواة أمر فُطِر عليه.

كذلك وضعت الحضارة الفرعونية أوّل التشريعات والقوانين الناظمة لدور المرأة، وأول تلك التشريعات وأهمها الزواج أو الرباط المقدّس من حيث الحقوق والواجبات القائمة على الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة باعتبارها ربة البيت والمتحكمة الأولى فيه بالإضافة لحقها الكامل والمتساوي مع الرجل في الميراث، وكان لها ثلث مال زوجها في حال قيامه بتطليقها دون سبب، على عكس ما يحدث حالياً في مجتمعاتنا التي لا تعترف بأي حق من حقوق المرأة في حال طلاقها، أو إذا طلبت المرأة الطلاق من زوجها فإن الزوج يستعمل كل الأساليب حتى تتنازل المرأة عن حقوقها، وفي بعض الأحيان تتنازل عن أولادها فقط لتتحرر من ظلم زوجها.. طبعاً أتكلم بالأغلبية وليس العمومية.

كان المصري القديم دائم الحرص على أن تدفن زوجته معه باعتبارها شريكته في الحياة الدنيا وبعد البعث أيضاً.

”كانت المرأة ولا زالت هي المسؤولة الأولى عن حياة أطفالها.. ففي المجتمع الأمومي كانت المرأة هي أول من زرع وأنتج الغذاء، ونسج وصنع الأواني الفخارية والمفارش والأغطية بالإضافة إلى أنها كانت أول من اكتشف خصائص الأعشاب الطبية وشفاء الأمراض، ولم يكن الرجل خانعاً لها بل على العكس تماماً فقد أعطته المرأة دوراً كبيراً في الدفاع“

في مصر القديمة ظهرت المعبودات من النساء إلى جانب الآلهة الذكور ومنها آلهة الحكمة كانت في صورة امرأة، والآلهة إيزيس كانت رمزاً للوفاء والإخلاص وجعل المصريون القدماء للعدل آلهة، وهي ماعت، وللحب آلهة وهي حتمور وللقوة سخمت...

استطاعت المرأة المصرية الدخول في العديد من ميادين العمل المختلفة وشاركت في الحياة العامة، وكان لها حضورها في مجالس الحكم ووصل التقدير العلمي لها لدرجة رفعها إلى عرش البلاد، فقد تولين الملك في عهود قديمة مثل ”حتب“ أم الملك خوفو و”خنت“ ابنة فرعون ووتي زوجة أخناتون وكليوباترا. وعلمت المرأة بالقضاء مثل نبت، حماة الملك تيتي الأول من الأسرة السادسة، وأيضاً عملت المرأة بمجال الطب مثل ”بسشيت“ والتي حملت لقب كبيرة الطبيبات خلال عهد الأسرة الرابعة.

وتقول البروفيسور جانيت جونسون من جامعة

شيكاغو: (إنّ عقود الزواج في مصر القديمة كانت تنصب في مصلحة المرأة وتضمن لها حقوقها حال وقوع الزواج إثر ضغوط من عائلتها أو أي ظروف أخرى) كانت المرأة هي التي تبدأ بخطبة الرجل وعرض الزواج عليه على عكس ما نحن عليه الآن، ورغم كل التقدّم السائد في مجتمعاتنا، لكن يبقى هذا الموضوع يمس بحياء الأنثى حسب معتقد الذكور.

حملت المرأة المصرية القديمة ألقاباً كثيرة منها: طاهرة اليدين، سيدة الحب، سيدة الجمال، عظيمة البهجة ...وتظهر المرأة المصرية أيضاً في ظاهرة فيضان النيل حيث كان المصريون القدماء يؤمنون بأنّ مياه النيل تزداد عندما تتذكّر الإلهة إيزيس وفاة زوجها "أوزيريس " وتجلس عند شط النهر، وتبكي، فدموعها كانت تنزل إلى النهر، وتزداد المياه فيأتي فيضان النيل.

أمّا في الفن المصري القديم فكانت مكانة المرأة مساوية تقريباً لمكانة الرجل، وهذا ما يدلّ على احترام المصريين الكبير للنساء، حيث كان الزوج في قمّة سعادته حين يتمُّ تصويره ضمن مجموعة عائليّة مع زوجته أو زوجاته وأبنائه أو حتى بناته، فقط على سبيل المثال: زوجة القائد نخت مين التي عاشت في نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة. وظهر التمثال الأسري الذي جمع بين سناي زوجة حاكم طيبة سننفر والتي ظهرت مع زوجها وابنتها.

حظيت النساء المصريات في المجتمع المصري القديم بكامل حقوقهنّ التي لم تحصل عليها النساء في زمننا هذا -للأسف لازال هناك الكثير من العائلات التي ترفض تعليم بناتهنّ بحجّة العمل أو الزواج - فكان للمرأة في مصر القديمة الحق في التعليم ابتداء من سن الرابعة، وكانت المدارس التي تتلقّى فيها العلم ذات نظامٍ صارم، كانوا يتعلمون مبادئ الحساب والرياضيات والعلوم وأيضاً يتعلمون أصول اللغة الهيروغليفية واللغة الهيراطيقية وذلك للاستعمال اليومي.

في المجتمع المصري القديم يعدّ الدم الملكي عاملاً للشرعية الإلهية، فهناك نساء استطعن أن يصلن إلى أعلى المناصب، وهو منصب الفرعون، فالدم الملكي هو المعيار المميز لامتلاك السلطة، كما في حال نفرتيتي زوجة أخناتون، حيث فضّل المصريّون أن تحكمهم امرأة ذات دم ملكي على أن يحكمهم رجل دمه ليس ملكي، والجدير بالذكر أنّ أقدم معاهدة سلام في التاريخ كانت علي يد امرأة، حيث شاركت والدة الملك رمسيس الثاني "تويا" والأميرة "نفرتيتي " في معاهدة السلام التي أبرمها الملك مع الحثيين في (١٢٥٨ ق.م).

بعد كل هذه المساواة العظيمة بين المرأة والرجل في المجتمع المصري القديم يبدو من الواضح أنّ المصريين القدامى شعب لا يشبه أيّ شعب لا في الزمن القديم ولا في الزمن الحديث، شعب أعطى المرأة كامل حقوقها وقدّسها وعظّمها وبجّلها، شعب جعل المرأة تشارك في كافة مجالات الحياة، لم يعتبرها أنثى ضعيفة لا حول لها ولا قوّة بل على العكس تماماً، فهي لعبت دور الرجل، ودور المرأة من دون حاجتها للرجل، وهذا ما أكّده المؤرخ اليوناني الشهير (هيرودوت) والذي عُرِف بأبي التاريخ؛ لكتابه الذي ألّفه عن تاريخ البلاد، حيث ذكر المؤرّخ هيرودوت بعد زيارته مصر في القرن الخامس قبل الميلاد: "إنّ المصريين في عاداتهم وطريقة حياتهم يبدون وكأنّهم يخالفون ما دُرِجَ عليه البشر ،فنساؤهم على سبيل المثال يذهبن للأسواق ويمارسن التّجارة، بينما الرّجال يقرّون في البيوت، يغزلون، وعلى أي حال فمناظر المقابر تشير إلى دور المرأة في أعمال التجارة، والحصاد، ودرس القمح، وكلّها أعمال شاقة قامت بها المرأة مثل الرجل تماماً، كذلك عملت المرأة بجانب الرجل في أعمال المطبخ مثل طحن القمح وصنع الطعام والإشراف على المآدب التي كان يحضرها الرجال والنساء مختلطون"

الحديث عن المرأة المصرية، وما عاشته من مساواة مع الرجل في المجتمع المصري القديم لا ينته ولكن اكتفيت بالشيء الأهم والوافر الذي حاولت من خلاله الإثبات لكلّ شخص يعتقد أنّ المرأة لا يتجاوز تفكيرُها البيت والمطبخ والأولاد بأنه على خطأ وأنّ المرأة هي إنسان لا يقل أهمية عن الرجل

بل في كثير من المراحل الزمنية تغلّبت عليه واستلمت أعلى المناصب كما تحدّثنا سابقاً.

من الحضارة المصرية القديمة لننتقل إلى حضارة المايا ولكن للأسف بالعودة إلى المراجع التي تتعلق بحضارة المايا لم أتمكن الإلمام بالكثير من المعلومات عن المرأة، فإلى هذه اللحظة تتمّم عملية البحث والتنقيب عن آثارهم.

المايا هي حضارة سكنت في جزء كبير من منطقة وسط أمريكا التي تعرف حالياً بغواتيمالا، بليز، هندوراس، السلفادور، وفي نطاق خمسة ولايات جنوبية في المكسيك مثل: كامبيتشي، تشياباس، كينتانار، تاباسكو ويوكاتان.

تأسست خلال فترة ما قبل الكلاسيكية (حوالي ٢٠٠٠ ق.م إلى ٢٥٠ م) وفقا للتسلسل الزمني لوسط أمريكا، وكان للمايا حضارة يقدر تاريخها بحوالي /٣٠٠٠/ سنة، ووصل العديد من مدن المايا إلى أعلى مستوى لها من التطور خلال الفترة الكلاسيكية (بين ٢٥٠ م حتى ٩٠٠ م) واستمرت خلال ما بعد الكلاسيكية حتى وصول الإسبان. على الرغم من أن شعوب المايا كانت من أعرق الحضارات التي كانت على مرّ الزمان، إلّا أنّ العلاقة بين الرجل والمرأة كانت غريبة جدّاً؛ حتى كانت هناك غرابة في مواضيع الزواج؛ حيث كان هناك سماسرة للزواج، وكان الزوج يدفع ثمن الزوجة الذي هو عبارة عن قوس وبضعة نبال، وهناك اتفاق يعقد بين الطرفين هو أن يعمل الزوج عند حميه لفترة معينة قد تطول إلى سنوات، وإذا لم تنجب الزوجة أطفالاً فيحق للزوج أن يبيع زوجته إلى رجل آخر في حال لم يتمكن والدها من رد الثمن الذي قبضه، وكان هناك قانون آخر يمنع الزوج من الزواج مرة أخرى إلا زعيم القبيلة الذي كان يتخذ مُحظية له، ومن هنا يتبين لنا أن المرأة كانت بمثابة سلعة، يتمّ بيعها وشراؤها، فلا مكانة للمرأة بالنسبة لحضارة المايا.

وهناك مؤرخون يقولون إنّ قبيلة المايا كانت تسلّم الرجل الذي يعتدي على شرف أحد الرجال المتزوجين مِن الذي اعتدى على شرفه، ويحقّ لهذا الأخير أن يقتله بسحق رأسه بصخرة كبيرة. أمّا بالنسبة للذي يعتدي على شرف امرأة عذراء، أو يغتصب امرأة فتارة يكون عقابه الموت بأفظع الوسائل، وكانت هذه القوانين مطبقة على كافة أبناء القبيلة، ومن ضمنهم زعيم القبيلة بذاته.

”هناك مؤرّخون يقولون إنّ قبيلة المايا كانت تسلّم الرجل الذي يعتدي على شرف أحد الرجال المتزوجين مِن الذي اعتدى على شرفه، ويحقّ لهذا الأخير أن يقتله بسحق رأسه بصخرة كبيرة. أمّا بالنسبة للذي يعتدي على شرف امرأة عذراء، أو يغتصب امرأة فتارة يكون عقابه الموت بأفظع الوسائل، وكانت هذه القوانين مطبقة على كافة أبناء القبيلة، ومن ضمنهم زعيم القبيلة بذاته“

كان لدى قبيلة المايا آلهة اسمها (اكسشيل) وهي آلهة الولادة، حيث كان المجتمع يراعي ظروف المرأة التي تتمخض بشكل كبير، ويتم وضع اكسشيل في سريرها وذلك لتسهيل عملية المخاض على الأم، وكان الكاهن بذاته يقوم بقطع سرّته بمدية في نفس اليوم الذي يولد.

وكان الكاهن يأخذ من هذا الدمّ، فيغمس فيه عرنوس ذرة تزرع حباته في الأرض، فإذا ما استمرت في النمو حتى يشتد ساعد الطفل ويصبح قادراً على الزراعة، وهذا يدلّ على أنه سيعيش حياة طويلة ومريحة.

لنتحدث الآن بشكل مبسط عن المرأة الهندوسية..

هناك وجهات نظر مختلفة حول المرأة فتارة تكون بمثابة الآلهة، وتارة تكون بمثابة الابنة المطيعة التي لاحول لها ولا قوة.

في كتاب الريجفدا وهو أحد الكتب الهندوسية المقدسة في ترنيمة "ديفي سوكتا" المرأة أو الروح المؤنثة هي جوهر الكون على خلاف ما جاء في كتاب "مانوسمريتي "الذي اعتبر المرأة زوجة مطيعة لزوجها، وتختبئ وراء حماية والدها.. هذا في حال إذا كانت متزوجة.. واعتبارها أرملة ابنها.. وفي نفس الكتاب في أقسام أخرى اعتبر المرأة أنثى يجب أن تكرم وتتزين.. ومع كل هذا فقد شكك العلماء في مصداقية تلك النصوص مع مرور الوقت.

ومما جاء أيضا في كتاب مانوسمرتي، إنّ الهندوس يحفزون على الزواج المبكر، ويعتبرون عدم الزواج عارٌ، والزواج يربط المرأة بزوجها رباطاً أبديّاً، وإذا مات الزوج قبل الزوجة فيجب أن تحرق الأرملة مع جثمان زوجها، فمن الخير لها ألّا تبقى بعده.

وأيضا من المسموح أن يتزوّج رجل من الطبقة العالية فتاة من الطبقة الأدنى لكن العكس غير مقبول حيث ان الطبقات العالية يحلو لها أن تفعل ما تشاء.

البوذية وهي ديانة دارمية وتعتبر من الديانات الرئيسية في العالم وهي رابع أكبر ديانة بعد المسيحية والإسلام والهندوسية، مؤسسها غوتامابوذا الذي كان من تعاليمه أن تكون الزوجة مطيعة لزوجها وفي نفس الوقت ينبغي على الأزواج احترام زوجاتهم، وكان يسمح أيضا انضمام المرأة الى المجتمع الرهباني كعضو كامل العضوية ولكن ضمن شروط قد وضعها.

مكانة المرأة في الديانة اليهودية لم تكن بحال أفضل فعندما نرجع الى أسفار الكتاب المقدس نرى ان التوراة - العهد القديم قد جعلها تابعة للرجل وخادمة له.

"مبارك أنت يا رب لأنّك لم تخلقني وثناً ولا امرأة ولا جاهلاً" هذا ما يقوله الذكور اليهود في صلواتهم، أمّا المرأة تقول بانكسار: "مبارك أنت يارب الذي خلقتني بحسب مشيئتك"

أظن اتضحت مكانة المرأة اليهودية من خلال هاتين الجملتين.

الديانة اليهودية احتقرت الجسد الأنثوي، وانزلت من قيمة المرأة بشكل عام، فمن وجهة نظر هذه الديانة أنّ حواء هي التي أغوت آدم، وأخرجته من الجنة، لذلك عاقبها الله بآلام الحمل والولادة والرضاعة والطمث وغيرها. وتعتبر المرأة اليهودية من النجاسات وبخاصة في فترات الحيض والنفاس، فمن المحرم أن تنام بجوار زوجها في تلك الأثناء، ويجوز للأب أن يبيع ابنته إذا كان بحاجة للمال، ويجب حلاقة شعر المرأة بعد زواجها بالكامل، وترتدي غطاءً أسود كبديل عن شعرها الأصلي، وإن لم تفعل حينها يحق للزوج أن يطلق زوجته.. وبالنسبة لحقوقها في الميراث فليس لها أي حق، وشهادة مئة امرأة تعادل شهادة رجل واحد، وغيرها من المعتقدات والأفكار الظالمة.

وفي شريعة اليهود القديمة إذا تزوج شخص بامرأة ثم مات قبل أن ينجب منها فالشريعة تقول إنّ أخوه يتزوجها، وينجب منها طفلاً، وينسب الى أخيه الذي مات؛ لكيلا ينقطع النسل حيث أنه سُؤِل السيد المسيح: رجل تزوج ومات قبل أن ينجب فأخوه تزوج امرأته ومات قبل أن ينجب أيضاً، وأخوه الثالث تزوّجها ومات قبل أن ينجب وكانوا سبعة أخوات وماتوا، ففي السماء لمن تكون؟ وفي هذا تصوروا أنهم حاصروه بهذا السؤال، فردّ السيد المسيح قائلا: - إنكم لا تفهمون، ليس هناك زواج في السماء، ففي السماء لا يزوّجون ولا يتزوجون، بل يعيشون كملائكة الله.

وعندما خلق الله "**حواء**" في الرواية التوراتية اليهودية، والمأخوذة عن الأساطير السومرية والبابلية، والتي نقلتها عن اليهودية الديانتين المسيحية والإسلامية نجد أنّه خلقها من "ضلع" آدم، وهذه تبعية للرجل.

ويقول البعض في معرض دفاعهم عن معنى هذه

"الحكمة الربّانيّة" في خلقها من ضلعه بأن الله لم يخلقها من رأسه لكيلا تكون متفوقة عليه، و لم يخلقها من قدمه لكيلا يدوسها بحذائه إذ ليس الرجل من دون المرأة، و ليست المرأة من دون الرجل، و بناءً عليه فهما يتساويان في الحقوق و في الواجبات، لذا يتزوج الرجل في المسيحية من امرأة واحدة فقط، و كرامة المرأة في المسيحية معروفة، و مثال ذلك العذراء مريم التي إن نظرنا إلى كرامتها و قيمتها و عظمتها، نجد أنّها قد أخذت كلّ الكرامة و القّدسيّة و الاحترام، و أيضاً في الكتاب المقدس كان هناك "نبيات" مثل (ديبورة النبية)، و (مريم النبية) أخت هارون، و أيضاً هناك خادمة مثل (فيبي).

فالمسيحية تنظر إلى المرأة نظرة احترام وتقدير ومساواة مع الرجل، والزواج سرّ مقدس يربط الاثنين معاً.

حضارة بلاد الرافدين أعطت المرأة قيمة وأهمية كبيرة، مما يدل على وعي المجتمع بدور المرأة، وكان للمرأة وزن كبير في الحياة الاقتصادية والسياسية.

إنّ اقدم الشرائع وأولها هي شريعة أورنمو التي سبقت قانون حمورابي بثلاثة قرون ووضعها مؤسس آخر دولة سومرية، وموادها ٣١ مادة لم يصلنا إلا القليل منها حيث كان الجزء الأكبر من الألواح التي كان مكتوب عليها متآكل ومسوح، ومن بنود هذه الشريعة التي تخص المرأة:

المادة ٥ تتعلق بحالة الاغتصاب: "إذا أزال رجل بكارة أمة رجل آخر بالإكراه، عليه أن يدفع كغرامة خمسة شيقلات من الفضة"

المادة ٧:"إذا مات رجل، فبعد موته تنتقل نصف أملاكه إلى زوجته، والنصف الآخر إلى أولاده"

قانون آشنونا أو قانون بلالاما عام (١٩٣٠) ق.م، وهو متقدم على قانون حمورابي بنصف قرن، وفيها واحد وستين مادّة.

المادة ٦٠ تضمن حماية الزوجة المطلقة وأطفالها الى درجة أن البيت يصبح ملكها إذا تزوج مطلقها، فالرجل هو من يفقد حقه بالبيت.

قانون لبث عشتار، وينسب إلى الملك لبث عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤) وهو خامس ملوك سلالة إيسن، والقانون كان باللغة السومرية.

فمن مواده تم الإشارة الى أنّه من حق الفتاة أن تبدي رأيها في الزواج رفضاً، أو قبولاً، ولم تكن موافقة الأب هي الضرورية، بل يشترط موافقة والدتها.

شريعة حمورابي: هي آخر ما وصلنا إليه، وهي فخر للحضارة البابلية والآشورية، وسجلها الملك حمورابي؛ سادس ملوك بابل على مسلّة كبيرة أسطوانية، وتحوي ٢٨٢ مادة، والعديد من الملاحق.

تحدثت الدكتورة: ماري سركو عن مكانة المرأة في قانون حمورابي، واستمرار بعض العادات حتى يومنا هذا.

حيث أنّ نظام العائلة في ذلك الوقت كان أبويّاً، والرجل سيّد الأسرة، بيده حقّ عقد الزواج أو إلغائه، وله حق الزواج بأكثر من امرأة، ويرجع نسب الأولاد إليه، ويكون للأولاد الذكور الغلبة في حقوق الإرث، أما الطرف الآخر في عملية الزواج (المرأة) فلم يكن بيدها الخيار في الزواج أو فسخه، ولم يكن لها حق السيادة على شيء حتى على نفسها، فالسيادة تنتقل من أبيها أو أخيها قبل الزواج الى الزوج بعده، وليس لها نصيب من الإرث إلا مهرها، ومع هذا لم تكن حقوقها معدومة كلّيّاً، حيث سمح لبعضهن اللواتي ينحدرن من الطبقات العليا بممارسة التجارة، وعقد اتفاقيات البيع والشراء وكشاهدة في بعض العقود الخاصة وخاصة عندما يكون أحد طرفي العقد امرأة.

وقد عرف عن بعضهن أنّهنّ تقلّدنَ بعض المناصب العامة كحاكمة وكاتبة.

ألقى الدكتور خزعل الماجدي: الأستاذ الجامعي العراقي والشاعر والكاتب المسرحي والباحث في

”عندما كان أديسون صغيراً قيل إنّه لم يستكمل تعليمه الحكومي؛ فخلال دراسته أرسله معلمه إلى أمه وبيده خطابٌ يقول فيه: «من الأفضل لابنك أن يمكث في البيت لأنه غبي»، فقالت أمّه حينها: ابني ليس غبياً بل هم الأغبياء، وإذا أنكر كلّ الناس ذكاءك يا صغيري، فيكفيك أنّني أؤمن بك، أنت طفلي الذكي، بل أنت أذكى طفل في العالم“

علم تاريخ الأديان والحضارات القديمة محاضرة تحت عنوان ”نساء عظيمات من وادي الرافدين. الأنوثة العراقية في سطوع مجدها“ تناول خلالها نماذج عن نساء صنعن جزءاً هاماً من تاريخ حضارات وادي الرافدين ومنها الملكة سمير أميس.

الملكة سمير أميس هي ملكة آشورية، وتعرف كذلك بالأسماء سميرا ميده وسميرا ميدا.. وا ميديا أو أوميت؛ سيدة الجنائن المعلقة، وهي زوجة نبوخذ نصر الثاني، التي أتت بفكرة الجنائن المعلّقة، لأنّها من ميديا، وكانت تشتاق إلى بلادها ذات الجبال الخضراء، وقد زرعت الأشجار والأزهار فوق أقواس حجرية ارتفاعها ٢٣ م فوق سطوح الأراضي المجاورة للقصر، وكانت تسقى من مياه نهر الفرات بواسطة نظام ميكانيكي معقد، وبذلك تكون الحدائق ليست معلقة فعلياً.

لكن المفاجأة التي كشفها الدكتور الماجدي حول الجنائن المعلقة هي أنّ هذه الجنائن التي تعد إحدى عجائب الدنيا السبع لم تكن في بابل، وقال إنّ باحثة تدعى ستيفاني دالي كشفت أن هذه الجنائن تقع في مجمع قصر سنحاريب قرب نينوى.

ومن جهة أخرى ظهر الحجاب في العصر الآشوري لتمييز المرأة الحرة المتزوجة التي يجب أن تضع غطاء الرأس والمرأة التابعة وغير المتزوجة التي يجب أن تكشف رأسها.

لم يكن يحمل الحجاب دلالات دينية كما في الديانات التوحيدية اللاحقة، ولم يميّز هذا القانون

بين المرأة الحرة، والأمّة وحسب، وإنّما بين المتزوجة وغير المتزوجة.

لنتطرق بشكل سريع إلى مكانة المرأة الإغريقية.

قال الفيلسوف الإغريقي سقراط: إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة في العالم، إنّ المرأة تشبه شجرة مسمومة، حيث يكون ظاهرها جميل، لكن عندما تأكل منها العصافير تموت حالاً.

ومن هنا يتبين لنا أنّ المرأة الإغريقية كانت مسلوبة الإرادة والحقوق والواجبات، فما كان يسمح لها بمغادرة البيت، بل كانت تقوم بكلّ الأعمال داخل البيت من طبخ وغسيل وتربية أولاد بانتظار وصول الرجل؛ صاحب القوة والكلمة – من وجهة نظري حالنا، أو حال أغلب النساء حالياً – حتى أنّها كانت محرومة من الثقافة العامة، ومن الوجهة القانونية فقد كانت محرومة من الإرث وكافة حقوقها، فلا يجوز لها أن تحصل على الطلاق، بل تظلّ خادمة مطيعة لسيدها.

لم يكن يسمح للمرأة الإغريقية بممارسة الرياضة، ولايسمح لها بمشاهدة الرجال في المسابقات في الألعاب الأولمبية، وعقاب من خالف هذه العادة هو الموت.

(فيرنس تحدت الموت حيث انها كانت تحب ولدها (بيسيروروس) حبّاً كبيراً حيث أنّها تنكرت في زي الرجال للدخول إلى قاعة المنافسة بالملاكمة،

وعندما فاز ابنها لم تستطع أن تكتم صيحة الفرح، وعندما اكتشفوا حقيقة أمرها حملوها إلى حافة الهاوية لقذفها طبقاً للعادات، لكن العقلاء تداركوا الأمر بعد أن تبين أنّها ابنة بطل وزوجة بطل وأم بطل أولمبي، ومن تلك اللحظة نظّم مهرجان خاص للألعاب الأولمبية للنساء اسمه هيرتا.

لم يكن رجال الإغريق يقابلون نساء أصدقائهم أبداً، وإذا قابلوا امرأة في حفلة ما، فهي حتماً امرأة تحترف مهنة الترفيه، وتسمى hetaera، فلم يكنّ مجرد مومسات، بل يجدن الرقص والغناء، ولم يكنّ محترمات بدا على عكس السيدة الإغريقية المحترمة من عائلة كريمة التي لم يكن لها نشاط خارج البيت.

بالنسبة لأطفال الإغريق كانت تربيهم أمهاتهم، أمّا بالنسبة للصبية فقد كانوا يذهبون إلى المدرسة إذا أرادوا، أما البنات فمن الممنوع الذهاب إلى المدرسة.

لنعد قليلا إلى سقراط، يا ترى كيف أصبح فيلسوفا؟!

زانتيب زوجة سقراط وهي أشهر زوجة في التاريخ القديم من حيث النكد.. أشهر زوجة نكدية.. نكدها هو الذي جعل سقراط فيلسوفاً.

يقول أفلاطون – كما نقل الأستاذ سمير عطا الله- إنّ تلامذة سقراط كانوا يذهبون إليه كلّ يوم في سجنه. وقبل يوم إصدار الحكم "ذلك اليوم ذهبنا مبكرين، دخلنا، وإذ بزوجته زانتيب وابنهما الصغير، وقد كانت تبكي وتردد ذلك النوع من الكلام الذي هو عادة النساء: آه يا سقراط، هذه آخر مرة تتحدث إلى أصدقائك، ويتحدّثون إليك! تطلّع سقراط إلى كريتو، وقال: يا كريتو، ليُعدها أحدكم الى المنزل، فقام بعض رجال كريتو بشدها بعيداً، وهي تنتحب وتدق صدرها.

من خلال الدراسات والحوارات التي نقلها تلاميذه، منهم أفلاطون بأنّها كانت سليطة اللسان، تعانده وتجادله كثيراً أمام الناس، وتلومه على وضعهم المادي السيء، وكان سقراط لا يأبه بتصرفات زوجته وغضبها، ويقابلها بالتبسم والهدوء، فقد كان لها منها ثلاثة أبناء تقوم على تربيتهم، ورعاية بيتها، ولم تكن تفكر إلا في عيشها هي وأطفالها، وتجهل القيمة الفكرية والقدرات الأدبية التي يتمتع بها زوجها سقراط.

إذاً فلولا نكد كزانتيب لما أصبح سقراط فيلسوفا.

لقد كانت المرأة في بلاد فارس كما أكّدت ماري بويس – باحثة بريطانية في اللغات الإيرانية متخصصة في الزرادشتية – كانت المرأة تتمتع بالاحترام، والمكانة العالية لقادة زرادشت في العصر الحديث، لاسيما في إيران التي سيطر عليها الإسلام، مؤشّر الفجوة لتحقيق المساواة بين الجنسين في دينهم امر بالغ الأهمية، كما أنّه يتناقض مع الثقافة الإسلامية بعض الشيء.

وأمّا في العصر الحديث فإنّ وضع المرأة في كل بلد تابع لسياسة هذا البلد أكثر من تبعيته لدين أهل هذا البلد بفارق كبير.

ففي البلدان الديمقراطية الغربية نجد أنّ المرأة لها الحرية الكاملة فهي متساويةٌ تماماً مع الرجل في كافة مجالات الحياة بالإضافة الى أنّها تحصل على الدعم والحماية الاجتماعية من المجتمع، وفي الثامنة عشرة يحق للأنثى الانفصال عن أهلها، تماما مثل الشاب، ويحق للمرأة العمل لإعالة نفسها وعائلتها، وتحصل على كل المؤهلات من دراسة وتطوير للوصول إلى نفس مستويات الإبداع عند الرجل.

لكن لا زالت هناك إحصائيات مثيرة عن العنف ضد المرأة في الغرب، ففي فرنسا وحدها تموت أكثر من ٣ نساء شهرياً نتيجة لهذا العنف.

أما في البلدان العربية فبالرغم من أن هناك الكثير من البلدان التي تتظاهر بأنّها علمانية، أو أنّها مدافعة عن حقوق المرأة، فهذا لا يعني أنّها تطبق هذا الشيء أبداً.. للأسف لا زال وضع المرأة مماثلاً لوضعها خلال العصور السابقة، حيث أنّ الإحصائيات تشير إلى أنّ معدّلات العنف ضد

المرأة في البلدان مثل التشريع الإسلامي، مثل السعودية، لا تقل عن مستوياتها.

سأكتفي بهذا القدر من الحديث عن مكانة المرأة ودورها في العصور التاريخية، فالحديث عنها وعن النجاحات التي حققتها تارة، وعن القمع الذي كانت تتعرض له تارة أخرى لا ينتهي.

في النهاية يمكنني القول: أليست من أنجبتنا لهذه الحياة هي امرأة؟! أليست من ربتنا، وزرعت فينا القيم والأخلاق هي امرأة؟!

عندما كان توماس أديسون – مخترع المصباح – صغيراً قيل إنّه لم يستكمل تعليمه الحكومي لأنّه خلال دراسته أرسله معلمه الى أمه وبيده خطابٌ يقول فيه: من الأفضل لابنك أن يمكث في البيت لأنه غبي، فقالت أمّه حينها: ابني ليس غبياً بل أنتم الأغبياء، وقالت: إذا أنكر كلّ الناس ذكاءك يا صغيري، فيكفيك أنّني أؤمن بك، أنت طفلي الذكي، دعهم وما يقولون، واسمع ما أقول: أنت أذكى طفل في العالم!

من الإيمان والتشجيع جعلت أديسون مخترعاً عظيماً، فقد كان التشجيع من أمه؛ تلك الأنثى الجبارة.

فإذا كان وراء كل رجل عظيم امرأة، فمن يقف وراء المرأة العظيمة؟!

وراء كل امرأة عظيمة هي نفسها، أو (لا أحد) وإذا كان ولابد أن يقف رجل وراءها فهو حتماً والدها (أتكلم بالأغلبية وليس بالعمومية)

أيها الذكر – فليس كلّ ذكر برجل -أليست التي أنجبتك وعلمتك وجعلت منك إنساناً عظيماً هي أمّك.. (امرأة)؟!

أليست التي كانت بجانبك في نجاحاتك، وفي ضعفك قبل قوتك، وتحمّلك مزاجك الذي يتغير في الأسبوع على الأقل عشر مرات هي زوجتك.. (امرأة)؟!

أقول للذكور النرجسيين الذين يعتقدون أنّهم المجتمع، وبأنّ المرأة لا تستطيع فعل شيء، أو بأنّها كائن فاشل: يكفيك غروراً وغباء.. وإن كنت تعتقد أنّ النساء بنصف عقل. أو بأنّ الأنثى فاشلة وغبية. لا أبداً.. إنّها تتظاهر بالغباء أمامك؛ لكيلا تفقدك رجولتك أمام نفسك.

ومن ناحية أخرى هناك الكثير من الرجال الذين وقفوا وراء زوجاتهم.. بناتهم.. أخواتهم.. وكانوا سنداً لهم..

فأنا أقدّر، وأشكر كلّ رجل آمن بنا وبقدراتنا.

وكل رجل لم يهمّش أنثاه.

وكلّ رجل شجع أنثاه في اللحظات المستحيلة، وساعدها، وكان صديقاً لها في تحقيق كلّ أحلامها.

نمــور التــاميـــل

مصطفى شيخ مسلم

المقدمة

كانت "الأقليات" بصرف النظر عن كونها أقليات دينية، عرقية، مذهبية، أو قومية عرضة للانتهاكات عبر التاريخ، وعلى امتداد الجغرافيا، وعلى وجه التحديد في القارة الآسيوية، حيث عُرفت بأنها مهد الأقليات بحسب الباحثين في شأن الأقليات، مما جعل تلكم القارة أرضاً خصبة لنشوء حركاتٍ سياسية، وأخرى مسلحة باختلاف الأجندة والتوجه الأيديولوجي للمطالبة بحقوق الأقليات، وهذا ما دفع لتشكيل الحركة السيرلانكية الانفصالية، والتي كانت تعرف فيما سبق باسم «نمور التاميل» وإعلانها فيما بعد الحرب مع الحكومة السريلانكية بغية الاستقلال عنها.

النشأة والتأسيس

ترجع أصول الحرب الأهلية السريلانكية إلى الحقد السياسي المستمر بين «الأغلبية» السنهالية، و«الأقلية» التاميلية. وتعود جذور النزاع الحديث إلى الحكم الاستعماري البريطاني، عندما كانت تعرف البلاد باسم سيلان. ظهر في البداية القليل من التوتر بين أكبر مجموعتين عرقيتين في سريلانكا، السنهاليين والتاميليين، عندما تم تعيين بونامبالام أروناشالام، وهو تاميلي، ممثلاً للسنهاليين بالإضافة إلى التاميليين في المجلس التشريعي الوطني. في ١٩١٩، اتّحدت الأغلبية السنهالية والمنظمات السياسية التاميلية لتشكيل المؤتمر الوطني السيلاني، تحت قيادة أروناشالام، للضغط على الحكومة الاستعمارية للحصول على مزيد من الإصلاحات الدستورية. ومع ذلك، شجّع الحاكم البريطاني وليام مانينغ مفهوم «التمثيل الطائفي»، وأنشأ مقعد بلدة كولومبو في ١٩٢٠، والذي سبب صراعاً بين التاميل والسنهاليين.

ومن ١٩٤٨ إلى ٢٠٠٢ كانت هناك ٣٨ مجموعة فدائية تقريباً قاتلت مرة واحدة على الأقل لاستقلال تاميل إيلام، من ضمن هذه المجموعات: نمور تحرير تاميل إيلام، ومنظمة تحرير تاميل إيلام، وجبهة التحرير الثورية لشعب إيلام، ومنظمة تحرير شعب تاميل إيلام، ومنظمة إيلام الثورية للطلاب، وجيش تاميل إيلام، وجيش حرية الإنكاي التاميلي، والتحرير الاجتماعي الثوري الاشتراكي.

حركة **"نمور التاميل"** أو **"نمور تحرير تاميل إيلام"** لم تجمها كحركةٍ قومية تسعى إلى استقلال شعب التاميل عن سريلانكا، وإنشاء دولة للتاميل بالسواحل الشمالية والشرقية لجزيرة سريلانكا، حيث تأسست الحركة عام ١٩٧٦ نتيجة سعي منهم إلى الاعتراف بحقوق أقلية التاميل الهندوسية، والتي تشكل نسبة لا يستهان بها قُدرت بـ ١٨٪ من سكان سريلانكا الذين تهيمن عليهم الأغلبية السنهالية الهندوسية حيث تبلغ نسبتهم ٧٥٪، فيما يرجع البعض الآخر تاريخ تأسيس الحركة لعام ١٩٧٢، أي عام اندلاع الاشتباكات العسكرية.

يرأس الحركة منذ عام ٢٠٠٥ فلوبيلاي برابهاكران والذي كان بدوره مِن أوائل مَن قادوا العمل المسلح ضد حكومة سريلانكا وقتذاك، حيث عرف توجه الحركة الأيدلوجي بالتوجه اليساري الماركسي اللينيني.

تصاعد النزاع بين التاميل والقوات الحكومية ليشهد ذروته مطلع ثمانينيات القرن الماضي، في واحدة من أطول الحروب الاهلية في آسيا، ليستمر فيما بعد مسلسل العنف على الرغم من نشر الجانب الهندي قواتٍ لحفظ السلام، لتعود تلك القوات إلى بلادها مع اشتعال القتال مجددا بين الجانبين.

وتتهم حركة التاميل نيودلهي بالتواطؤ مع سريلانكا والتحالف الخفي معها في سبيل وأد حركة نمور التاميل، وذلك خوفاً من انتقال عدوى الانفصال التاميلي إلى ولاية تاميل نادو في جنوب الهند.

مسار الحركة

توصلت الحركة إلى توقيع هدنة مع الحكومة السريلانكية بوساطة نرويجية في ٢٢ فبراير/شباط سنة ٢٠٠٢، وبدء مفاوضات للسلام والتوافق على إقامة نظام اتحادي في سريلانكا، عقب تنازل النمور عن مطلب الانفصال، وفي آذار ٢٠٠٢ أعيد فتح الجسر الذي يربط جزيرة جافنا معقل الحركة بباقي سريلانكا بعد ١٢ سنة من إغلاقه نتيجة العمليات العسكرية بين الطرفين، كما ورفعت الحكومة الحظر عن نمور التاميل في أيلول من نفس السنة، وفي ٢٠٠٣ تفاوض الطرفان في برلين، لتوقف حركة المفاوضات مع الحكومة متّهمة إياها بعدم الجدية في نيسان من العام ٢٠٠٣، وفي تشرين الثاني من نفس العام أقالت الرئيسة كومارا تونغا ثلاثة وزراء من حكومتها وعلقت نشاط البرلمان بسبب التنازلات التي قدمها رئيس وزرائها للتاميل، لينشق عن الحركة قائدها العسكري فنتاغمورثي مورالثران المشهور باسم كارونا عام ٢٠٠٤ حيث انضم إليه ستة آلاف مسلح، لتتهم حركة نمور التاميل الجيش السريلانكي بأنه وراء هذا الانشقاق.

تربعت نمور التاميل على مساحة ١٥٠٠٠ كلم مربع من الأراضي، لكن سيطرتها تقتصر اليوم على جيب للمقاومة في شمال البلاد.

بعد اغتيال الحركة لوزير خارجية سريلانكا كاديرجامار في ٢٠٠٥، والذي تزامن مع انتخاب "ماهيندا رجاباكسي" رئيسا للبلاد في ذلك العام، ضاق الخناق عليها وارتفعت وتيرة معارضة دول غربية لوجودها بالتزامن مع توقف الحوار، وإصرار الرئيس السريلانكي على رفض كافة أشكال الحوار مع الحركة، وإعطاء الجيش الضوء الأخضر لتصفية الحركة كجزء من الحرب على الإرهاب، واستغلّ في ذلك انشقاقها عام ٢٠٠٤.

صنفت وقتذاك أكثر من ٣٠ دولة حركة نمور التأميل ضمن الحركات الإرهابية، وكان على رأسها دول الاتحاد الأوروبي والهند، والولايات المتحدة التي أدرجت في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١ حركة نمور التاميل ضمن قائمة المنظمات الإرهابية في العالم.

في ٢ يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٨ انسحبت الحكومة السريلانكية من اتفاق وقف إطلاق النار المبرم مع نمور التاميل، واستولت على عدد من المناطق واستعادة السيطرة عليها، أبرزها سقوط مدينة موللايتوفو في فبراير/شباط ٢٠٠٩، وهي أهم معاقل الحركة بشمال شرقي البلاد منذ استيلاء الانفصاليين عليها عام ١٩٩٦.

أعلن في مايو/أيار ٢٠٠٩ مقتل زعيم نمور التاميل في سريلانكا فلوبيلاي برابهاكران على يد الجيش رفقة زعيم الجناح السياسي للحركة بي ناديسان، واعترف نمور التاميل في العام المذكور بهزيمتهم أمام الحكومة السريلانكية في حرب تعدّ الأطول في القارة الآسيوية.

العمليات التي تم تبنيها رسمياً من قبل نمور التاميل

لعل من بين أبرز العمليات المنسوبة الى نمور التاميل، هي عملية اغتيال حاكم منطقة جافنا سنة ١٩٧٥ على يد مؤسس الحركة **فلوبيلاي برابهاكران**، إضافة إلى اغتيال رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي في مدينة مدراس سنة ١٩٩١، إضافة إلى اغتيال رئيس سريلانكا بريماداسا سنة ١٩٩٣. والهجوم على مطار كولومبو سنة ٢٠٠١.

حـلّ الحركـــة

قررت الحركة وضع السلاح، حيث قال سيلفاراسا باثماناثان، رئيس العلاقات الدولية لنمور التاميل في بيان له «**لقد وصلت هذه المعركة إلى نهايتها المريرة.. فشعبنا هو الذي يموت الآن بسبب القنابل والقذائف والمرض والجوع ولم يعد لدينا سوى خيار وحيد، هو إسكات صوت السلاح، وذلك من أجل حرمان العدو من آخر حجة يمكن له استخدامها من أجل قتل أبناء شعبنا**».

وما أن حُسمت الحرب مابين حركة نمور التاميل والجيش بهزيمة منظمة لنمور التاميل عام ٢٠٠٩ على أيدي الجيش السريلانكي، وانتهاء مشروع إقامة دولة مستقلة للأقلية الهندوسية المتمركزة في شمالي الجزيرة وشرقيها، حتى فتح المجال لأزمات سياسية واجتماعية قد لا تقل خطورة عن الحرب، وثار جدال واسع بشأن ملفات كثيرة خلفتها موجة التشدد البوذي التي أعقبتها، وتبلورت على شكل حلف سياسي بين المتشددين البوذيين ومعسكر الرئيس السابق ماهيندرا راجابانغسا، كانت حلقة الوصل فيها الفساد والمحسوبية والانتقام من الأقليات، علاوة على أن الانتصار مكّن الرئيس السابق راجابانغسا من تعيين نحو ثلاثمئة من أقربائه وذويه في مناصب عليا وحساسة، فقد أطلق أيدي حلفائه المتشددين البوذيين لاستهداف الأقلية المسلمة التي تصل نسبتها إلى ١٠٪ من مجموع السكان.

تعد سيريلانكا دولة ذات تعددية دينية وعرقية يعيش فيها الجميع، لكنّ البوذيين هم الأغلبية فيها، كما أنّ أولى النصوص المعروفة لهذه الديانة كتبت في سريلانكا. ويشكل البوذيون ٧٠٪ من السكان، إلى جانب ١٢٪ من الهندوس و١٠٪ من المسلمين و٧٪ من المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت. ويبلغ عدد سكان الأقلية الكاثوليكية نحو ١,٢ مليون شخص من إجمالي عدد السكان الإجمالي لسريلانكا، البالغ ٢١ مليون نسمة، على المستوى العرقي، يشكل السنهاليون غالبية السكان ٧٥٪ في ٢٠١٢، إضافة إلى التاميل ١١٪، الذين يتركزون في شمال وشرق الجزيرة، تتوزع الطوائف الأخرى بين العرب التاميل والهنود والماليزيين والبورغر (أحفاد المستوطنين الأوروبيين).

المراجـــع

- ويكيبيديا «نمور التاميل».
- الجزيرة نت « من هم نمور التاميل».

في «مؤتمر القاهرة 1921» بعد قرن من الزمان؛

الإقليم يعيش أحلك أزماته... وتحولات عالمية مركزها الشرق الأوسط

ولاء أبو ستيت

جمهورية مصر العربية

تمر القرون والقرون، وتبقى مصر بعمقها الاستراتيجي ووجودها ركيزةً استراتيجية مهمة ومؤثرة في الشرق الأوسط، ورغم ما تقابله مصر من أزمات ومؤامرات وصراعات إلى أنها سرعان ما تستجمع قواها وتعود لممارسة دورها الذي لا يستقيم معه أي انكفاء على الذات، حتى في ظلّ سنوات الاحتلال والتبعية للمحتل، تبقى هي كلمة السر التي معها يمكن تغيير ملامح المشهد لصالح المنطقة، ولتقضي على سياسات المؤامرات التي تُحاك ضدها وضد دول المحيط الإقليمي والتي تمثل عمقا استراتيجياً لا يمكن أن تغفله أو تتركه ليواجه مصيره المحتوم.

من هذا المنطلق وبعد مرور ١٠٠ عام تعود للأذهان ذكرى مؤتمر القاهرة ١٩٢١، الذي عقده وزير المستعمرات البريطاني آنذاك وينستون تشرشل، تلك الشخصية الأسطورية سياسيا وإبداعيًا، وشارك فيه أربعون من ممثّلي المستعمرات البريطانية في الشرق، وكان هدفهم تحديد خطوات تقسيم المناطق التابعة للانتداب البريطاني القابعة تحت الاحتلال، بدعوة إدارة شؤون المناطق التابعة للانتداب البريطاني في المنطقة.

والمهم الإشارة إليه أنّ أعمال وكتابات عدة تناولت هذا المؤتمر ومخرجاته، وتأثيراته على المنطقة، لكنّ المهم الإشارة إليه أن في هذا العام وفي القاهرة تزامنًا مع الذكرى المئوية للمؤتمر صدر كتابان يتناولان الموضوع من رؤى وزوايا مختلفة، رغم أن كلَيهما يتّخذ ملمحًا كرديّا في التعامل مع المؤتمر، فيتتبع أثر الموقف من القضية الكردية في المؤتمر، الذي كان من المأمول أن يُعطي الكرد حكما ذاتيًا لولا الاختلافات حول آثار ذلك داخل البيت البريطاني، والعملان هما: «القاهرة بعد قرن من مؤتمر الأربعين حرامي» للكاتب الكردي المقيم بالقاهرة محمد أرسلان علي، والثاني: «القضية الكردية في مؤتمر القاهرة، ١٩٢١.. الإشكالية والأبعاد» لممثّل مجلس سوريا الديمقراطيّة السابق لدى مصر سيهانوك ديبو، وقد سبق العملين أيضًا كتاب الدكتور عبد العزيز المفتي مؤتمرَ القاهرة، والقضية الكردية الصادر في ٢٠١٥ في العاصمة الأردنية عمان.

وقد شهدت الكتابات المصرية إلى حد بعيد تجاهلاً لهذا المؤتمر الذي جاء في فترة في غاية الأهمية من تاريخ النضال المصري، فبعد ثورة ١٩١٩، والنضال الرافض للجنة ملنر كان المصريون يتعاملون مع كلّ ما يأتي من قبل الاحتلال البريطاني بكثير من الريبة والشك، حتى أن اعتراضات واسعة خرجت ترفض عقد المؤتمر الذي تصوّرَ الساسة المصريون وقتها أن هكذا مؤتمر قد يبحث انتهاكاً جديداً لحقوق الشعب المصري، وبالتالي سيكون مرفوضاً شعبياً، إلّا أنّ تشرشل أصر على التأكيد مراراً في أحاديث له نشرتها بعض الصحف المصرية آنذاك أنّ المؤتمر لن يبحث أيّ شيء يتعلّق بمصر، وفي المقابل كان جدول الأعمال حافلاً بالعديد من القضايا والموضوعات الخاصة بالمناطق العربية الواقعة تحت الانتداب البريطاني، والتي ستعمل بريطانيا على بحث ما إذا كانت تترك لهم الباب لحكم ذاتي أو ماذا.

مخاض عسير لم يبدأ بـ ١٩٢١ الذي مثّل عام الذروة

شهد عام ١٩٢١ مخاضًا عسيرًا لجانب من مشروع سيظل على مدار مئة عام شاهدًا على السياسة الغربية تجاه الشرق الأوسط، والتي استطاعت وضعها في قوالب لا تزال قائمة ولو في صورها المكانية رغم مرور قرن من الزمان.. مشروع الشرق الأوسط الذي سعت كل من بريطانيا وفرنسا إلى العمل على إخراجه للنور بالشكل الذي لا يُضر بمصالح تلك الدول الإمبريالية، وسياستها الاستعمارية الراغبة في مزيد من السيطرة، واستغلال كافة المتغيرات التي تشهدها المنطقة.

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى، التي خطّت نهاية الدولة العثمانية، أحد أهم الأسباب التي ساعدت في توسع السيطرة البريطانية الفرنسية في الشرق، فقد كانت هاتان الدولتان الكبريان إضافة إلى روسيا القيصرية وقبل الثورة البلشفية التي غيرت سياسات كثيرة أخرجت بها روسيا - وإن إلى حين- من مشهد التقسيم الذي سيحمله اتفاق سايكس وبيكو، وذلك بُعيد بدء الحرب في ١٩١٤، فبعد عام من بدء الحرب كان القرار البريطاني بتفكيك أوصال الدولة العثمانية التي خرجت من الحرب مهزومة، وكانت الترجيحات السياسية والعسكرية تؤكد سيناريو الهزيمة بشدة.

وبدأت اجتماعات التفاهمات بين الحلفاء البريطانيين والفرنسيين والروس القياصرة، عبر اجتماعات سرية[1] بين البريطاني مارك سايكس،

١ - بسام عبد القادر النعماني، مائة عام على اتفاقية

والفرنسي فرانسوا جورج بيكو، ووزير الخارجية الروسي سيرجي سازونوف، وكان المسمّى الذي اتفق عليه وقتها للاتفاق هو «اتفاقية آسيا الصغرى» قبل أن يتمّ فضحها، ويشيع عليها مسمّى اتّفاقية سايكس – بيكو بعد انسحاب روسيا من المفاوضات بسبب الثورة البلشفية، وكشفها لجمل الاتفاقات السرية الأربعة التي تشكل نواة الاتفاقية وتشمل[1]: أوّلاً: اتفاقية القسطنطينيّة، ثانياً: اتفاقية لندن، التي انضمّت لها إيطاليا، ليتمّ توقيع ما سميت بمذكرة لندن، ثالثاً: اتفاقية سايكس بيكو، رابعاً: اتفاقية سانت جان دي موريان ١٩١٧.

وفي عام ١٩١٩ وخلال أعمال مؤتمر السلام في باريس، والذي شهد أحداثًا مهمّة، وسعى كل طرف، وممثّلو كلّ دولة من التي تقبع تحت الاحتلال أو الانتداب حقها في الاستقلال، لكن في هذه الفترة يُعلن وفاه السير مارك سايكس، أحد عرّابي الاتفاقية التي قسمت المنطقة بالوباء الذي ألمّ بالبشرية، وظهر في ١٩١٨ وباء الانفلونزا الإسبانية، بملمح يتشابه مع الوضع الراهن بعد قرن من الزمان مع انتشار وباء كورونا، ومن ما دار في مؤتمر باريس للسلام إلى معاهدة كانت في غاية من الأهمية، وساهمت فرنسا في خروجها بشكل واضح، لتكون من أهم المعاهدات في تلك الفترة، على الرغم من أنّها لن يكون لها عمر حقيقي، وهي معاهدة سيفر (١٠ أغسطس ١٩٢٠)

والتي أقر مؤتمر سان ريمو مشروعها ونصّ على: إعطاء تراقيا والجزر التركية في بحر إيجة لليونان والاعتراف بسوريا والعراق كمناطق خاضعة للانتداب واستقلال شبة الجزيرة العربية وأرمينيا إضافة إلى اعتبار مضائق البسفور والدردنيل مناطق مجردة من السلاح تحت إدارة عصبة الأمم، وحصول كردستان على الاستقلال والسماح لولاية الموصل بالانضمام لها.

جدول أعمال مؤتمر القاهرة وأهدافه

وجاء جدول أعمال مؤتمر القاهرة برئاسة تشرشل، والذي أقيم في فندق سميراميس (المبنى القديم وليس الموجود حاليًا على ضفاف نهر النيل)، ليضم مسائل خاصة بالعراق الجديد، والذي تم في المؤتمر إقرار تسمية العراق بدلاً من ميزوبوتاميا، وفلسطين وشرق الأردن، الجزيرة العربية، عدن (اليمن) والصومال، وكان هناك تصورٌ لمنح حكم عدن والصومال ضمن إدارة واحدة[2]، إضافة إلى المسألة الكردية التي كان لدى تشرشل تصوّر خاص بشأنها، إلّا أنّ الضغوط من شخصيات في الوفد المشارك القادم من العراق خاصه بيرسي كوكس وميس بيل كانا رافضَين للمسألة، وسعَوا إلى تفخيخ أي تحرك من شأنه فيما بعد، بينما كان تشرشل مقتنعاً بضرورة وجود حاجز كردي بين العرب والترك، وحصول الكرد بذلك على حكم ذاتي.

وكان هدف تشرشل الرئيسي من إقامة هذا المؤتمر لتنفيذ سياسته التي كانت تتركز في تحويل الأعباء المالية في إدارة دول الشرق إلى قادة من هذه الدول بحيث يكون لهم تبعية كاملة للمملكة البريطانية، وقد بدت هذه السياسة واضحة في رسالة لتشرشل التي وجّهها إلى رئيس أحد الجمعيات البارزة في بريطانيا آنذاك، وكان الهجوم عليه واسعا ومتصاعدًا، وقال فيها: «نرجو أن نستطيع بواسطة حكومة عربية تؤيدها قوة حربية معتدلة للقيام بواجباتنا دون أن ننتقل كامل الخزانة بنفقات لا مبرر لها. إننا لا نستطيع بلا ريب أن ننفق مبالغ طائلة في العراق باستمرار ولا مندوحة من إنقاص قواتنا هناك نقصًا كبيرًا.

سايكس – بيكو: قراءة في الخرائط، مركز جامعة الدول العربية بتونس، ٢٠١٧.

٢-سيهانوك ديبو، القضية الكردية في مؤتمر القاهرة ١٩٢١.. الإشكالية والأبعاد، نفرتيتي للنشر، القاهرة، ٢٠٢١.

٣- محمد أرسلان علي، القاهرة بعد قرن من مؤتمر الأربعين حرامي، نفرتيتي للنشر، القاهرة، ٢٠٢١، ص١٣٩

وتُقدّر نفقات القوة التي تبقى في العراق بعد إنقاصها بما يتراوح ما بين عشرة ملايين من الجنيهات، وأحد عشر مليوناً، وهذا المبلغ يزيد على ما يخول لنا إنفاقه، فإن لم يوضع مشروع أقل من نفقات المشروع الحالي وينفّذ، فسيتعيّن علينا الانسحاب من العراق وفي هذا إصرار لا يستهان به، ولما كنا سننشئ حكومة عربية فيما بعد، فلا مندوحة في المسألة العربية (.....) من إنقاص النفقات"[٤].

أي أن ما حدث بالأساس كان هدفه تخفيف النفقات البريطانية، وتحقيق رؤية جديدة مختلفة لبريطانيا لتستفيد من مستعمراتها، وتحقق تحرّراً غير كامل للشعوب تتخلّص به من حراك الشعوب من جانب، وتتوقف عن بذل المزيد من الأموال والجند، وفي الوقت نفسه تحقق مكاسب تمكّنها من التغطية على خسائرها الماديّة التي تحققت في الحرب العالمية الأولى.

القضية الكردية في المؤتمر

كان لدى الانجليز تصوّر بضرورة إيجاد حل للمسألة الكردية، لكنّ كلّ ما كان يدور الحديث عنه هو المنطقة الكردية المحددة الآن في شمال العراق، وأمّا غيرها فكان خارج التصرف البريطاني، وعليه فكلّ ما كان يجري التفكير حوله يدور في إقليم كردستان العراق بجوانب من جغرافيته الحالية، ويقول الدكتور عبد العزيز المفتي صاحب كتاب القضية الكردية في مؤتمر القاهرة ١٩٢١[٥]: **طرح الإنجليز أفكارًا عدّة حول مصير المنطقة الكردية، وكان من بين المطروح:**

١- يشكل لواءً كرديًا في السليمانية على غرار لواء الموصل، ويكون تحت إدارة بريطانية عمليًا، ويفضل أن يكون أغلب موظفيه من الأكراد.

٢- تعتبر السليمانية متصرفية، ويحكمها مجلس متصرفية من الأكراد المنتخبين والمختارين.

٣- اعتبر اعتراف الحكومة البريطانية بوضع الأكراد حينذاك بمثابة تبدلٍ ملحوظٍ في سياسة الإنكليز.

وقد نشأ هذا بسبب عوامل منها ما يلي:

أ. مطالبة تركيا بولاية الموصل واعتراضها على معاهدة سيفر ١٩٢٠م.

ب. وصول مبعوث من مصطفى كمال أتاتورك إلى راوندوز واتصاله مع رؤساء العشائر الكردية، لغرض كسبهم إلى جانب تركيا وتحريضهم ضد الإنكليز والعراق الجديد.

تشهد المكاتبات في أعقاب انتهاء المؤتمر العديد من الشدّ والجذب بشأن المؤتمر خاصة بين تشرشل وبرسي كوكس الذي كان على النقيض من تشرشل يدفع نحو إقامة دولة عراقية كبرى تشمل العرب والكرد، واستغل ثورة كوجكري الكردية في منطقة ديرسم ضد الترك للدفع بسياسته الرامية لضم المناطق الكردية للعراق، وأفصح عن موقفه بشكل علني لتشرشل فيما بعد، وقال له: إنّ مؤتمر القاهرة تضمّن اقتراحاً بالاحتفاظ بالمناطق الكردية جزءاً من العراق، بجانب اقتراح آخر لانفصالها، وأنه يؤيد ضم المناطق الكردية إلى العراق وسيعمل على هذا[٦].

وقال كوكس أيضاً إنه لأسباب سياسية واقتصادية وعسكرية ومواصلاتية يجب ضم منطقتين كرديتين على الأقل إلى العراق.

وكانت هناك أربعة مناطق كردية في المنطقة، وهي:

الأولى: الواقعة شمالي نهري الزاب

الثانية: مركزها أربيل بين الزابين

الثالثة: المنطقة الجبلية بين الزابين وغربي

٤ - سيهانوك ديبو، مرجع سابق، ص٨١.

٥ - للمزيد؛ عبدالعزيز المفتي، القضية الكردية في مؤتمر القاهرة ١٩٢١، دار المعتز للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٥.

٦- سيهانوك ديبو، مرجع سابق.

أربيل، وكان الترك ينافسون بريطانيا على ضمها.

الرابعة: في السليمانية.

وشدد كوكس على أنّ بريطانيا يجب أن تكون أكثر جاذبية للكرد، وتقدّم لهم مشروعاً يرضي القوميين الطامحين، ويكون أفضل من أي عرض تركي آخر[٧].

وفي النهاية استطاع برسي كوكس تنفيذ أفكاره، وأفكار ميس بيل في العراق، الذي اختير فيصل ملكًا لها؛ ليبدأ مسار جديد في تاريخ العراق الجديد والمنطقة بكل ما يحدها من أزمات.

مشاهد معاصرة بعد ١٠٠ عام من مؤتمر القاهرة

وإذا كان العالم قبل مئة عام تتجاذبه عدد من القوى العظمى، يقود بوصلته، فإن المشهد الدولي الراهن يُشير أيضًا إلى أن الأحاديّة القطبية التي ظلت الولايات المتحدة تهيمن بها على العالم منذ سقوط الاتحاد السوفيتي في تسعينيات القرن الماضي آخذه أيضاً بالزوال، وأنّنا أمام قطبيات جديدة أيضًا، فالصين التي تواصل صعودها السلمي كانت أبرز الدول المرشحة لمنافسة الولايات المتحدة كقوة عظمى، رغم ما يقابلها من نقاط ضعف تجعلها غير قادرة كلّيّاً على هذه المنافسة، لكن بالمقابل فإنّ العالم أصبح يشهد في بؤر مختلفة منه نقاط واسعة للهيمنة والسيطرة تغيب عنها الولايات المتحدة، وإن كان ذلك برغبة منها، كما أنّ الصراع الدولي الذي كان ممثلاً في الحرب العالمية الأولى آنذاك أصبح يتّخذ طابعًا جديدًا فيما قد تعتبر حروباً بالوكالة في الشرق الأوسط، وتبقى سوريا نقطة التأثير البارز فيها بكلّ ما تعيشه من صراعات للنفوذ الإقليمي والدولي، وتغيب عنه الولايات المتحدة، وتظهر وفقًا لسياسة قيادتها ورؤيتها، وبالمقابل تعيش أغلب دول الإقليم أزمات وحروب وصراعات داخلية وضعت الشرق الأوسط في دائرة الضوء من جديد، لكن بطبائع مختلفة، وتبقى السمة البارزة فيها ما يتعلق بسياسة الأيادي الخارجية التي تُحرك المشهد عن بعد، وتسعى لتفتيت جديد للمنطقة وتقسيمها، ولا زالت ملامحه طور التفاعل، وتقف بعض الدول عقبة أمامه لتقضي على المخططات بين آن وآخر، كحالة مصر التي ومنذ ثورة يونيو ٢٠١٣ وهي تقضي على كل الأفكار التي كان يُخطط لها، كما للمنطقة بأن تُقاد من قبل تنظيم الإخوان، نفس التنظيم الذي سعت بريطانيا إلى زرعه في المنطقة في نهاية عشرينيات القرن الماضي؛ لتستفيد منه وتتحرك عبره.

والواضح الآن أنّ مصر تعود لتستعيد دورها الريادي في الإقليم، وفي السياق نفسه تقف في مواجهة سعي القوى الإقليمية للهيمنة على المنطقة ودولها، ودليل على ذلك تركيا التي وبعد سنوات من العداء البيّن لمصر، ولقيادتها بدأت سياسة مهادنة عبّرت عن رغبتها في الانصياع للرؤية المصرية من أجل استعادة العلاقات معها، بعد خسارتها في شرق المتوسط، وأزمتها في ليبيا، وسحب البساط منها في السودان، حتى في مسار إعادة العلاقات المصرية القطرية برغم ما تتعتريه من مسائل وأمور ليس بالإمكان التطرق إليها الآن.

وفي الأخير؛ لا تزال المنطقة تموج في مواجهة أزمات منها ما هو واضح للعيان ومنها ما يزال يقبع تحت الرماد في انتظار اللحظة للظهور بما يُشكل أحلك وأصعب الفترات التي يعيشها الإقليم منذ بدء الحراك العربي الذي بدأ بتونس في عام ٢٠١٠، وصولاً إلى غيرها من الدول التي انضمّت للركب في ظل ثورات شعبية تم استغلالها من أطراف متعددة داخليا وخارجيًا، ولا تزال تبعاتها قائمة وممتدة.

٧- المرجع السباق نفسه، ص ١٢٠

اللّجنة الدّستوريّة السّوريّة.. آفاق نجاحها وفشلها

آناهيتا جميل

تمهيد:

تمرّ سوريّا بمرحلة مفصليّة وتاريخيّة مهمّة جدّاً على صعيد تطوّر أزمتها ووصولها إلى حدِّ الانفجار العموديّ والأفقيّ، وتناثر شظاياها في كافّة الأرجاء، حيث طالت الجميع دون استثناء.

على وقع دويِّ القذائف والدبّابات والصّواريخ والطائرات القادمة من كلّ حدب وصوب في أجواء سوريّا، غابت إمكانيّة طرح أيِّ حلولٍ سياسيّة وسلميّة لأزمتها، في ظلّ اعتقاد كلّ طرف أنّه سيحقّق النصر لصالحه في أقرب وقت، وهو ما نسف كلّ الجهود الرّامية إلى وقف النّزيف السّوريّ الذي دخل عامه الحادي عشر.

رغم الكمّ الهائل من المؤتمرات التي عقدتها أطراف الصراع السّوريّ، إن كان من جانب المعارضة والأطراف الرّاعية والدّاعمة لها، أو من جانب النّظام وحلفائه؛ فإنّها لم تتوصّل إلى برنامج عمليّ ووطنيّ واضح يلتفُّ حوله السّوريّون للخروج من الأزمة. فمنذ انعقاد مؤتمر أنطاليا عام ٢٠١١ وكذلك مؤتمر معارضة الدّاخل الذي عقد في فندق سميراميس وحضره نائب الرّئيس السّوريّ «فاروق الشرع»، وكذلك مؤتمر تأسيس هيئة التنسيق الوطنيّة في بلدة "حلبون" التّابعة لمحافظة ريف دمشق في ٦ أكتوبر/ تشرين الأوّل عام ٢٠١١. وبعدها تتالى انعقاد المؤتمرات والاجتماعات في الدّاخل والخارج، وصولاً إلى مؤتمرات جنيف وسوتشي واجتماعات أستانا المتتالية وفيينا أيضاً، فإنّها جميعاً لم تتمكّن من إخراج الأزمة السّوريّة من عنق الزُّجاجة، بل على العكس تماماً، تفاقمت أكثر ودخلت في متاهات عديدة، وغدا حلّها إقليمياً ودولياً، بعد أن تدخّلت عدّة قوى بشكل مباشر في الأزمة، إثر فشل مراهناتها على أدواتها السّوريّة في تنفيذ وتمرير أجنداتها في الدّاخل السّوريّ.

لا يُخفى على أحد أنّ عدّة قرارات أمميّة صدرت بخصوص الأزمة السّوريّة، إلّا أنّ أهمّها على الإطلاق كان القرار رقم /٢٢٥٤/ الذي تضمّن عدة بنود رئيسيّة تُفضي إلى حلّ الأزمة سياسيّاً وتقطع الطريق أمام الحلول العسكريّة، ليعقبها تشكيل هيئة حكم انتقالي ووضع دستور جديد للبلاد وإجراء انتخابات برلمانيّة ورئاسيّة، مترافقة مع بدء مرحلة إعادة الإعمار.

سنتطرق في هذا البحث إلى اللّجنة الدّستوريّة التي أنشئت بموجب اتّفاقات وتفاهمات دوليّة وإقليميّة، رغم أنّها جاءت في سياق بنود القرار الصادر من مجلس الأمن الدّوليّ /٢٢٥٤/ في ١٨ ديسمبر/ كانون الأوّل ٢٠١٥، إلا أنّ الدّول التي ضغطت باتّجاه تشكيل اللّجنة الدّستوريّة خرجت عن سياق وروح القرار الأمميّ، وحاولت أن تُجيّرها لصالح أجنداتها الخاصّة.

لا شكّ أنّ تأسيس اللّجنة الدّستوريّة يُعدُّ مطلباً شعبيّاً وقانونيّاً سوريّاً، وقبل كلّ شيء يُعتبر حاجة ملّحة، إن كان الهدف منها وقف نزيف الدم السّوريّ، وتنظيم حياة الشّعب السّوريّ الذي قذفته أهوال الحرب في كلّ أصقاع الأرض، وبات يبحث عن مكان يحافظ فيه على حياته، ويحلم بالعودة إلى بلاده وقد صمتت قرقعة الأسلحة وهدير الطائرات، وتوقّف القتل على الهُويّة الطائفيّة والمذهبيّة والدّينيّة والعرقيّة.

سنعرج على أهمّ المفاصل الرّئيسة لتشكيل اللّجنة، وكذلك التوافقات التي حصلت قبل تأسيسها، والقوى والأطراف السّياسيّة التي شاركت فيها، فيما سنتوقف عند القوى التي تمّ استبعادها من المشاركة في اللّجنة وأسبابها السّياسيّة والقوى التي تقف وراءها، وسنبحث في الصراع الدّائر في اللّجنة، والذي يمثّل إحدى تجلّيات الصراع في سوريّا وعليها، وذلك من خلال استعراض أهمّ ما تمّت مناقشته في الجلسات التي عقدتها، والمنغّصات التي تعترض سبيل إنجاحها، فيما سنتطرق إلى المآخذ على عمل اللّجنة وتشكيلتها، وإمكانية نجاحها من فشلها.

الدّستور تعريفاً

يُعدُّ الدّستور النّاظم لحياة المجتمعات والشّعوب، فينقلها من حالة البداوة إلى حالة التحضّر والعيش وفق قوانين وقواعد تنظّم حياته السّياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة والثّقافيّة وعلى كلّ المستويات. والتّعريف القانونيّ حسب المشرّعين، وكما وصفته الأدبيّات الدّستوريّة بأنّه "مجموعة المبادئ الأساسيّة المنظّمة لسلطات الدّولة والمبيّنة لحقوق كلّ من الحكّام والمحكومين فيها، بدون التدخّل في المعتقدات الدّينيّة أو الفكريّة، ولبناء الوطن، وهي الواضعة للأصول الرّئيسيّة التي تنظّم العلاقات بين مختلف سلطاتها العامّة، أو هو موجز الإطارات التي تعمل الدّولة بمقتضاها في مختلف الأمور المرتبطة بالشؤون الدّاخليّة والخارجيّة".

وحسب المؤرّخين والمشرّعين أنّ كلمة دستور وافدة إلى اللّغة العربيّة، فهي كلمة معرّبة؛ أصلها "فارسي" يتكوّن من مقطعين: مقطع (دست) بمعنى قاعدة، ومقطع (ور) ومعناه صاحب، أي تصبح صاحب القواعد.

والدّستور ينظّم العلاقة بين السُّلطات الثّلاث الرّئيسيّة في الدّولة (التّشريعيّة، التّنفيذيّة، والقضائيّة) بحيث لا تتعارض مع بعضها، بل تتكامل في حماية المواطن والدّولة من الأخطار والتهديدات الدّاخليّة والخارجيّة، وكذلك تحفظ حقوق المواطنين، وبموجبه تُسنُّ القوانين الفرعيّة لكلّ مؤسّسة وإدارة في الدّولة.

أهميّة الدّستور في حياة المجتمعات:

إنّ جميع الشعوب بحاجة ماسّةٍ إلى وضع دستور لحياتها ولكافّة أنشطتها. فحتّى العشائر والقبائل تضع دساتير تناسب أوضاعها، وإن لم تكن بالمستوى القانونيّ المُتعارف عليه، إلّا أنّها تنظّم حياة أفراد العشيرة وفق منظومة قانونيّة معيّنة، ويلتزم بها الجميع، في حين يسهر رئيس العشيرة على حُسنِ سير وتطبيق القانون. ولا يمكن للمجتمعات أن تحيا وتتطوّر دون وجود دستور، وعند إلغائه أو وقف العمل به، تسود بدلاً منها الفوضى، وهذا ما يحدث عادة أثناء الانقلابات العسكريّة، حيث يُحلُّ الدّستور أو يوقف العمل به، ويفرض بدلاً منه قانون الطوارئ والأحكام العرفيّة.

إلّا أنّه وفق المعايير الحديثة المُتّبعة في معظم دول العالم؛ فإنّه للدّستور أهميّة كبيرة في المجالات التّالية:

١ – من الناحية السياسية: يُحدّد الدّستور طبيعة الدّولة إن كانت مَلَكيّة أم جمهوريّة، وما هو نظام الحكم فيها سواء كان برلمانيّاً، أو رئاسيّاً. ويضع فلسفة الحكم المحلّيّ، ويرسم الهيئة الإداريّة للدّولة، ويُحدّد أطر سيادتها وشكلها وحدودها.

٢ – من الناحية الحقوقية: يرسم أطر حُرّيّات الأفراد، إن كانت دينيّة، أم سياسيّة، أم مدنيّة، أم فكريّة، ويحفظها، دون أيّ تمييز بين أفراد المجتمع على أسس عرقيّة أو دينيّة أو ما شابه ذلك.

٣ – من الناحية القانونية: يعتبر رجال القانون أنّ الدّستور يُعدُّ «المرجعيّة الأساسيّة لكافّة التشريعات والقوانين»، وأنّه «يحدد دور الدّولة في تنظيم النشاط الاقتصاديّ الذي يحقّق التوازن بين مصلحة المجتمع والفرد، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة». كما يُعدُّ في «قمّة الهرم الخاص بقانون الدّولة». ويضع القوانين التي تحمي الأمّة والوطن وكذلك قيمه الثّقافيّة والرّوحيّة ويبرز هُويّتها.

مآل الدّستور الرّوسيّ لسوريا:

طرحت روسيّا في ٢٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٧ دستوراً لسوريّا صاغته في دوائرها الخاصّة، وعرضته على النّظام في وقت سابق للتّاريخ

> **"يعتبر تأسيس اللّجنة الدّستوريّة يُعدُّ مطلباً شعبيّاً وقانونيّاً سوريّاً، وقبل كلّ شيء حاجة ملّحة، إن كان الهدف منها وقف نزيف الدم السّوريّ، وتنظيم حياة الشّعب السّوريّ الذي قذفته أهوال الحرب في كلّ أصقاع الأرض، وبات يبحث عن مكان يحافظ فيه على حياته، ويحلم بالعودة إلى بلاده وقد صمتت قرقعة الأسلحة وهدير الطائرات، وتوقّف القتل على الهُويّة الطائفيّة والمذهبيّة والدّينيّة والعرقيّة"**

الذي أعلنت فيه، كما طرحته أمام المعارضة في اجتماعات أستانا، فرفضته المعارضة جملة وتفصيلاً. ونُقِلَ حينها أنّ الوفد الرّوسيّ برئاسة موفد الرّئيس الرّوسيّ إلى سوريّا «ألكسندر لافرنتييف» في ختام محادثات أستانا وضع الدّستور الذي أعدّته بلاده على الطاولة، فلم يأخذ أحد من أعضاء وفد المعارضة النّسخة التي قُدّمت لهم، وقالوا: «إنّنا نرفض النّقاش حوله، ونرفضه كليّاً».

أدركت روسيّا الوضع المحرج الذي وضعت نفسها فيه حينما طرحت ذاك الدّستور، خاصّة بعد أن قوبل بالرّفض من قبل معظم أطياف المعارضة السّوريّة، وكأنّها حاولت خلاله أن تكسب ما لم تستطع أن تناله من جولاتها العسكريّة. فأدارت بوصلتها نحو تعزيز دورها السّياسيّ والدّبلوماسيّ بعقد صفقات مع الدّول الإقليميّة التي لها دور فاعل في سوريّا، مثل تركيّا وإيران، في مسعى لجعلها بديلة للإجماع الدّوليّ الذي انصبّ اهتمامه على تفعيل دور مؤتمرات جنيف ومقرّرات فيينا، فأنشأت روسيّا عدّة مسارات موازية، مثل مسار أستانا وسوتشي، وأيضاً طرحت فكرة إعداد دّستور جديد لسوريّا.

نص الدّستور الرّوسيّ على عدّة فقرات رئيسة تتعلّق بتنظيم الدّولة السّوريّة وفق مبادئ أساسيّة، بعد إجراء تعديلات جوهريّة على الدّساتير السّابقة، الأمر الذي فسّره بعض الخبراء القانونيّين بأنّه جاء وفق متطلّبات المصالح الرّوسيّة في سوريّا، وخاصّة في الشقّ الاقتصاديّ منه. جاءت أهمّ بنود الدّستور الرّوسيّ – السّوريّ الذي تمّت صياغته في موسكو، دون علم النّظام (الحكومة السّوريّة) وكذلك أطراف المعارضة والإدارة الذّاتيّة الدّيمقراطيّة في روج آفا التي تحوّلت لاحقاً إلى الإدارة الذّاتيّة في شمال وشرق سوريّا، على الشكل التالي:

١ – شطب اسم «الجمهوريّة العربيّة السّوريّة»، واستبداله بالـ «الجمهوريّة السّوريّة»، مثلما كان اسمها قبل تولّي حزب البعث السُّلطة عام ١٩٦٣.

٢ – لم يُعَد الفِقهُ الإسلاميّ مصدراً للتشريع، حيث أُلغيت الفقرة التي كانت تنص على ذلك، وهذه ولّدت ردّة فعل كبيرة لدى جماعة الإخوان المسلمين، حيث يطالبون بدولة إسلامية.

٣ – عدم تحديد ديانة الرّئيس، بعد إلغاء المادّة التي كانت تحدّد ديانة الرّئيس بـ «الإسلام».

٤ – اللّغتان العربيّة والكُرديّة متساويتان في مناطق الحكم الذّاتيّ الثّقافي الكُرديّ، ويحقّ لكلّ منطقة وفقاً للقانون أن تستخدم بالإضافة إلى اللّغة الرّسمية لغة أكثريّة السكّان إن كان موافقاً عليها.

٥ – تطبيق مبدأ «لا مركزيّة السُّلطات»، واستبدال «جمعية المناطق»، بدلاً من «الإدارات المحلّية» في شكلها الحالي، ومنحها صلاحيات موسّعة تقيد مركزيّة السُّلطات.

٦ – استبدال تسمية «جمعية الشّعب» بدلاً من تسمية «مجلس الشّعب»، أي البرلمان المصغّر في الأقاليم.

٧ – تتولّى «جمعية المناطق» السُّلطة التشريعية في البلاد، وتتكون من «ممثلي الوحدات الإداريّة»، وينعقد مجلسها على نحو منفرد عن «مجلس الشّعب»، ويجوز لها عقد جلسة عامة للانتخاب والاستماع إلى رئيس الوزراء أو رئيس الجمهوريّة.

٨ – يجوز لجمعية المناطق إحالة مشاريع القوانين إلى جمعية الشّعب للنظر فيها.

٩ – يحقّ لمجلس الشّعب تعيين أعضاء المحكمة الدّستوريّة العليا، (وهي جزء من صلاحيات الرّئيس في الدّستور الحالي)، وتعيين رئيس «البنك الوطنيّ»، حيث اسمه في الدّستور الحالي «البنك المركزيّ» وهو المخول بإقالته من منصبه أيضاً.

١٠ – إلغاء التقسيم السّائد لعضويّة مجلس الشّعب؛ نصف الأعضاء من فئة العمال

والفلّاحين، والنصف الآخر من باقي الفئات.

إنّ قراءة سريعة في بنود هذا الدّستور، توضّح بشكل جليّ لا شكَّ فيه أن روسيّا تسعى إلى استبدال شكل الدّولة السّوريّة، وهي أهمّ البنود التي طالها التغيير، وفق الصيغة التي أعدّتها موسكو، حيث قلّصت من صلاحيّات الرّئيس الذي يستأثر ويَحصُر مهام الدّولة بمعظمها في منصبه، ما ولّد ديكتاتوريّات تشبّثت بكرسيّ الحكم، فيسنُّ ويُشرّع القوانين بما يتلاءم مع نظامه، كذلك بيده القرار العسكريّ والمؤسّسة العسكريّة، فيما يتحكّم بمفاصل العمل التّشريعيّ أيضاً من خلال صلاحيّاته في تصديق القوانين والتّشريعات وكذلك حلّ مجلس الشّعب (أي البرلمان). كما اشترط للترشّح لرئاسة الجمهوريّة أن يكون المرشّح قد أتمّ الأربعين عاماً من عمره، على عكس ما تمّ تغييره أثناء تنصيب الرّئيس الحالي بشّار الأسد بتحديد عمره أن يكون قد تجاوز /٣٤/ عاماً، فيما حدّد مدّة ولايته بسبع سنوات، على ألا يترشّح لأكثر من دورتين. واشترط أن يؤدّي القسم الدّستوريّ أمام أعضاء جمعيّتي «الشّعب والمناطق»، حيث تمّ تغيير القسم الدّستوري عبر حذف لفظ «الجلالة» منه وكذلك لم ترد فيه أيّ اشارة «قوميّة عربيّة» أو «اشتراكيّة»، ليكون: «أقسم أن ألتزم بدستور البلاد وقوانينها، وأن أحترم وأحمي حقوق وحُرّيّات الإنسان والمواطن، وأن أدافع عن سيادة الوطن واستقلاله وسلامة أرضه، وأن أتصرّف دائماً وفقاً لمصالح الشّعب». أمّا القسم الحالي، فهو: «أقسم بالله العظيم أن أحترم دستور البلاد وقوانينها ونظامها الجمهوريّ، وأن أرعى مصالح الشّعب وحُرّيّاته، وأحافظ على سيادة الوطن واستقلاله وحُرّيّته والدّفاع عن سلامة أرضه، وأن أعمل على تحقيق العدالة الاجتماعيّة ووحدة الأمّة العربيّة». وتوكّل لـ»جمعيّة المناطق» تولّي مهام رئيس الجمهوريّة في حال الشغور الرّئاسي (مرضه أو وفاته أو عجزه عن أداء مهامه)، وكذلك عجز رئيس مجلس الوزراء عن القيام بتلك المهام.

كما حدّد عدداً من مهام مجلس الوزراء في إدارة الحكومة وتعيين نواب رئيس مجلس الوزراء والوزراء وعقد المعاهدات والاتّفاقيّات. فيما حصر سحب الثّقة من الحكومة بـ»جمعيّة المناطق» بتصويت ثلثي الأعضاء.

> **"قلّصت روسيّا في دستورها من صلاحيّات الرّئيس الذي يستأثر ويَحصُر مهام الدّولة بمعظمها في منصبه، ما ولّد ديكتاتوريّات تشبّثت بكرسيّ الحكم، فيسنُّ ويُشرّع القوانين بما يتلاءم مع نظامه، كذلك بيده القرار العسكريّ والمؤسّسة العسكريّة، فيما يتحكّم بمفاصل العمل التّشريعيّ أيضاً من خلال صلاحيّاته في تصديق القوانين والتّشريعات وكذلك حلّ مجلس الشّعب (أي البرلمان)."**

وأجرى الدّستور المقترح من قبل روسيّا تعديلات كبيرة في تشكيل المحكمة الدّستوريّة العليا، حيث تتألّف من /١١/ عضواً بدلاً من /٧/ أعضاء، وتعيّنهم "جمعيّة المناطق"، بعدما كان يسمّيهم رئيس الجمهوريّة بمرسوم.

كذلك حدّد الدّستور الرّوسيّ لسوريّا مهام القوّات المسلّحة في الدّفاع عن سيادة الدّولة، وأسقط عنه "الصفة العقائديّة". غير أنّ المسألة الأكثر إثارة في الدّستور هو تحديد توجّه الدّولة الاقتصاديّ، حيث أكّد على سيادة علاقات السّوق، عبر القول: "إنّ سوريّا تؤمّن حُرّيّة النّشاط الاقتصاديّ وتُعترف بالملكيّة الخاصّة، وتَخلق الدّولة على أساس علاقات السّوق ظروفاً لتطوير الاقتصاد وتضمن حُرّيّة الأعمال، كما تضمن حُرّيّة تنقّل البضائع والرّساميل، وأنّ الموارد الطبيعيّة يمتلكها الشّعب".

رفضت معظم أطراف المعارضة الدّاخليّة والخارجيّة مسوّدة الدّستور الرّوسيّ المعدّ لسوريّا، فيما ظلّ موقف النّظام ضبابيّاً، ولم يصدر منه أيّ موقف واضح رافض أو موافق عليه. وعلى إثر ردود الفعل الرّافضة؛ عمدت روسيّا إلى محاولة تبرير موقفها ومحاولتها تدوير الزّوايا، عبر الإيحاء بأنّ الدّستور الذي طرحته ما هو إلا مجرّد مشروع وبداية لحراك سياسيّ سوريّ، ومحاولة لمساعدة السّوريّين للخروج من الأزمة. وقالت النّاطقة باسم وزارة الخارجيّة الرّوسيّة ماريا زاخاروفا: "إنّ المشروع هو عبارة عن مجموعة أفكار ونقطة انطلاق للنّقاش، لا شيء حتّى الآن سوى التسريبات. هذا بالتأكيد ليس إجباراً وليست خطّة عمل ثابتة، إنّها مجموعة أفكار وخيارات، لكي يبدأ الحديث عن هذا الموضوع، إنّها نقطة ما لإطلاق النّقاش لتركيز انتباههم "السّوريّين" وجهدهم على مناقشة مشروع مستقبل بلادهم بدلاً من الأحاديث الفارغة".

اللّجنة الدّستوريّة بين مصالح الخارج وآمال السّوريّين:

طُرِحَت فكرة تشكيل اللّجنة الدّستوريّة في مؤتمر سوتشي في يناير/ كانون الثاني ٢٠١٨، بعد اتّفاق ما تُسمّى الدّول الضامنة في اجتماعات أستانا (روسيّا، تركيّا، وإيران). ورغم أنّ تشكيل اللّجنة الدّستوريّة قد ورد ضمن بنود القرار الأمميّ /٢٢٥٤/، حيث أنّه تضمّن أربع سلال رئيسيّة، هي (هيئة الحكم – دستور جديد – الانتخابات – محاربة الإرهاب). واعتبرت تلك السلال الملفّات الأساسية للتفاوض في جنيف، وسُمّيت بـ" السّلال الأربعة" لموفد الأمين العام للأمم المتّحدة حينها "ستيفان ديمستورا"، وهي بمجموعها شكّلت رؤية للحلّ السّياسيّ في سوريّا، إلا أن الدّول الغربيّة وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأمريكيّة لم تتشجّع كثيراً لفكرة تشكيل اللّجنة الدّستوريّة، وكذلك الاتّحاد الأوروبيّ، وأبديتا موافقتهما على مضض مع بعض التحفّظات، لعدّة أسباب، أهمّها، أنّها اعتبرت أنّ الأجواء غير ملائمة لتشكيلها، والنّظام لا يزال بعيداً عن قبول أيّ حلول سياسيّة ويعرقل كلّ الجهود الرّامية إلى وقف العنف، وهو ما تبيّن من خلال جولات المفاوضات في جنيف.

طال أمد تشكيل اللّجنة، وتعرّض مسارها لكثير من الشدّ والجذب بين مختلف الأطراف المشاركة فيها، ودارت نقاشات ومباحثات بين جميع الأطراف، فظهرت خلافات عديدة حول نقاط كثيرة، أهمّها، طبيعة ومرجعيّة الأطراف التي ستشارك في قوام اللّجنة، وخاصّة من طرف المعارضة.

بعد تشكيل الهيئة العليا للمفاوضات، التي تأسّست في العاشر من ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٥ خلال اجتماع عقدته أطراف المعارضة السّوريّة في الرّياض، انضمّت إليها فيما بعد كلّ من منصّتي موسكو والقاهرة، حيث تتألّف الأولى من مجموعة قوى وأحزاب معارضة داخليّة وخارجيّة بقيادة المعارض السّوريّ المقيم في موسكو "قدري جميل"، والثّانية ضمّت أيضاً قوى من الدّاخل السّوريّ والخارج كان يقودها "حسن عبد العظيم" وفيما بعد الفنّان "جمال سليمان". ضمت الهيئة اثنين وثلاثين عضواً، بينهم تسعة من الإئتلاف الوطنيّ لقوى الثّورة والمعارضة، وهم: " جورج صبرا، فاروق طيفور، عبد الحكيم بشّار، سهير الأتاسي، منذر ماخوس، خالد خوجة، رياض سيف، رياض حجاب، وسالم المسلط"، وعشرة من الفصائل المسلّحة، وخمسة من هيئة التنسيق الوطنيّ، وثمانيةٌ مستقلون، هم: "معاذ الخطيب، لؤي حسين، أحمد الجربا، رياض نعسان آغا، هند قبوات، يحيى قضماني، حسام الحافظ، وعبد العزيز الشلّال"، إضافة إلى ستّة عن هيئة التّنسيق، وهم: "منير البيطار، صفوان عكّاش، أحمد العسراوي، محمّد حجازي، زياد أبو وطفة، وليد الزعبي"، ترأس الهيئة الدكتور "رياض حجاب". رغم التئام شمل الهيئة، إلا أنّ الخلافات ضربت صفوفها، فبعد رئاسة رئيس الوزراء السّوريّ المنشقّ "رياض حجاب" كمنسّق عام لها، ظهر للعيان أنّ جماعة الإخوان المسلمين مارست ضغوطاً كبيرة على الهيئة، لجعلِها تتماشى وتعمل وفق أجنداتها.

فبالرغم من أنّ موقف الجماعة الرّسميّ تمثّل في عدم الموافقة على التفاوض مع النّظام والابتعاد عن المشاركة في الهيئة، إلا أنّها شاركت فيها عبر القيادي في الجماعة "فاروق طيفور"، كما لجأت إلى أسلوب المواربة والمراوغة في ضبط إيقاع اللّجنة حسب رؤيتها، حيث زجّت بأشخاص محسوبين عليها، مثل العميد المنشقّ "أسعد عوض الزّعبي" والدّكتور "نصر الحريري". عيّنت الهيئة في بداية عملها الدّكتور رياض نعسان آغا متحدّثاً باسمها.

تفاقمت الخلافات أكثر داخل الهيئة، وتسرّبت أنباء حول استغلال بعض الأشخاص لمناصبهم لتمرير مصالحهم الخاصّة وكذلك مصالح الدّول الإقليميّة التي ترعاهم. أعلن المنسّق العام "رياض حجاب" مع عشرة أعضاء آخرين بينهم الدّكتور رياض نعسان آغا استقالتهم من الهيئة، إثر عدم قدرتهم على توحيد آراء ومواقف الهيئة وسيطرة جماعة الإخوان المسلمين على كلّ مفاصل عملها، فضغطت السّعوديّة على الهيئة لعقد مؤتمر ثانٍ لها، وفعلاً عقد مؤتمر الرّياض – ٢ في نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٧.

الهزّة التي تعرّضت لها الهيئة، جعلتها ترتدُّ إلى الوراء قليلاً، وتقرّر في مؤتمر الرّياض – ٢ زيادة أعضائها إلى خمسين عضواً بدلاً من اثنان وثلاثين، وتوزّع الأعضاء على الشّكل التالي: عشرة من الإئتلاف، ستّة من هيئة التّنسيق، أربعة من منصّة موسكو، كما ضمّت ممثّلين للفصائل العسكرية أيضاً، ومرّة أخرى تمّ استبعاد العديد من القوى السّياسيّة الفاعلة داخل سوريّا، ومن أهمّها الإدارة الذّاتيّة الدّيمقراطيّة في شمال وشرق سوريّا، ومجلس سوريّا الدّيمقراطيّة الذي يعتبر مظلّة للعديد من القوى السّياسيّة الكُرديّة والعربيّة والسُّريانيّة والآشوريّة والتركمانيّة.

أشرفت الهيئة العليا للمفاوضات على تشكيل وفد المعارضة للمشاركة في اللّجنة الدّستوريّة، واعتمد فيها نظام "المحاصصة"

"طال أمد تشكيل اللّجنة الدستورية السورية، وتعرّض مسارها لكثير من الشدّ والجذب بين مختلف الأطراف المشاركة فيها، وظهرت خلافات عديدة حول طبيعة ومرجعيّة الأطراف التي ستشارك في قوام اللّجنة، وخاصّة من طرف المعارضة. واعتمد نظام "المحاصصة" الطائفيّة والعرقيّة والسّياسيّة، والأخطر فيها؛ أنّ تعيين أعضائها جاء وفق السيناريوهات التي رسمتها لها دول إقليميّة مثل تركيّا، السّعوديّة، وكذلك روسيّا وغيرها من الدّول"

الطائفيّة والعرقيّة والسّياسيّة، والأخطر فيها؛ أنّ تعيين أعضائها جاء وفق السيناريوهات التي رسمتها لها دول إقليميّة مثل تركيّا، السّعوديّة، وكذلك روسيّا وغيرها من الدّول. فيما وفد النّظام، ضمّ مسؤولين من حزب البعث، منهم أكاديميّين وكذلك عناصر أمنيّة. اعتقد العديد من المراقبين أنّ هذه التوليفة من اللّجنة لن تتمكّن من الوصول إلى أيّة نتائج مرجوّة منها، فتباينت أهداف وتطلّعات الطرفين من اللّجنة، ففيما دعت المعارضة إلى "إعداد دستور جديد"، فإنّ النّظام طالب "بتعديل الدّستور الموجود" أي الدّستور الذي طرحته عام ٢٠١٢ المعدّل عن الدّستور الذي أعدّه الرّئيس السّابق حافظ الأسد عام ١٩٧٣.

اقترحت الدّول الثّلاث الرّاعية لاجتماعات أستانا أن تتشكّل اللّجنة من /١٥٠/ عضواً، خمسين عضواً من المعارضة، ومثلهم من النّظام، والثّلث الأخير من منظّمات المجتمع المدنيّ يختارهم المبعوث الدّوليّ إلى سوريّا. وانبثقت

> **حاولت روسيّا التّسويق للجنة الدّستوريّة بأنّها الحلّ الوحيد للأزمة السّوريّة، بالتّزامن مع وضعها العصي في عجلة اللّجنة، وكأنّها تريد أن تسيطر عليها وتحدّد نتائجها سلفاً وقبل عقدها لأيّ جلسة لها، فطرحت فكرة أن تكون مرجعيّة اللّجنة تفاهمات «أستانا» وليس جنيف والقرارات الأمميّة**

عنها لجنة مصغّرة مؤلّفة من /٤٥/ عضواً موزّعة بالتّساوي بين الأطراف الثّلاثة.

حدّد المبعوث الأمميّ السّابق لسوريّا "ستيفان ديمستورا" ومن بعده "غير بيدرسون" مبادئ أساسيّة لعمل اللّجنة، منها ضرورة التزامها بمرجعيّة بيان جنيف رقم /١/ لعام ٢٠١٢ وكذلك والقرارات الدّوليّة ذات الصلة بسوريّا، وخاصّة القرار /٢٢٥٤/ لعام ٢٠١٥. وكان المبعوثان قد قاما بعدّة جولات مكوكيّة بين العواصم ذات العلاقة بالشأن السّوريّ، مثل موسكو، أنقرة، الرّياض وكذلك دمشق، للدّفع باتّجاه "تشكيل اللّجنة الدّستوريّة"، وواجه عملهما عدّة معوّقات، منها تأكيد المعارضة السّوريّة على ضرورة الالتزام بتحقيق الحلّ السّياسيّ، وكذلك تحديد جدول أعمال للعمليّة السّياسيّة التفاوضيّة في سوريّا، والخطوات التي تؤمّن إجراءات الثّقة المتبادلة، على أن يسبق أيّ عمليّة تفاوضيّة الإفراج عن المعتقلين والمخطوفين، والعودة الآمنة والطوعيّة للمهجّرين والنّازحين، وهذا ما رفضه النّظام وروسيّا.

استغرق تشكيل اللّجنة الدّستوريّة أكثر من عام ونصف، تخلّله جدال حول أعضائها وآليّات عملها ومرجعيّتها، وكذلك عدّة أمور تقنيّة أخرى مثل رئاستها وشروط ما قبل جلوس الطرفين حول طاولة حوار واحدة برعاية أمميّة. فأولى الخلافات التي تسرّب فحواها في أروقة مجلس الأمن أثناء تشكيل اللّجنة الدّستوريّة كان حول ستّ أشخاص، حيث "أصرّت المعارضة على تواجدهم ضمن قائمة الأمم المتّحدة (منظّمات المجتمع المدنيّ)، بينما عارض النّظام ذلك، ومن بين هؤلاء الستّة شخصيّات قانونيّة ودستوريّة كبيرة، خشي النّظام من موقفهم، وتمّ تجاوز مشكلتهم حيث اتّفق على أن النّظام وروسيّا سيقومون بتسمية شخصيّتين، بينما يقوم بيدرسون بتسمية الأربعة الباقين". الخلاف الآخر ظهر حول رئاسة اللّجنة، حيث طالب النّظام ترؤّس شخص ضمن وفده للّجنة، وبعد ضغوط من الأمم المتّحدة وروسيّا، وافق النّظام على مبدأ الرّئاسة المشتركة لها، على أن يتمتّع كليهما بصلاحيّات متساوية، وعيّن النّظام "أحمد الكزبري" رئيساً من طرفها، فيما عيّنت المعارضة "ممتاز البحرة" رئيساً مشاركاً لها. إلا أنّ عدّة مصادر من المعارضة وموالية للنّظام أكّدت أنّ قائمة منظّمات المجتمع المدنيّ تمّ تعيينها مناصفة بين المعارضة والنّظام، كجزء من المحاصصة بينهما.

أعلن الأمين العام للأمم المتّحدة أنطونيو غوتيريش عن تشكيل اللّجنة في ٢٣ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٩، وكان قبلها قد تمّ الاتّفاق بين رؤساء الدّول الضّامنة في سوريّا "روسيّا، تركيّا، وإيران"، خلال قمّة ثلاثيّة عُقِدت بينهم في أنقرة في ١٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٩.

حاولت روسيّا التّسويق للجنة الدّستوريّة بأنّها الحلّ الوحيد للأزمة السّوريّة، بالتّزامن مع وضعها العصي في عجلة اللّجنة، وكأنّها تريد أن تسيطر عليها وتحدّد نتائجها سلفاً وقبل عقدها لأيّ جلسة لها، فطرحت

فكرة أن تكون مرجعيّة اللّجنة تفاهمات "أستانا" وليس جنيف والقرارات الأمميّة، محاولة تغليف مساعيها بمسحة من المقاربات المزيّفة، مثل مطالباتها بالحفاظ على وحدة الأراضي السّوريّة، وانسحاب جميع القوّات الأجنبيّة من سوريّا، فيما برّرت هي وإيران وجودهما بأنّه جاء تلبية لطلب حكومة شرعيّة. كذلك اشترطت الأمم المتّحدة اعتماد اللّجنة الدّستوريّة على مُخرجات مفاوضات جنيف الممثّلة بالبنود الـ ١٢، وألا ينعقد مؤتمر سوتشي مرّة ثانية حتّى لا يحلّ بديلاً عن مسار جنيف.

إقصاء الكُرد من تشكيلة اللّجنة:

يبدو أنّ الثّقافة الإقصائيّة التي زرعتها الأنظمة السّوريّة المتعاقبة في أذهان المجتمع السّوريّ، وخاصّة نظام البعث منذ سيطرته على مقاليد السُّلطة عام ١٩٦٣، تلك الثّقافة مثّلتها المعارضة المجتمعة ضمن الإئتلاف السّوريّ، من خلال رفضها مشاركة الكُرد والإدارة الذّاتيّة في شمال وشرق سوريّا في أيّ من هياكل المعارضة، بما فيها الإئتلاف. ويزعم عدد من الكُرد المنتمين إلى المجلس الوطنيّ الكُرديّ أنّهم يمثّلون الكُرد في المحافل الدّوليّة وهيئات المعارضة، إلا أنّ هذا بعيد عن الحقيقة كلّياً، دون أيّ إسقاط سياسيّ للمسألة. فقد صرّح العديد من المسؤولين في المعارضة أنّهم لا يقبلون بأيّ شكلٍ من الأشكال لوجود كُرديّ مستقلّ ضمن صفوفهم، هذا فضلاً أنّ الحقوق الكُرديّة، وإلى الآن، لم تُدرج في أيّ من وثائق المعارضة أو طُرحت في أيّ من مؤتمراتها واجتماعاتها. فلم يحضر أيّ من ممثّلي القوى السّياسيّة الكُرديّة في الدّاخل اجتماعات أستانا وفيينا وجنيف وسوتشي، ومشاركة أعضاء المجلس الوطنيّ الكُرديّ في بعض تلك الاجتماعات، جاءت بصفتهم أعضاء في الإئتلاف لا بصفتهم ممثّلي الشّعب الكُرديّ في روج آفا وسوريّا. هذه الحقيقة لم تعترف بها المعارضة إلى يومنا هذا، وهي إحدى الأسباب الرّئيسيّة لعدم ثقة الشّعب الكُرديّ وممثّليه بأقطاب وهياكل المعارضة، التي تنكّرت لحقوق ووجود الشّعب الكُرديّ في مستقبل سوريّا.

كان لتركيّا الدّور البارز والرّئيسيّ في ممارسة الضغوط على المعارضة لحملها على رفض التمثيل الكُرديّ ضمن المعارضة السّوريّة. فتركيّا المُصابة بالفوبيا الكُرديّة، تتخوّف من مشاركة ممثّلي الشّعب الكُرديّ في أيّ من هياكل المعارضة ومؤسّساتها وبالتالي حصولهم على اعتراف دوليّ رسميّ، يؤهّلهم لنيل حقوقهم المشروعة ضمن سوريّا ديمقراطيّة مستقبلاً، وهي استخدمت نفوذها لدى أطراف المعارضة، وخاصّة جماعة الإخوان المسلمين، في رفض مشاركة الكُرد، بل حتّى أصدرت مواقف معادية للكُرد، من خلال وسمهم بالانفصال ومحاولة تقسيم سوريّا. كما أنّ تلك القوى المدعومة من تركيّا أيّدت مواقف الأخيرة في احتلالها لمناطق الكُرد، مثل عفرين، سري كانيه/ رأس العين وكري سبي/ تل أبيض، بل وشاركت معها أيضاً.

بالمقابل؛ أعلنت معظم القوى والحركات الكُرديّة في الدّاخل السّوريّ، وكذلك الإدارة الذّاتيّة الدّيمقراطيّة، أنّها غير معنيّة بأيّ نتائج تسفر عن عمل اللّجنة الدّستوريّة أو أي من هياكل المعارضة، إن لم تكن مشاركة فيها، إعداداً وعملاً.

مواقف النّظام لم تكن أفضل من المعارضة، ورغم أنّه لم يعلن عن مواقف علنيّة رافضة لمشاركة الكُرد في اللّجنة الدّستوريّة وغيرها من المؤتمرات، إلا أنّه حاول الإيحاء بأنّ الكُرد مشاركين ضمن وفده في اللّجنة، وكذلك في مؤتمرات جنيف، حيث شارك كلّ من "عمر أوسي" رئيس ما تُسمّى "المبادرة الوطنيّة الكُرديّة" التي أنشأها النّظام لتعويمه باسم ممثّل الكُرد، وكذلك شارك السّفير السّوريّ السّابق في إسبانيا "حسام آلا"، ولكن بصفته دبلوماسيّاً سوريّاً وليس كُرديّاً. لم تظهر أيّ مواقف أو دعوات من النّظام بضرورة مشاركة الكُرد والإدارة الذّاتيّة في اللّجنة الدّستوريّة خلال جميع المحطّات التي مرّ بها تشكيلها.

كذلك لم تمارس روسيّا أيّ ضغط على المعارضة لحملها على مشاركة الكُرد في اللّجنة الدّستوريّة، وأبدت مقاربة من زاوية تنافسها وصراعها مع أمريكا على الجغرافيا السّوريّة، ومارست سياسة انتهازية إلى أبعد الحدود. فروسيّا التي فتحت الأجواء السّوريّة أمام الطيران التركيّ وقوات جيشها لاحتلال عفرين ومناطق كُرديّة أخرى، بالتأكيد لن تدع الكُرد يشاركون في اللّجنة الدّستوريّة.

في حين لم تبدِ الولايات المتّحدة أيَّ اهتمام على مشاركة الكُرد، بل وقفت تتأمّل المشهد وأعمال تشكيل اللّجنة وعملها من بعيد، وكأنّها غير معنيّة بها. اللا اهتمام الأمريكيّ ومن ورائه الأوروبيّ، أفضى لأن تستفرد كلّ من روسيّا، تركيّا، وإيران، بتشكيلة اللّجنة وكذلك سير أعمالها. فعند بروز أيّ مشكلة، إن كان من طرف المعارضة أو النّظام، تهرع الدّول الثّلاثة إلى التدخّل بشكل مباشر.

رغم وعود وتصريحات عدّة مسؤولين روس وأمريكيّين بضرورة مشاركة الكُرد والإدارة الذّاتيّة في اللّجنة الدّستوريّة، إلا أنّها دائماً جوبهت بالفيتو والرّفض التركيّ ومن ورائه المعارضة التي تمثّل حركة الإخوان المسلمين رأس الحربة فيها. وتبيّن في النهاية أنّ تلك الوعود والتصريحات لم تكن سوى للتسويق الإعلاميّ، فلم تظهر جدّيّة لدى الطرفين في إشراك الكُرد في اللّجنة وكذلك في محادثات جنيف.

وفي مؤتمر القاهرة للمعارضة السّوريّة الذي عقد في عام ٢٠١٢، طالب الوفد الكُرديّ المشارك، أن تكون حقوق الكُرد في سوريّا، مادّة فوق دستوريّة، أي أن تُضمن في الدّستور تلقائيّاً وليست بحاجة للاستفتاء عليها بأيّ وقت كان. إلا أنّ المعارضة القوميّة والإسلامويّة عارضت هذا المبدأ.

تبقى هناك فرصة أمام الكُرد لتفعيل دورهم في هياكل المعارضة، عبر بناء مؤسّساتهم على الأرض وتمتين جبهتهم الدّاخليّة، وفتح قنوات اتّصال مع جميع القوى التي لها دور فاعل في الأزمة السّوريّة، على قاعدة الحفاظ على الثّوابت الوطنيّة الأساسيّة في سوريا، وعدم التفريط بالمنجزات التي حقّقتها الإدارة الذّاتيّة طيلة ثماني سنوات، فهي الضمانة الوحيدة للعودة إليهم وإشراكهم في جميع معادلات الحلّ النهائيّ السّوريّ.

العراقيل التي تواجهها اللّجنة الدّستوريّة:

سادت الأوساط السّياسيّة والحقوقيّة مخاوف من عدم تمكّن اللّجنة من إنجاز مهامها المُناطة بها، أو تحقيق الآمال التي عُلّقت عليها من قبل الأطراف التي ساهمت في تشكيلها. وروّجت المعارضة لفكرة أنّ النّظام لن يلتزم، كعادته، بأيّ من مُخرجات اللّجنة، حتّى إن توصّلت إلى وضع دستور سوريّ، فإنّه سيضع العراقيل أمام اللّجنة بالأصل، وبالتّالي إفشالها قبل أن تحقّق شيئاً. وفي هذا الصدد قال وزير الخارجيّة السّوريّ الرّاحل "وليد المعلّم" في إحدى تصريحاته قبيل انعقاد المؤتمرات الدّوليّة حول الأزمة السّوريّة عام ٢٠١١: «سوف نغرقهم بالتّفاصيل، وعليهم ان يتعلّموا السّباحة"، وكان يقصد المعارضة.

حاول النّظام ممارسة الضغوط على أعضاء اللّجنة من ممثّلي المجتمع المدنيّ، عن طريق أجهزته الأمنيّة، وهدّد بعضاً منهم لحملهم على الانسحاب من اللّجنة، ما استدعى أن يقول "ديمستورا" بعد اختطاف أحد أقرباء عضو في اللّجنة: «إنّنا شهدنا عمليّات اختطاف لأفراد من عوائل بعض المشاركين بلجنة صياغة الدّستور". كما تبيّن من خلال مسار تشكيل اللّجنة أنّها – أي اللّجنة – جاءت نتيجة توافقات ومحاصصة دوليّة وإقليميّة، بعيداً عن الكفاءة والتخصص والتمثيل. وقد وجد بعض الخبراء الحقوقيين أنّه كان من المفترض وضع آليّات محدّدة لاختيار الأعضاء، مثل التمثيل الجغرافيّ من جميع المناطق السّوريّة، بحيث لا يتمّ إقصاء أو تهميش أيّ مكوّن منه، وهذا ما لم يتمّ، ما نسف شرعيّة اللّجنة من قبل الشّعب السّوريّ. وأقحمت عدد من الأسماء من طرف المعارضة لا علاقة لها

بالدّساتير والقوانين ولا تمتلك أيّ خبرة. فيما تمّ تغيير قائمة المجتمع المدنيّ عدّة مرّات، نتيجة اعتراض النّظام والمعارضة عليها، وفي النّهاية جرى تشكيلها أيضاً وفق آليّة محاصصة بين المعارضة والنّظام، أي شارك كلّ طرف فيها عن طريق المبعوث الدّوليّ، وبموافقة الدّول الدّاعمة لكلّ طرف.

وما يبدّد من جهود اللّجنة وعملها، هو غياب منهج معيّن لعملها، على ضوء تباين وجهات نظر كلا الطرفين، حيث تصرُّ المعارضة على وضع دستور جديد للبلاد، يقلّل من صلاحيّات الرّئيس ويحوّل نظام الحكم إلى برلمانيّ، وتحدّد ولاية الرّئيس بولايتين فقط. فيما يتمسّك النّظام بتعديل بعض المواد والفقرات من الدّستور الذي أعدّه عام ٢٠١٢، ويدّعي أنّه جاء ليلبّي مطالب الشّعب السّوريّ. هذه إحدى النّقاط الخلافيّة الكبيرة بين الطرفين، ما ينسف جهود المجتمع الدّوليّ في التوصّل إلى رؤية مشتركة بين الطرفين.

ويذهب العديد من خبراء القانون إلى الاعتقاد أنّ اللّجنة لن تتوصّل إلى وضع دستور جديد لسوريّا، بسبب الألغام التي وضعت أمام عملها، فـ"عقدة القواعد الإجرائيّة وطريقة العمل والنّظام الدّاخليّ وطريقة التصويت، ومدّة عمل اللّجنة، وصلاحيّة أعضائها، ومن المُراقِب لعملها، وكيف تعتبر جلساتها قانونيّة، وموضوع نسب التصويت، وغيرها من الأمور الإجرائيّة التي لم يتمّ الاتّفاق عليها"، حسب أحد القانونيين. فأيّ قرار من اللّجنة يحتاج إلى موافقة ٧٥٪ من الأعضاء، أي /١١٣/ عضواً من أصل /١٥٠/، وتسري ذات الآليّة على اللّجنة المصغّرة أيضاً أي موافقة /٣٤/ عضواً من أصل /٤٥/ عضو. هذه الآليّة بحدّ ذاتها تجعل من صدور أيّ قرار عن اللّجنة شبه مستحيل.

التفاصيل الأخرى تبدو أكثر صعوبة من المبادئ الأساسيّة التي لم يتمّ التوافق عليها، أو بالأحرى لم يتمّ مناقشتها بالأصل في الجلسات التي عقدتها اللّجنة. فقد حاول وفد النّظام إضاعة الوقت حول مسائل لا علاقة لها بعمل اللّجنة، مثل إدانة الإرهاب وحلّ التنظيمات المسلحة، فيما وفد المعارضة أصرّ على إطلاق سراح المعتقلين والسّماح بعودة اللّاجئين والنّازحين إلى منازلهم وإسقاط التُّهم الموجّهة إلى أبناء الشّعب السّوريّ ممّن هم خارج مناطق سيطرة النّظام.

ويتساءل العديد من المراقبين عن مرجعيّة اللّجنة الدّستوريّة، وكيف سيتمّ تطبيق الدّستور في حال تمّ التوافق عليه، هل من خلال استفتاء من قبل الشّعب، أم سيفرضه مجلس الأمن؟ كما أنّ شكل الدّولة السّوريّة المستقبليّة وفق الدّستور المأمول، أيضاً هو موضوع خلاف كبير بين المعارضة والنّظام، ففيما قسم من الأولى تتطلّع إلى دولة إسلاميّة، كجماعة الإخوان المسلمين، وقسم آخر يصرّ على أن تكون سوريّا دولة لا مركزيّة أو حتّى فيدراليّة، فإنّ النّظام يُصرُّ على مركزيّة الدّولة وتكون السُّلطات محصورة بالمركز. هذا الانقسام في الرؤى، مردّه

> **"كان لتركيّا الدّور البارز والرّئيسيّ في ممارسة الضغوط على الائتلاف السوري لحملها على رفض التمثيل الكُرديّ ضمن المعارضة السّوريّة. فتركيّا المُصابة بالفوبيا الكُرديّة، تتخوّف من مشاركة ممثّلي الشّعب الكُرديّ في أيّ من هياكل المعارضة ومؤسّساتها وبالتالي حصولهم على اعتراف دوليّ رسميّ، يؤهّلهم لنيل حقوقهم المشروعة ضمن سوريّا ديمقراطيّة مستقبلاً."**

”ما يبدّد من جهود اللّجنة الدستورية وعملها، هو غياب منهج معيّن لعملها، على ضوء تباين وجهات نظر كلا الطرفين، حيث تصرُّ المعارضة على وضع دستور جديد للبلاد، يقلّل من صلاحيّات الرّئيس ويحوّل نظام الحكم إلى برلمانيّ، وتحدّد ولاية الرّئيس بولايتين فقط. فيما يتمسّك النّظام بتعديل بعض المواد والفقرات من الدّستور الذي أعدّه عام ٢٠١٢، ويدّعي أنّه جاء ليلبّي مطالب الشّعب السّوريّ“

إلى الجهات الدّوليّة والإقليميّة التي تدعم بعض أطراف المعارضة. ”فالولايات المتّحدة وحلفاؤها يؤيّدون حكومة غير مركزيّة أو فيدراليّة، لكن تركيّا تعارض ذلك، كذلك فإنّ إيران وروسيّا تؤيّدان حكومة موحّدة مركزيّة. كذلك هنالك خلاف حول قضايا المواطنة والحصول على الجنسيّة، والعدالة الانتقاليّة والمصالحة الوطنيّة، وعودة النّازحين واللّاجئين، وانتشار السّلاح والجماعات المسلّحة غير النّظاميّة، والتواجد الأجنبيّ في سوريّا، وغيرها من القضايا الشائكة“. وهي قضايا وأسئلة معلّقة ولا يعتقد أحد بأنّ اللّجنة أو حتّى الكيانات السّياسيّة للمعارضة والنّظام قادرةٌ على الإجابة عليها.

هل يمكن إنقاذ اللّجنة من الفشل..؟

منذ بداية الإعلان عن تشكيل اللّجنة، لم يشعر أيّ سوريّ بالتفاؤل حيالها، أو عقد عليها الآمال في الوصول بسوريّا إلى دولة ديمقراطيّة يحكمها القانون والدّستور، لقناعته أنّ المشكلة لا تكمن في الدّستور، بل فيمن يطبق ويشرف على تطبيق الدّستور، خاصّة بعد أن فقد ثقته بكلّ من النّظام والمعارضة، على حدٍّ سواء.

فقضيّة الدّستور بحاجة إلى نشر «ثقافة دستوريّة تحترم الدّولة وتصون الدّستور»، فيما لا تزال ثقافة القطيع والرّئيس الأوحد والاعتقاد الدّينيّ بإمكانيّة إدارة الدّولة وفق الشّريعة الإسلاميّة، راسخاً في البنية الثّقافيّة والذّهنيّة للمجتمع السّوريّ، مضافاً إليها النّهج الإقصائيّ وعدم قبول الآخر المختلف معها، أمراً يزيد في تعقيد الأزمة. هذه الاتّجاهات الرّاديكاليّة والإلغائيّة تغذّيه أطراف المعارضة والنّظام، لا بل تُصرَّ على ديمومتها وتعتبرها أنّها الأصلح والأنسب للسوريّين في كلّ الأزمان. هذه التعبيرات عكست نفسها ضمن اللّجنة الدّستوريّة بشكل أوضح. فإقصاء الكُرد من المشاركة في اللّجنة، إنّما جاء بموافقة المعارضة والنّظام، ورُبّما هي القضيّة الوحيدة التي اتّفق الطرفان حولها.

وللأسباب المذكورة أعلاه؛ لا يُعوّل السّوريّون على دستور يكتب تحت الإملاءات الإقليميّة والدّوليّة وبأيدي لا سوريّة. فأيّ دستور يجب أن يضمن حقوق جميع المكوّنات السّوريّة، دون النّظر إلى عددها وحجمها، هذا إن كنّا نريد دستوراً يُنصِف السّوريّين جميعاً، لا أن يمثّل حقوق فئة ويحمي مصالحها، أو يكون مسبوغاً بلون دينيّ وطائفيّ ويخضع لإرادة الأغلبيّة. فالمسألة الجوهريّة في أيّ دستور سوريّ مستقبليّ، هو الابتعاد عن الأخذ بمفهوم الأغلبيّة والأقلية، وأن يعتمد التمثيل العادل والوازن لكلّ المكوّنات الدّينيّة والعرقيّة في سوريّا، وكلّ الاعتقاد أنّ أعضاء اللّجنة بعيدون عن هذه الثّقافة.

ونظراً للانقسام الحاصل في سوريّا ما بين الولاءات الطائفيّة والمذهبيّة والعرقيّة، وعدم تبلور خطّ وطنيّ ثابت يُعتمد عليه في صوغ وإعادة تشكيل الدّولة السّوريّة، فإنّه من المرجح أن يكون الدّستور المزمع مؤقتاً خلال المرحلة الانتقاليّة، ليُصار إلى وضع دستور دائم تحت إشراف الأمم

المتّحدة في مرحلة لاحقة بعد وضع نهاية الأزمة السّوريّة وفي أجواء من الاستقرار والتّوافق بين السّوريّين أجمع. إلا أنّ هذه المرحلة تبدو بعيدة نسبيّاً، نظراً للتدخّلات الأجنبيّة والإقليميّة في مسارات الأزمة وتفاصيلها، فيجب في البداية إنهاء احتلال الأراضي السّوريّة، وخروج القوّات الأجنبيّة من أراضيها، وعودة السّيادة السّوريّة على جميع أراضيها وإداراتها ومؤسّساتها. فلا يمكن الحديث عن دستور سوريّ ومناطق إدلب وعفرين وسري كانيه/ رأس العين وكري سبي/ تل أبيض والباب وإعزاز محتلّة من قبل الدّولة التركيّة ومنسلخة عن السّيادة السّوريّة، كذلك التغلغل الإيرانيّ في مؤسّسات الدّولة السّوريّة، ونشر التشيّع، هو الآخر يُعدُّ عاملاً ينسف كلّ الجهود للتوصّل إلى دستور سوريّ يحمي السّيادة السّوريّة. فيما السّيطرة الرّوسيّة على مرافئها وتحكّمها بقوّاتها العسكريّة وقرارها السّياسيّ والاقتصاديّ، ينزع صفة المشروعيّة عن أيّ دستور يوضع في هذه الظروف.

ونظراً لأنّ اللّجنة تشكّلت وفق مبدأ المحاصصة بين المعارضة والنّظام، وليس على مبدأ الكفاءات القانونيّة، فإنّه تزداد المخاوف أن تجد هذه المحاصصة تمثيلاً لها في تفاصيل الدّستور، ليتمّ وضعه على أساس الانتماءات القوميّة والدّينيّة، على غرار ما حصل في اتّفاق الطائف بخصوص لبنان عام ١٩٨٩ الذي نصّ أن يكون «رئيس الدّولة ماروني، رئيس الحكومة سنيّ، ورئيس مجلس النوّاب شيعيّ». وفي هذه الحالة لا يمكن إنقاذ البلاد من التقسيم، بل نجد أنّ هذا الدّستور يكرّس التقسيم.

ونظراً لأنّ اللّجنة، وخلال اجتماعاتها الخمسة التي عقدتها، لم تتمكّن من الدّخول في تفاصيل وضع مسوّدة دستور لسوريا، فإنّ الدّعوات كَثُرَت بحلّها والتشديد على عدم التعويل عليها أبداً. ونلمس في ثنايا عمل اللّجنة؛ أنّها تُسقط سياسات وأجندات دول إقليميّة على عملها، وكأنّها تسعى إلى تمثيل مصالحها وليس مصالح السّوريّين. فلم يطرح وفد المعارضة والنّظام علناً بإنهاء الاحتلالات على الأرض السّوريّة، أو مناقشته. هذا التّفصيل يراه خبراء قانونيين أنّه مهمّ جدّاً، بل يحدّد بوصلة عمل اللّجنة، ويحرّرها من الإملاءات الخارجيّة، ويبدو أنّ هذه القضيّة أيضاً بعيدة المنال وتعتبر ضرباً من المستحيل في ظلّ التّوازنات السّياسيّة والعسكريّة الرّاهنة.

خاتمة:

في ظلّ الإشكاليّات المتعلّقة بعمل اللّجنة وتشكيلتها غير المنسجمة، يسود اعتقادٌ قويٌّ بين الأوساط الحقوقيّة والسّياسيّة السّوريّة الوطنيّة وكذلك الدّوليّة والإقليميّة، بأنّ اللّجنة عاجزةٌ عن وضع دستور وطنيّ سوريّ يلقى قبولاً لدى جميع السّوريّين على مختلف انتماءاتهم الدّينيّة والإثنيّة، وأنّه يتوجّب قبل التفكير والعمل على وضع الدّستور، وقف المقتلة السّوريّة، وعودة اللّاجئين والنّازحين وإطلاق سراح المعتقلين وإنهاء مظاهر التسلّح في البلاد، ليتسنّى لجميع السّوريّين إبداء رأيهم في الدّستور، دون استبعاد لأيّ مكون. وبدلاً من إضاعة الوقت على اللّجنة الدّستوريّة؛ فإنّه ينبغي تنفيذ حلّ سياسيّ وفق القرارات الدّوليّة وأهمّها القرار /٢٢٥٤/ ومقرّرات مؤتمري فيينا، حينها ستتولّد الرّغبة في وضع دستور ملائم، دون تدخّل الدّول النّافذة في الأزمة السّوريّة.

مسارات صراع أمريكا مع روسيّا والصين في منطقة الشرق الأوسط

جميل رشيد

تمهيد:

تشكّل العلاقات الرّوسيّة – الصّينيّة، وكذلك الصّينيّة – الأمريكيّة، عُقدة الحلّ والرَّبط والتكوين للعلاقات الدّوليّة في وقتنا الرّاهن، وهي تؤسّس بحكم ديناميّاتها مسارات دائمة ومتجدّدة في أشكال الاصطفافات والتّحالفات بين الدّول. لقد توضّحت الخطوط المحدّدة لنماذج جديدة في العلاقات الدّوليّة أكثر على وقع الصراع والتّنافس القائم بين القوى الثّلاث المتصدّرة للمشهد الدّوليّ، وعلى مستويات عدّة، وكان أهمّها الاقتصاديّ والعسكريّ والسّياسيّ، وتدور حول الفكرة الغائيّة المتمثّلة بالاستحواذ على مناطق نفوذ في مختلف مناطق العالم.

ففيما تسعى الولايات المتّحدة الأمريكيّة جاهدةً للاحتفاظ بمكانتها وتصدّرها المشهد الدّوليّ، كقوّة مستفردة بالسيطرة المباشرة وغير المباشرة على عالمنا الرّاهن، فإنّه في الوقت نفسه، تنذر بأفول شمس القطبيّة الأحاديّة التي تحكّمت فيها الولايات المتّحدة الأمريكيّة بهندسة العلاقات الدّوليّة بما يتوافق مع مصالحها كدولة عظمى، من حيث امتلاكها القدرات والمؤهّلات التي يجعل لها حضوراً قويّاً ومباشراً في معظم الملفّات السّاخنة والحيويّة في العالم.

أظهرت كلٌّ من روسيّا والصّين فاعليّة كبيرة في توسيع نفوذهما في العالم، وخاصّة في منطقة الشّرق الأوسط والمحيط الهادئ، في تحدٍّ للنّفوذ الأمريكيّ، وهو ما ولّد صراعاً خفيّاً وظاهراً في الوقت نفسه، حول كسر الهيمنة الأمريكيّة على العالم، وإعادة روسيّا لدورها الفاعل على الصعيد العالميّ كقوّة عظمى، فيما يسعى التّنين الصّينيّ إلى التسلّل بهدوء في عدّة مناطق في العالم، مستخدماً قوّته الاقتصاديّة النّاعمة، غير معتمد على التدخّلات العسكريّة الفظّة التي ترتَدُّ عليها سلباً، لتعيد إحياء مشروعيها "طريق الحرير" و"الحزام"، كاستراتيجيّة اقتصاديّة وسياسيّة في الوصول والسيطرة على مصادر الطّاقة وطرق المواصلات البرّيّة والبحريّة والمضائق، والتحكّم بالأسواق العالميّة، عبر اتّباعها أسلوب المزاوجة بين الإنتاج الرّأسماليّ والتخطيط المركزيّ الاشتراكيّ، لتغدو قوّة اقتصاديّة تهدّد أكبر اقتصاديّات العالم، وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

فيما تحاول روسيّا «البوتينيّة» إعادة لعب دور الاتّحاد السّوفيّيتي السّابق، عبر تدخّلها في مناطق الصراع السّاخنة، عسكريّاً وسياسيّاً، وتسجيل حضور مكثّف لها في مختلف الأزمات، وبالأخصّ في منطقة الشّرق الأوسط، معتمدة على قوّتها العسكريّة المتطورة، لتعيد تثبيت قدمها في عدّة مناطق وتغيّر معادلات التّوازن على الأرض.

اتّجهت روسيّا في السنوات الأخيرة نحو التصعيد العسكريّ مع الولايات المتّحدة في عدّة مناطق حيويّة من العالم، كجزء من استراتيجيّتها العسكريّة والاقتصاديّة والسّياسيّة في توسيع مناطق نفوذها، عبر التّواجد في البحار والمحيطات، لتنافس فيها الولايات المتّحدة الأمريكيّة، لتبدأ بتنفيذ الخطوات الأولى لمشروعها الأوراسي، عبر التمدّد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وتشكيل تحالفات إقليميّة تحدُّ من الهيمنة الأمريكيّة على العالم، باحثة عن جغرافيّات تمارس فيها دورها كدولة تتحكّم في رسم مستقبل العلاقات والتّوازنات السّياسيّة والعسكريّة الدّوليّة. وجعلت روسيّا من منطقة الشّرق الأوسط وتركيّا وإيران والصّين نقاط ارتكاز أساسيّة لها في تنفيذ مشروعها، ليذهب العديد من الباحثين إلى حدّ الاعتقاد بأنّها تحاول استعادة دور الاتّحاد السوفياتي السّابق في إطار السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ، ولكن تحت عنوان "المشروع الأوراسي" الذي يجمع بين قارتي آسيا وأوروبا.

لعلّ المصالح الاقتصاديّة والوصول إلى مصادر الطّاقة من نفط وغاز، هي المحرّك والدّافع الأكبر للقوى العالميّة للدّخول في صراعات مختلفة، وخاصّة في منطقة الشّرق الأوسط، ما جعل منها ساحة دائمة للصراع والحروب والنّزاعات الدّوليّة، لتنعكس سلباً على استقرار بلدانها، بعد أن أدّى تدخّل تلك القوى في دول المنطقة إلى ترسيخ أنظمة استبداديّة فُرِضَت على شعوبها دون إرادتها، لتستفرد بالقرارات المصيرية لبلدانها وتقيّد حُرّيّة مجتمعاتها، وتبدّد قدراتها الاقتصاديّة في حروب ونزاعات وهميّة لا طائل منها.

سنحاول في دراستنا أن نعرج على المفاصل الرّئيسيّة للصراع الخفيّ بين كلّ من الصّين والولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتصاعد نبرة المواجهة بينهما، رغم أنّها لا تزال في حدود الصراع الاقتصاديّ، والذي قد يتطوّر إلى صراع عسكريّ مع تحوّل الصّين إلى قوّة اقتصاديّة عظمى، تزاحم الولايات المتّحدة في العديد من مناطق العالم الحيويّة. كما أنّ التّعاون الرّوسيّ – الصّينيّ في

عدد من المجالات، وخاصّة العسكريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، يصل في بعض الأحيان إلى التّكامل، ما يجد تعبيراته المباشرة في منطقة الشّرق الأوسط، على اعتبار أنّها المنطقة الأكثر أهميّة لجميع القوى. وسنتطرّق إلى آفاق تطوّر هذا الصراع، وهل سيصل إلى مرحلة المواجهة العسكريّة، وانعكاسه على شعوب المنطقة في خضّم حالة الارتياب واللا استقرار التي تعيشها بعد اندلاع ربيع ثورات الشّعوب في العقد الثّاني من الألفيّة الثّانيّة.

كما نجد أنّه من المهمّ قراءة هذا الصراع وتأثيراته على القضيّة الكُرديّة وحلولها، على اعتبار أنّها قضيّة تستقطب اهتمام القوى العظمى. وكذلك معرفة كيفيّة تناول تلك القوى للقضيّة من منطلق قضيّة شعب يسعى نحو حُرّيّته. وكذلك تبيان المقاربات التي أبدتها مقارنة بمواقفها وقراراتها الإقصائيّة السّابقة. وكذلك تقتضي الضرورة البحثيّة أن نلقي ضوءاً على الدّور التركيّ في هذا الصراع، بعد أن غدت عنصراً يهدّد استقرار المنطقة، عبر تدخّلها المباشر في عدد من دول المنطقة مثل سوريّا وليبيا واليمن والعراق.

استراتيجيّة الصّين في منطقة الشّرق الأوسط

بعد أن حقّقت الصّين تطوّراً اقتصاديّاً مذهلاً مع بداية الألفيّة الثّانية، رافقها حاجتها الماسّة إلى مصادر الطّاقة وأسواق لتصريف بضائعها، غدت تتحرّك كقوّة «إمبرياليّة» تبحث عمّا يمدّ اقتصادها بشريان الحياة. فاتّجهت أنظارها نحو منطقة الشّرق الأوسط وأولتها أهمية كبيرة، لما تمتلكه المنطقة من ٥٦٪ من الاحتياطات العالميّة من النفط، وكذلك من الغاز. واعتمدت الصّين من البداية استراتيجيّة هادئة وناعمة لتمدّدها، وعدم افتعالها أيّ بؤر توتّر على غرار الولايات المتّحدة الأمريكيّة وروسيّا، وربّما هذا مردّه بالدّرجة الأولى التقاليد والثّقافة الكونفوشيوسيّة الصّينيّة، وإدغامها مع الأيديولوجيّة الشّيوعيّة التي انتهجتها بعد انتصار ثورتها الاشتراكيّة على يد مؤسّسها ماوتسي تونغ، كما أنّ العامل الدّيمغرافي ساعدها في تجاوز العديد من المنغّصات، حيث أنّها استندت إليه في بناء قوّة الصّين الاقتصاديّة والعسكريّة.

تسعى الصّين دائماً إلى الوصول إلى مصادر الطّاقة في منطقة الشّرق الأوسط، وقد وضعتها استراتيجيّة عليا لها، حيث أنّ المنطقة توفّر ما نسبته ٤٧٪ من إمداداتها النّفطيّة، وتخشى انقطاع هذا الإمداد بفعل التدخّلات الأمريكيّة في المنطقة. ووفق ما ذكره "الدّكتور خضر عباس عطوان" في دراسة له بعنوان "مستقبل العلاقات الأمريكيّة الصّينيّة"، التّابع لـ"مركز الإمارات للدّراسات والبحوث الاستراتيجيّة" في فبراير/ شباط ٢٠٢١، حول سعي الصّين لديمومة تدفّق النّفط إليها من دول الخليج العربيّ، أنّها تضع ضمن استراتيجيّاتها طويلة الأمد إعداد قوّة ردع أمام أمريكا، إلى جانب تحفيز دول الخليج على فتح أسواقها أمام البضائع الصّينيّة المنافسة لمثيلاتها الأمريكيّة. ورغم أنّ الصّين ليست في الموقع الذي يؤهّلها فتح أيّ مواجهة عسكريّة مع الولايات المتّحدة، إلا أنّها تعتمد على أساليب الرّدع الدّبلوماسية كسبيل للحفاظ على مكاسبها في المنطقة، وتحاول إمساك العصا من المنتصف، دون الإخلال بتوازنات القوى في المنطقة.

لم تعتمد الصّين أيّ سياسة عسكريّة للتوسّع في الشّرق الأوسط، ولم تجنح إلى إقحام نفسها في الصراعات الدّاخليّة في بلدان المنطقة مثل الولايات المتّحدة، كذلك لم تتورّط في دعم طرف على حساب طرف آخر، بل حافظت على مسافة واحدة من جميع أطراف الصراع في المنطقة وفي الدّولة الواحدة، حتّى في ملفّ الأزمة السّوريّة، التي سنأتي إليه لاحقاً بشيء من التّفصيل، لم تنتهج سياسات عدائيّة للنّظام أو المعارضة مثل روسيّا، رغم استخدامها لحقّ النّقض (الفيتو) عدّة مرّات ضدّ مشاريع قرارات غربيّة في مجلس الأمن لصالح النّظام السّوريّ،

"يعتقد العديد من الخبراء الإستراتيجيّين أنّ القوّة الأمريكيّة وقيادتها للعالم، إنّما تنبع من قوّتها العسكريّة والاقتصاديّة، حيث استطاعت الولايات المتّحدة الأمريكيّة خلال السنوات الأولى من الألفيّة الثّانية أن تنتج بمفردها 25% من جملة النّاتج العالميّ، رغم أنّ عدد سكّانها لا يتجاوز 5% من عدد سكّان العالم، فيما لديها ما يقارب من 250 ألف جنديّ منتشرين حول العالم وفي أكثر من /700/ قاعدة عسكريّة موزّعة على /130/ دولة."

وهذا ما أكسبها قوّة سياسيّة إضافيّة إلى رصيدها السّياسيّ، ومنحها قدرة أكبر للتحرّك بكافّة الاتّجاهات للحفاظ على مصالحها الحيويّة في سوريّا المستقبل.

تتبنّى الصّين مواقف سياسيّة أكثر اعتدالاً من الأزمات التي تمرّ بها المنطقة، وحصرتها في المقاربة التّجارية والاقتصاديّة، على عكس الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فهي لم تطوّر عقيدة عسكريّة توسّعيّة لدى الجيش الصّينيّ، وحصرت مهامه في الدّفاع عن الصّين ضدّ الأخطار والتهديدات الخارجيّة، ولم تعتبر في يومٍ ما أنّ أمنها القوميّ يتهدّد في منطقة الشّرق الأوسط أو أيّ منطقة أخرى في العالم على غرار أمريكا.

وفق هذه الاستراتيجيّة التي اتّبعتها الصّين؛ جنحت معظم دول المنطقة إلى إقامة علاقات اقتصاديّة وتجارية واسعة معها، وفتحت أبوابها على مصراعيها أمام تدفّق بضائعها ذي التكلفة المنخفضة، ما حدا بتلك الدّول، وخاصّة دول الخليج العربيّ إلى النّظر إليها كبديل عن الولايات المتّحدة الأمريكيّة كشريك تجاريّ أوّلي من جهة، ومن جهة أخرى لاستخدامها كورقة ضغط ضدّ الأخيرة، رغم القناعة الرّاسخة لديها بأنّها لا يمكن أن تستغني عن الولايات المتّحدة في قضايا الأمن والدّفاع عن أنظمتها. وهذه المسألة بالذّات تشكل تحدّياً كبيراً لأمريكا أمام تغلغل الصّين في اقتصاديّات دول المنطقة، واعتمادها عليها في تدفّق السّلع والبضائع الصّينيّة، مقابل انكماشها – نوعاً ما – في التّعامل الاقتصاديّ مع أمريكا. ولا يبدو، حسب خبراء ومحلّلين اقتصاديّين وسياسيّين يراقبون صعود نجم الصّين في المنطقة، أنها – أي الصّين – في وارد التدخّل في الشؤون الدّاخليّة لبلدان الشّرق الأوسط، أو حمايتها من الهزّات العنيفة التي تتعرّض لها أنظمتها من الدّاخل، بفعل الحراك الدّاخليّ لشعوبها ضدّها، في ذات الوقت تجد تلك الدّول نفسها مطمئنّة نوعاً ما من أن تحاول الصّين فرض أيديولوجيّتها الشّيوعيّة عليها أو تملي عليها شروطها في إقامة علاقات اقتصاديّة متطوّرة معها.

من جانبها تراقب الولايات المتّحدة الأمريكيّة عن كثب وبحذر وقلق شديدين التدخّلات الرّوسيّة في المنطقة، وكذلك التمدّد الاقتصاديّ الصّينيّ، ما حدا بقائد القيادة المركزيّة الأمريكيّة الجنرال "كينيث ماكينزي" إلى القول في عام ٢٠٢٠ بأنّ "الشّرق الأوسط أصبح ساحة صراع بين القوى الكبرى، حيث تسعى الصّين لاستخدام ثقلها الاقتصاديّ في بناء رأس جسر استراتيجيّ طويل المدى، بينما تنشر روسيّا قدرات عسكريّة ضئيلة، لكنّها عالية التركيز لعرقلة الولايات المتّحدة".

ملامح السّياسة الرّوسيّة في الشّرق الأوسط:

اتّبعت روسيّا سياسة عسكريّة فظّة للتدخّل في شؤون المنطقة. فمنذ بداية تدخّلها في سوريّا نهاية سبتمبر/ أيلول ٢٠١٥، بدا واضحاً

من خلال تتبّع مساراته غياب رؤية استراتيجيّة روسيّة حيال المنطقة، في حين كانت أكلافها الاقتصاديّة باهظة على الخزينة الرّوسيّة، التي تعاني بالأصل من صعوبات كبيرة بفعل تَبِعات العقوبات الاقتصاديّة والتّجارية التي فرضتها عليها الولايات المتّحدة والاتّحاد الأوروبيّ بعد ضمّها لشبه جزيرة القرم إلى أراضيها.

انعكست الأزمة الاقتصاديّة الرّوسيّة على دورها السّياسيّ والعسكريّ في سوريّا بشكل مباشر، فرغم أنّها لم تتمكن من الوصول والسّيطرة على منابع النّفط السّوريّ إلا بنسبة ضئيلة، ولم تتمكّن من إنجاز حلّ سياسيّ ناجز، واقتصر دورها على تعزيز مكانة النّظام ومحاولة تعويمه وشرعنته من جديد، إلا أنّها اصطدمت بالرّفض الأمريكيّ المثبّط لدورها، فعوّلت على تحقيق نصر عسكريّ نهائي يُعيدُ لها مكانتها، إلا أنّها لم تحقّق أهدافها، رغم أنّها وقّعت مع النّظام اتّفاقيّات استراتيجيّة طويلة الأمد، كاتّفاقيّة استثمار ميناء طرطوس ومطار دمشق الدّوليّ وغيرها من الاتّفاقيّات السّرّيّة التي لم يُكشف عنها إلى الآن، إلا أنّها منيت بخسائر كبيرة أيضاً، وظلّ المُنجز الرّوسيّ في سوريّا مرهوناً بالموافقة والرّضا الأمريكيّ، دون أدنى شكّ.

لكن الصحيح أيضاً أنّ تمدّد روسيّا في منطقة الشّرق الأوسط مبعثه ليس فقط ملء الفراغ الإقليميّ الذي تركته أمريكا بعد انسحاب قوّاتها من العراق، واعتمادها على حكومات دول وأنظمة موالية لها في الحفاظ على مصالحها الاستراتيجيّة، بل نلمس رغبة روسيّة أوسع وأكبر في استعادتها لمكانتها كـ"قوّة عظمى"، فهي تسعى جاهدة للوصول إلى مصادر الطّاقة والحفاظ على مكانتها في سوق بيع الأسلحة كمصدّر أساسيّ لها، وهو ما وضعه الرّئيس الرّوسيّ فلاديمير بوتين ضمن استراتيجيّة بلاده في التنافس مع الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فقد حظي بتوقيع عقود بيع منظومات صواريخ "إس – ٤٠٠" مع كلّ من السّعوديّة وتركيّا، فيما وقّع مع تركيّا اتّفاقيّة السيل التركيّ للغاز الرّوسيّ ووصوله إلى الأسواق الأوروبيّة عبر الأراضي التركيّة، بعد أن تعذّر مرور أنابيبه عبر أوكرانيا، إلى جانب توسيع مجال التّبادل التّجاريّ بينها وبين دول المنطقة، وتطلّعها إلى تنشيط علاقاتها العسكريّة والاقتصاديّة مع كلّ من مصر ودول الخليج العربيّ.

وحدّدت الدّراسة التي أعدّها "مركز الإمارات للدّراسات والبحوث الاستراتيجيّة» دوافع روسيا للتوجّه نحو منطقة الشّرق الأوسط، وتتمثّل في:

١ – إجبار الولايات المتّحدة على تفهُّم مصالح روسيّا، والتّعامل معها كقوّة عظمى مكافئة لها.

٢ – الدّوران حول جبهة الناتو الجنوبيّة في كلّ من منطقتي شرق وجنوب المتوسّط (سوريّا وليبيا).

٣ – تعزيز العلاقات الرّوسيّة مع إيران، ومحاولة إطالة أمد الخلاف بين تركيّا وحلف الناتو.

كما تحاول روسيّا التموضع في المنطقة والوصول إلى المياه الدّافئة، إن كان في البحر الأبيض المتوسّط أو الخليج العربيّ، إلا أنّ ما يَحدُّ من التمدّد الرّوسيّ في المنطقة قدرتها المحدودة على فرض سيطرتها على البحار، لافتقارها إلى تلك القوّة البحريّة من حاملات طائرات وسفن حربيّة كبيرة، تؤهّلها للسيطرة على الممرّات والطرق البحريّة التّجاريّة، لتستخدمها ورقة ضغط ضدّ أمريكا والدّول الغربيّة عموماً، فهي تمتلك عدداً محدوداً من تلك القطع البحريّة وحاملات الطائرات، لا يمكنها من المناورة وفرض سيطرتها ونفوذها في البحار والمحيطات كما هي أمريكا. فالصراع بين القوّة البرّيّة المتمثّلة بـ"التيلوكراتيا" والقوّة البحريّة المتمثّلة بـ"التالاسوكراتيا" هي راجحة لصالح أمريكا، حسب خبراء استراتيجيّين.

واتّضح خلال العشر سنوات المنصرمة من عمر ثورات "ربيع الشّعوب" في المنطقة، أنّ روسيّا انحازت إلى الحكومات وأنظمة الحكم، دون أن تراعي مطالب الشّعوب في التحرّر

والدّيمقراطيّة، وهي لطالما استخدمتها أمريكا ورقة تُضعِف الدّور الرّوسيّ، وتَحُدُّ من قدرتها على كسب حلفاء جُدُد إلى جانبها.

الاستراتيجيّة الرّوسيّة – الصّينيّة المشتركة ضدّ أمريكا في الشّرق الأوسط:

انبرت العديد من الأوساط البحثيّة والمسؤولين الأمريكان إلى انتهاج لهجة التحذير ضدّ مخاطر التمدّد الرّوسيّ والصّينيّ على مصالح الولايات المتّحدة في العالم وخصوصاً في الشّرق الأوسط، وإن كان البعض يميل إلى استخدام خطاب أقلّ حدّيّة من غيره، إلا أنّها في النّهاية ترفع الإشارات الحمراء أمام صعود قوى أخرى مناوئة لأمريكا، ما يُهدّد تفرّدها بقيادة العالم، على عكس توقّعات منظّري العولمة من ميشيل فوكوياما ومن قبله زبيغنو بريجنسكي مستشار الأمن القوميّ الأمريكيّ في عهد الرّئيس الأسبق جيمي كارتر، من أنّ أمريكا تسيّدت قيادة العالم دون منازع. فالتحرّكات الرّوسيّة بالتنسيق مع الصّين في عدّة ملفّات دوليّة شائكة ومعقّدة كالملفّ السّوريّ، واتّخاذهما مواقف مشتركة في مجلس الأمن، وضعت أمريكا في وضع لا تُحسد عليه، وبدأت تحتسب لكلّ خطوة لهما، للحفاظ على موقعها وريادتها في العالم.

التّنسيق الرّوسيّ – الصّينيّ لم يتجاوز الجوانب التكتيكيّة، ولم تتطوّر بعد لتصلَ إلى توحيد مواقفهما وجهودهما في القضايا الاستراتيجيّة، وجلّ ما تسعيان إليه هو لجم وتحديد قوّة الولايات المتّحدة في منطقة الشّرق الأوسط، دون الذّهاب بعيداً في فتح مواجهة دبلوماسيّة وعسكريّة معها في المنطقة. فالإيديولوجيّة والثّقافة الصّينيّة بحدّ ذاتها تشكل مانعاً أمام الحكومة والقيادة الشّيوعيّة الصّينيّة في إثارة أيّ نزاع وصراع عسكريّ مفتوح مع الولايات المتّحدة، في حين أنّ روسيّا هي الأخرى غير قادرة على الصعيد الاقتصاديّ في تصعيد المواقف مع الولايات المتّحدة. فالإحصائيّات التي نشرتها العديد من مراكز الأبحاث الاستراتيجيّة حول القُدُرات العسكريّة الصّينيّة والرّوسيّة وكذلك الاقتصاديّة، تشير إلى فوارق كبيرة بينها وبين الولايات المتّحدة، فضلاً عن أنّ العقوبات التي تفرضها الأخيرة على الدّولتين، تشكّل عاملاً ضاغطاً عليها وتَحُدُّ من قدراتها على المناورة والتصعيد معها.

مظاهر وتجلّيات العلاقات الرّوسيّة – الصّينيّة في الشّرق الأوسط:

شكّلت الأزمة السّوريّة عامل جذبٍ واستقطابٍ للقوى الأجنبيّة نحو المنطقة، وغدت بؤرة صراع قويّة بينها، لتعمد إلى تحشيد قوّاتها العسكريّة فيها، سعياً منها إلى زيادة نفوذها. فرغم أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة تحتفظ بقوّات برّيّة وبحريّة دائمة التّواجد في عدد من دول المنطقة، مثل الأسطول السّادس العائم في البحر الأبيض المتوسّط، إلى جانب قاعدة (العديد) في قطر، وكذلك "إنجيرلك" في تركيّا وغيرها، إلا أنّها زجّت بأعداد إضافيّة من قوّاتها في المنطقة، تحسّباً لفقدانها مواقعها الحيويّة والاستراتيجيّة. بالمقابل وجدت كلّ من روسيّا والصّين في اندلاع الأزمة السّوريّة، مناسبة في توجيه قوّاتها العسكريّة إلى سوريّا، حيث أجرت البحريّتان الرّوسيّة والصّينيّة أوّل مناورات مشتركة في البحر الأبيض المتوسّط، في ١١ مايو/ أيّار ٢٠١٥، في مسعى منهما إلى مدّ نفوذهما في منطقة الشّرق الأوسط. وشاركت الصّين بعدد محدود من قوّاتها العسكريّة في معارك مع الجيش السّوريّ في بعض مناطق سوريّا، كجزء من التزاماتها في مكافحة الإرهاب، والقضاء على مجموعات الإيغور الصّينيّة التي تقاتل ضدّ قوّات النّظام السّوريّ ضمن مجاميع إرهابيّة.

أحياناً تظهر خلافات وتناقضات بين القوّتين – أي روسيّا والصين – تجعلهما تخطّطان بشكل منفصل، مثل تركيّز الصّين على استخدام ثقلها الاقتصاديّ للتمدّد في المنطقة وبناء تحالفات تجاريّة واقتصاديّة بمعزل عن روسيّا،

وفي أحيان كثيرة قد تتناقض هذه المساعي مع المصالح الرّوسيّة في الشّرق الأوسط، مثل توقيع الصّين عدّة اتّفاقيّات مع دول الخليج وإيران لتوريد النّفط، وفتح أسواقها أمام البضائع الصّينيّة. فيما تركّز روسيّا على جعل المنطقة سوقاً لبيع أسلحتها وتوسيع أنشطتها العسكريّة، إلى جانب دورها في التحكّم بأسواق النّفط العالمية لوجودها ضمن منظمة أوبك. ويلاحظ العديد من الخبراء العسكريّين أنّ الوجود العسكريّ الرّوسيّ في سوريّا يهدف بالدّرجة الأولى إلى إعادة تنشيط دورها العسكريّ في المنطقة، وتثبيت أقدامها في المياه الدّافئة فيها، بعد أن تراجع الدّور الرّوسيّ كثيراً بعد انهيار الاتّحاد السوفييتي السّابق، وكذلك لمدّ الذّراع الرّوسيّة إلى ليبيا، التي تعتبر هي الأخرى الخاصرة الإفريقيّة الشّماليّة، حيث تخطّط روسيّا أن تصل عبرها إلى المغرب العربيّ وإفريقيّا، وكثّفت تواجدها في البحر الأبيض المتوسّط لضمان تنقّل أساطيلها العسكريّة، حتّى بات بإمكانها الوصول إلى السّواحل المصريّة، بعد أن طوّرت علاقاتها معها في الفترة الأخيرة، وأقامت معها مناورات عسكريّة مشتركة، فضلاً عن التّعاون في مجال استكشاف النّفط في المياه الإقليميّة المصريّة، وهو ما تعتبره الولايات المتّحدة تحدّياً كبيراً لها، لطالما أنّها خاضت صراعات عديدة في ليبيا باستخدامها قوّات حلف الناتو، وكذلك في مصر، بعد أن أعادت نظام الرّئيس عبد الفتّاح السيسي إلى السُّلطة ودعمت انقلابه على حركة الإخوان المسلمين. ويرى العديد من المراقبين أنّ روسيّا غير قادرة على ملء الفراغ الاستراتيجيّ في المنطقة عبر قوّتها العسكريّة فقط، وأنّ قدراتها الاقتصاديّة لا تسعفها على إعادة بناء البلدان التي أتى عليها الدّمار والخراب بعد أن شهدت ثورات شعبيّة، دون التّشارك والاعتماد على الصّين لتتمكّن من إغلاق المجال الحيويّ أمام الولايات المتّحدة. فاعتمادها على القوّة الاقتصاديّة الصّينيّة؛ يؤهّلها للدخول إلى المنطقة عبر البوّابة الاقتصاديّة أيضاً وليس العسكريّة فقط، وهو ما تعوّل عليه روسيّا في ترسيخ تواجدها في المنطقة.

> **رغم أنّ الصّين دولة نوويّة، وامتلكت السّلاح النّوويّ منذ فترة طويلة، وباعتبارها ليست قوّة إمبرياليّة مثل الولايات المتّحدة، إلا إنّ سلاحها ظلّ في إطار قوّة الرّدع وحماية الصّين من التهديدات الخارجيّة، ولم تعمد الصّين إلى انتهاج سياسة نشر قوّاتها العسكريّة في بحار ومحيطات العالم، بهدف حماية حلفائها الإقليميّين**

تحدّيات العلاقات الرّوسيّة – الصّينيّة وانعكاسها على منطقة الشّرق الأوسط:

رغم العديد من القضايا التي تتقاطع فيها تجمع الصّين مع روسيّا، إلا أنّه ثمّة وقائع على الأرض، تجعل من علاقاتهما هشّة وقابلة للتصدّع في أيّ وقت كان، وهو ما تعتبره الولايات المتّحدة أنّها مسألة جديرة بالاهتمام ويمكن توسيع الهوّة والفجوة بين الطرفين، عبر استمالة روسيّا وبثّ التّناقضات مع الصّين. فرغم أنّ التّعاون العسكريّ بين روسيّا والصّين يعتبر أهمّ أوجه التّعاون والعلاقات بينهما، حيث وقّع الجانبان اتّفاقيّات ثنائيّة في مجال التسليح والاقتصاد والتنقيب عن النّفط والغاز، إذ تستحوذ الصّين على ٤٥ في المئة من صادرات السّلاح الرّوسيّ، حيث حصلت على أنظمة الصّواريخ المضادة للطائرات من طراز «إس – ٤٠٠» وطائرات من طراز «سوخوي ٣٥» لتسليح جيشها، فيما جرى توقيع اتّفاقيّة تقضي بتوريد ٣٨ مليار طن سنويّاً

> **القضيّة الأكثر حساسيّة بالنّسبة للصّين، يتمثّل في التّقارب الأمريكيّ – الرّوسيّ لـ«كبح جماح الصّعود الصّينيّ». وقد نبّه عدد من المسؤولين الصّينيّين من خطورة حدوث مثل هذا التّقارب والتّنسيق الإستراتيجيّ، طالما أنّ روسيّا انتهجت مواقف غير ثابتة إزاء عدد من القضايا العالميّة، إن كان في موافقتها على قرار الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، وفي الأزمة السّوريّة**

من الغاز الرّوسيّ لمدّة ٣٠ عاماً، عبر تشغيل خطّ نقل الغاز الرّوسيّ للصّين "قوّة سيبيريا" الذي دخل حيّز العمل في مايو/ أيّار ٢٠١٩.

وتعتبر الصّين أكبر المستوردين للنّفط والغاز الرّوسيّ، في حين أنّ حجم الاستثمارات الصّينيّة في الاقتصاد الرّوسيّ لا تتجاوز ٣ في المئة من إجمالي الاستثمارات الأجنبيّة في روسيّا، حسب دراسات اقتصاديّة روسيّة وصينيّة.

تكتنف العلاقات الرّوسيّة – الصّينيّة العديد من الخلافات العميقة التي تجعل منها قابلة للتفكّك، فتجد روسيّا نفسها قلقة إزاء الهيمنة الاقتصاديّة الصّينيّة في عدّة مناطق من العالم، وذلك من خلال مشروعها «طريق الحرير/ الحزام الاقتصاديّ الأرو – آسيوي»، وهو مشروع عابر للحدود والقارات يهدف إلى شقّ طرق ومدّ سكك حديد وخطوط نفط وغاز، وإنشاء غيرها من البنى التحتيّة في عدّة بلدان، ويمتدّ من آسيا الوسطى مروراً بدول الشّرق الأوسط وصولاً إلى أوروبا، حيث بدأت الصّين بإنشاء جسور معلّقة مائيّة وبريّة بينها وبين باكستان والهند، وكذلك أنشأت خطّ للسكك الحديديّة يربطها بإيران التي تعتبر المورّد الرّئيسي للنّفط لها، حيث تستورد من إيران ما نسبته ٦٤٪ من حاجاتها النّفطيّة، وخلافها مع روسيّا حول سيبيريا، يضع تلك العلاقات على مفترق صعب للطرفين، فالكثافة الدّيمغرافية الصّينيّة في سيبيريا «مساحتها ١٣,١ مليون كم٢، ويقطن فيها ٣٩ مليون روسيّ مقابل ١٠٠ مليون صيني»، وطمعها بالمواد الأوّليّة فيها، تشجّع ملايين الأيدي العاملة الصّينيّة على الهجرة إليها، لدرجة وصفها بعض الخبراء بأنّها "الأرض الصّينيّة الجديدة"، خاصّة أنّ اليد العاملة الصّينيّة رخيصة ووفيرة، وتمتلك تكنولوجيا وخبرات.

وحسب الدّراسة التي أعدّها «مركز الإمارات للدّراسات والبحوث الاستراتيجيّة»، أنّ «خلافات الصّين وروسيّا خارج الشّرق الأوسط، تظلّ سبباً محتملاً لعرقلة التوصّل إلى استراتيجيّة مشتركة بعيدة المدى في المنطقة. فمؤخّراً، تصاعدت الخلافات بين الجانبين حول مشاعر تاريخيّة متّصلة بمدينة فلاديفوستوك الحدوديّة، التي يعتبرها الصّينيّون جزءاً من بلادهم. وإضافة إلى ذلك، زاد الغضب الصّينيّ جرّاء تعزيز روسيّا مبيعات الأسلحة للهند المنخرطة في نزاع حدوديّ ساخن مع الصّين، إلى جانب تأخير إرسال أنظمة الدّفاع الجوّيّة (S – ٤٠٠) التي اشترتها الصّين".

غير أنّ القضيّة الأكثر حساسيّة بالنّسبة للصّين، يتمثّل في التّقارب الأمريكيّ – الرّوسيّ لـ"كبح جماح الصّعود الصّينيّ". وقد نبّه عدد من المسؤولين الصّينيّين من خطورة حدوث مثل هذا التّقارب والتّنسيق الاستراتيجيّ، طالما أنّ روسيّا انتهجت مواقف غير ثابتة إزاء عدد من القضايا العالميّة، إن كان في موافقتها على قرار الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، وفي الأزمة السّوريّة، حيث أبدت مقاربات أكثر إيجابيّة تجاه الولايات المتّحدة وموافقتها الضمنيّة على تحجيم الدّور الإيرانيّ في سوريّا، من خلال صمتها على الضربات الجوية التي

توجّهها إسرائيل إلى المواقع العسكريّة الإيرانيّة في سوريّا. وفي هذا الإطار صرّح وزير الخارجيّة الأمريكيّ الأسبق "هنري كيسنجر" في يوليو/ تمّوز ٢٠١٨ لصحيفة "لوفيغارو" الفرنسيّة بالقول: "أرى إنّه من المفيد إنشاء تحالف مع روسيّا لكبح جماح الصّين الاقتصاديّ وتطويقها، كي تحافظ الولايات المتّحدة على مركزها في قيادة العالم". وتعزّزت هذه القناعة أكثر أثناء ولاية الرّئيس السابق دونالد ترامب، خاصّة في القمّة التي عقدها الرّئيسان الرّوسيّ والأمريكيّ في ١٦ يوليو/ تموز ٢٠١٨ في العاصمة الفنلنديّة هلسنكي.

يذهب العديد من المراقبين السّياسيّين إلى الاعتقاد أنّ جهود توحيد استراتيجيّة روسيّة – صينيّة مشتركة في الشّرق الأوسط مضادّة للولايات المتّحدة لن ترى النّور في المستقبل القريب، رغم "وجود ومؤشّرات على تقارب على المستوى التكتيكيّ قصير المدى في عددٍ من ملفّات المنطقة كالأزمة السّوريّة".

الخطط الأمريكيّة لمواجهة تمدّد الصّين وروسيّا في المنطقة:

تسود الأوساط البحثيّة الأمريكيّة، وكذلك دوائر القرار الاستراتيجيّ الأمريكيّة، عدّة تكهّنات وسيناريوهات حول سُبُل لجم التمدّد الرّوسيّ والصّينيّ في العالم وخاصّة في منطقة الشّرق الأوسط. وتعتقد بعضها أنّ احتواء إيران من خلال العودة إلى الاتّفاق النّوويّ ورفع العقوبات عنها، بعدما ألغى الرّئيس الأمريكيّ السابق ترامب الاتّفاقيّة، إنّما يغلق الأبواب أمام روسيّا والصّين، ويجعل وصول الإمدادات النّفطيّة إلى الصّين، كما أنّ استبعاد أيّ تصعيد عسكريّ مع روسيّا والصّين في المنطقة، ولو على مستوى حشد القوّات، واعتماد الدّبلوماسيّة كسبيل لعرقلة جهود الدّولتين في التمدّد وإقامة علاقات اقتصاديّة وتجاريّة، ذات جدوى أكثر من المواجهة العسكريّة، لطالما اعتمدت الولايات المتّحدة أسلوب تقليص النّفقات العسكريّة، إلى جانب عدم اعتمادها على النّفط في الشّرق الأوسط بشكل استراتيجيّ بعد بدء استخراجها النّفط الصخريّ في أراضيها.

ويعتقد المسؤولون في الولايات المتّحدة أنّ تقديم التطمينات إلى دول المنطقة للحفاظ على أمن واستقرار بلدانها، وتشكيل تحالفات إقليميّة معها، يُساهم في قطع الطريق على موسكو وبكّين في ملء الفراغ الاستراتيجيّ في المنطقة، على أن تكون واشنطن نقطة جذب لدول المنطقة. وفي هذا الإطار تجهد الإدارات الأمريكيّة المتعاقبة إلى توقيع اتّفاقيّات دفاع مشتركة مع عواصم المنطقة، وإقامة قواعد عسكريّة على أراضيها لحمايتها من التمدّد الإيرانيّ في الظاهر، إلا أنّها في ذات الوقت تهدف إلى تطويق كلّ من روسيّا والصّين اقتصاديّاً وعسكريّاً. فرغم أنّ السّعوديّة وقّعت اتّفاقيّة شراء منظومة صواريخ «إس – ٤٠٠» من روسيّا، إلا أنّ الولايات المتّحدة جمّدت الاتّفاقيّة إلى حدّ ما. كما أنّ تدفّق السّلع والبضائع الصّينيّة إلى أسواق دول الخليج العربيّ، لم تؤثّر على مشتريات تلك الدّول من السّلع الأمريكيّة، خاصّة أنّها تمتاز على الصّينيّة بالجودة.

فالخيارات التي طرحتها الولايات المتّحدة للجم تحرّكات كلٍّ من روسيّا والصّين في المنطقة، وضعت الدّولتين أمام اختبارات صعبة، منها عدم تمكّنها من تجاوز القيود التي تفرضها الأولى على حُريّة الملاحة البحريّة، وعدم قدرة الأخيرتين على توفير البدائل المناسبة للحفاظ على أمن واستقرار المنطقة، خاصّة بعدما أوحى تدخّلهما في سوريّا وليبيا، أنّهما تسعيان إلى إحراز مكاسب آنيّة سريعة، حيث غاب عن تحرّكهما أيّ رؤية استراتيجيّة بعيدة المدى، على عكس الولايات المتّحدة.

وحسب دراسة بحثيّة لمركز «الأهرام»: تسعى الولايات المتّحدة في الفترة الأخيرة إلى «طرح بدائل لمشاريع تكنولوجيّة تكون لها تَبِعات أمنيّة على مصالح الولايات المتّحدة ودول المنطقة، وكذلك مراقبة مبادرة الحزام والطريق،

ووضع عراقيل أمامها».

وحسب تقييم الدّراسة: فإنّ «المنظور الأمريكيّ، وفق مراكز بحثيّة أمريكية وحتّى بعض دوائر القرار الأمريكيّ: أنّ الصّين هي القطب الثّاني في النّظام العالميّ الجديد، وروسيّا قوّة راجحة فقط، وفي هذا ثمّة اتّفاق بين الأوساط البحثيّة الصّينيّة مع واشنطن حول هذه الرؤية».

ويعتقد العديد من الخبراء الاستراتيجيّين أنّ القوّة الأمريكيّة وقيادتها للعالم، إنّما تنبع من قوّتها العسكريّة والاقتصاديّة، حيث استطاعت الولايات المتّحدة الأمريكيّة خلال السنوات الأولى من الألفيّة الثّانية أن تنتج بمفردها ٢٥٪ من جملة النّاتج العالميّ، رغم أنّ عدد سكّانها لا يتجاوز ٥٪ من عدد سكّان العالم، فيما لديها ما يقارب من ٢٥٠ ألف جنديّ منتشرين حول العالم وفي أكثر من /٧٠٠/ قاعدة عسكريّة موزّعة على /١٣٠/ دولة.

ويؤكد الباحث «محمّد عطيّة محمّد ريحان» في دراسة له بعنوان "التجربة الصّينيّة وتحدياتها المستقبلية"، أنّ الصّين واعتماداً على بنيتها الجغرافيّة الواسعة، وكذلك ثقافتها العريقة، حقّقت تنمية اقتصاديّة كبيرة، وهو «ما يشير إلى دخولها آفاق جديدة، لتغدو قوّة دوليّة عظمى على حساب الولايات المتّحدة، رغم أنّ الأخيرة ستحتفظ بمكانتها في النّظام الدّوليّ، ولكن بهيمنة أقلّ في ظلّ نظام دوليّ متعدّد الأقطاب.

رغم التباين في أرقام النّاتج القوميّ بين كلّ من الولايات المتّحدة والصّين، فقد احتلّت الصّين المرتبة الأولى في معدّلات النموّ الاقتصاديّ، حيث تشير إحصاءات عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٧ إلى أنّ معدّل نموّ الاقتصاد الصّينيّ وصل إلى ١١,٩٪ و٩,١٪ على الترتيب مقارنة بـ٢٪ و١,٢٪ للولايات المتّحدة. فيما «بلغ الفائض في الميزان التّجاريّ الأمريكيّ الصّينيّ، نحو /٢٦٦,٣/ مليار دولار لصالح الصّين. وفي السنة ذاتها، حلّت الصّين محلّ اليابان كأكبر دائن أجنبيّ للحكومة الأمريكيّة. وناهزت الاحتياطات الصّينيّة من العملة الأمريكيّة التريليوني دولار أمريكيّ. هذا الاحتياطي الهائل تناقض تماماً مع الوضع الماليّ للولايات المتّحدة، حيث تجاوز العجز في الموازنة الأمريكيّة التريليوني دولار أمريكيّ».

الأرقام الواردة أعلاه تشير بكلّ وضوح إلى التحدّي الصّينيّ أمام الولايات المتّحدة، ما انعكس بشكل مباشر على خططها ومشاريعها في الشّرق الأوسط، إن كان على صعيد موارد الطّاقة، أو اعتماد دول المنطقة على الصّين في مبادلاتها التّجاريّة، لتفتح أسواق المنطقة أبوابها أمام تدفّق البضائع والسّلع الصّينيّة التي غزت كلّ العالم، بحيث باتت الولايات المتّحدة غير قادرة على مواجهتها ومنافستها، لعدّة عوامل: منها ما يتعلّق بالأسعار وكذلك سهولة التوصيل، والتنوّع أيضاً. فيما دخلت الصّين أسواق الاستثمارات النّفطية عبر توقيع عدّة عقود مع دول الخليج في استخراج وتصفية ونقل النّفط، وهو ما يدخل ضمن إطار المشروع الصّينيّ «طريق الحرير» وكذلك «الحزام».

تحتفظ الولايات المتّحدة بمكانتها كدولة عظمى ذات سيادة عالميّة، وتسعى إلى فرض وضعها السّياسيّ، والخلاف الإيديولوجيّ بينها وبين الصّين، ينعكس على عدّة مناطق في العالم، وخاصّة على منطقة الشّرق الأوسط، فالصّين دولة اشتراكيّة تنتهج إيديولوجيّة شيوعيّة، فيما الولايات المتّحدة دولة رأسماليّة، وهو ما يشكل الخلاف الأكبر بينهما، من حيث التوجّهات السّياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة، رغم أنّ المفكّر عبد الله أوجلان في كتابه «دفاعاً عن شعب»، يؤكّد بشكل لا يدع مجالاً للشكّ: بأنّ «الصّين زاوجت بين الرّأسماليّة والاشتراكيّة». وهذا بحد ذاته يؤسّس لنموذج خاص وفيه الكثير من التعقيد على صعيد العلاقات الدّوليّة ومعادلات الصراع والتّعاون والنّفوذ في المنطقة والعالم. والاعتقاد الأقوى أنّ هذه الأسباب دفعت راسمي السّياسة والاستراتيجيّة الأمريكيّة إلى إبداء مقاربات إيجابيّة من روسيّا، على حساب الصّين.

تشير الإحصاءات إلى أنّ التّعداد السكّاني الضخم للصّين يمثّل «قوّة شرائيّة هائلة تصل إلى ٢٥٪ من حجم الطلب العالميّ، وهو في الوقت ذاته قوّة إنتاجيّة داعمة للقدرة التّنافسيّة للمنتجات الصّينيّة في الأسواق العالميّة، حيث وصل حجم النّاتج الإجمالي السّنويّ للصّين إلى ١٧,٦ تريليون دولار عام ٢٠١٤، وهو بطبيعة الحال يعكس قوّة الإنتاج الصّينيّ ودرجة تنوّعه».

ويعتقد العديد من خبراء الاقتصاد أنّه رغم تباطؤ معدّلات النموّ الاقتصاديّ الصّينيّ، لكنّه يواصل الارتفاع. ويعزو بعضهم أنّ هذا النموّ مرجعه بالأساس يتمثّل في «نموّ قطاع الإنتاج الصناعيّ. وكذلك فإنّ الحجم الهائل للصادرات الصّينيّة، والذي وصل إلى حوالي ٤,٣ تريليون دولار أمريكيّ عام ٢٠١٤، يعكس درجة انتشار وتنوّع الصادرات الصّينيّة وقدرتها الفائقة على اختراق الأسواق العالميّة».

و»على صعيد الجدارة السّياديّة والائتمانيّة للاقتصاد الصّينيّ: فإنّ حجم احتياطات الصّين من النّقد الأجنبيّ هائل ووصل إلى ٤ تريليون دولار أمريكيّ عام ٢٠١٤، وهو ما يعني أنّ الصّين لا تحتاج إلى الأموال اللّازمة لتحقيق معدّلات النموّ الحالية بصورة متواصلة لسنوات قادمة، بقدر ما تحتاج إلى التكنولوجيا والإدارة الحديثة والعمالة الماهرة». وهو دأب القيادة الصّينيّة في فتح استثمارات في عدّة بلدان، وخاصّة في منطقة الشّرق الأوسط، لقربها من مصادر الطّاقة والمواد الأوّليّة، وكذلك من الأسواق، ومثال ذلك المدينة الصناعيّة الصّينيّة في بلدة «عدرا» في ريف دمشق بسوريّا، والتي سنأتي إليها لاحقاً.

ويشير بعض المهتمّين بالنموّ الاقتصاديّ الصّينيّ، أنّ «الاقتصاد الصّينيّ الذي لم يكن يتجاوز ٦,٧٪ من حجم الاقتصاد الأمريكيّ عند انهيار الاتّحاد السوفييتي نهاية عام ١٩٩١، في حين أنّه أصبح الآن يناهز نصف حجم الاقتصاد في الولايات المتّحدة». وأنّه إذا ما استمرّت معدّلات النموّ في البلدين على وتيرتها الحالية؛ فإنّ الصّين ستزيح الولايات المتّحدة عن قمّة النّظام الاقتصاديّ الدّوليّ في غضون عقدين من الزّمن، على أقصى التّقديرات».

”خلال الأزمة السّوريّة، دعمت الصّين بشكل خفيّ مساعي تركيّا في نقل المسلمين الإيغور المتطرّفين من الصّين، لتوطينهم في المناطق الكُرديّة، إن كان في باكور كردستان أو في عفرين التي احتلّتها تركيّا في ١٨ مارس/ آذار ٢٠١٨. وهي تنظر إلى المسألة من زاوية التخلّص من المتطرّفين الإيغور، ولو كان على حساب تشريد الشّعب الكُرديّ من موطنه الأصليّ“

تنامي القوّة العسكريّة الصّينيّة وتدخّلها في المنطقة:

إنّ ما يميّز التفوّق الأمريكيّ وفرض قوّتها العالميّة، امتلاكها القوّة العسكريّة التي تؤهّلها الوصول إلى جميع بقاع العالم، بعد أن نشرت قوّتها لتتحكّم في مجمل الصراعات العالميّة وتكون حاضرة فيها بقوّة، وليس أقلّها في الشّرق الأوسط والمحيط الهادئ. فالترسانة العسكريّة الضخمة للولايات المتّحدة وامتلاكها أحدث أنواع الأسلحة، يمنحها قوّة السّيادة العالميّة، وهو ما شكّل قوّة ردع كبيرة أمام روسيّا والصّين، ما دفعهما إلى عدم استسلامها أمام القوّة العسكريّة الأمريكيّة، فعمدت إلى زيادة الإنفاق العسكريّ وزيادة تسليح جيوشهما، والسعي

إلى تعزيز قدراتهما العسكريّة. فعمدت الصّين إلى زيادة ميزانيّة الدّفاع لديها، وربط قرار الجيش في الحرب والسّلم باللّجنة المركزيّة للحزب الشّيوعيّ الحاكم، ما يفسّر تصاعد النّبرة العسكريّة الصّينيّة أمام التّهديدات والتحدّيات الأمريكيّة المستمرّة. فالثّابت في السّياسة الدّوليّة أنّ النموّ والتوسّع الاقتصاديّ والتّجاريّ، إن لم يرافقه قوّة عسكريّة تحمي طرق التّجارة ومصادر الطّاقة وكذلك الأسواق، فإنّها عُرضة للاهتزاز في أيّ وقت كان.

فرغم أنّ الصّين دولة نوويّة، وامتلكت السّلاح النّوويّ منذ فترة طويلة، وباعتبارها ليست قوّة إمبرياليّة مثل الولايات المتّحدة، إلا إنّ سلاحها ظلّ في إطار قوّة الرّدع وحماية الصّين من التهديدات الخارجيّة، ولم تعمد الصّين إلى انتهاج سياسة نشر قوّاتها العسكريّة في بحار ومحيطات العالم، بهدف حماية حلفائها الإقليميّين، والحالة السّوريّة وإرسالها قوّة دوليّة إلى السودان في دارفور، قد تبدو استثناءً في السّياسة الخارجية والعسكريّة الصّينيّة، فيما ينظر إليها آخرون أنّه تحوّل استراتيجيّ في توجّهات الصّين نحو فرض نفسها قوّة دوليّة. وعلى ضوء ذلك دأبت في السّنوات الأخيرة إلى رفع التّعاون العسكريّ بينها وبين روسيّا، فحصلت منها على منظومة صواريخ «إس – ٤٠٠» المتطوّرة.

و تُشير التّقارير الصادرة عن الكونغرس الأمريكيّ إلى أنّه ما بين عامي ٢٠٠٠ – ٢٠٠٩ زادت معدّلات الإنفاقات العسكريّة الصّينيّة بنسبة ١١,٨٪. وحسب ما ورد في تقارير وزارة الدّفاع الأمريكيّة "البنتاجون" لعام ٢٠٠٩، فإنّ حجم الإنفاق العسكريّ الصّينيّ قد بلغ ١٥٠ مليار دولار أمريكيّ. ويرى محلّلون أنّ جهود الصّين فيما يتعلّق بتطوير طائرات الشبح وصواريخ قادرة على ضرب أهداف متحرّكة في البحر؛ دليلٌ على التزام الصّين بتحديث تكنولوجيّتها الدّفاعيّة.

وحسب خبراء عسكريّين، فقد احتلّ الجيش الصّينيّ المرتبة الثّالثة بعد الجيش الرّوسيّ من حيث الإنفاق العسكريّ، حيث ارتفع بمعدّل ١٢,٢٪ لتصل ميزانيّة الدّفاع إلى ١٢٦ مليار دولار أمريكيّ، حسب الأرقام الرّسميّة الصّينيّة، والتي قد تكون في الواقع أعلى من ذلك. كذلك عدد القوّات الصّينيّة بلغ عدداً مذهلاً للغاية، فقد وصل إلى /٢,٢٨٥,٠٠٠/ فرد مع /٢,٣٠٠,٠٠٠/ فرد احتياط.

وبحسب «تقرير معهد ستوكهولم لدراسات السّلام لعام ٢٠١٥» فإنّ الموازنة العسكريّة الأمريكيّة بلغت /٦١٠/ مليار دولار أمريكيّ، بينما احتلّت الصّين المرتبة الثّانية بموازنة عسكريّة قُدّرت بحوالي /٢١٦/ مليار دولار أمريكي. إلا أنّ الملاحظ أنّ الموازنة العسكريّة الأمريكيّة إلى انخفاض، بينما الموازنة العسكريّة الصّينيّة إلى ارتفاع؛ وبحسب تقرير لنفس المعهد لعام ٢٠١٣، نجد أنّ الولايات المتّحدة قد احتلّت المرتبة الأولى في قائمة الدّول الأكثر إنفاقاً على التسلّح، ولكن بموازنة عسكريّة قدرها /٦٤٠/ مليار دولار أمريكيّ. فيما أكّد التقرير أنّ الصّين احتلّت المرتبة الثّانية ولكن بموازنة عسكريّة قدرها /١٨٨/ مليار دولار أمريكيّ، وهو ما يؤكّد أنّ الموازنة العسكريّة الأمريكيّة قد انخفضت بمعدل ٧,٨٪ مقارنة بمثيلتها لعام ٢٠١٢. في حين ارتفع الإنفاق العسكريّ الصّينيّ بمعدّل ٧,٤٪ مقارنة بالعام ذاته.

إنّ حجم تخفيض الميزانيّة العسكريّة الأمريكيّة، يشير، حسب خبراء استراتيجيّين، إلى تراجع الدّور الأمريكيّ العالميّ، وصعود قوى أخرى منافسة لها، وبكلّ قوّة، مثل الصّين وروسيّا، وهو ما وجد تجلّياته القويّة في منطقة الشّرق الأوسط، إن كان في الانتشار العسكريّ لروسيّا والصّين، أو في تنامي قدراتهما الاقتصاديّة في السيطرة على مصادر الطّاقة وأسواق المنطقة.

فاعليّة الصّين ضمن دول الـ(BRICKS) ومعاهدة (شنغهاي):

تلعب الصّين دوراً مركزيّاً وهامّاً ضمن

تحالف مجموعة الـ»بريكس» المشكّلة من خمسة دول، هي: «روسيا، الصّين، الهند، البرازيل، وجنوب أفريقيا». وهو تكتّل اقتصاديّ بالدّرجة الأولى، يحاول جاهداً التملّص من القوانين والعقوبات التي تفرضها الولايات المتّحدة عليها. كما أنّه يهدف للتحرّر من الهيمنة الأمريكيّة وتأسيس نظام عالميّ جديد ثنائي القطبيّة.

فدول «البريكس» تعتمد بالدّرجة الأولى على قوّة الاقتصاد الصّينيّ، إضافة إلى القوّة العسكريّة الرّوسيّة، ومصادر المواد الأوّليّة من الدّول الثّلاث. وهي تشكّل تحدّياً كبيراً أمام الولايات المتّحدة. وقد قال أحد المسؤولين العسكريّين الكبار في النّظام السّوريّ أثناء بداية اندلاع الثورة السّوريّة، ردّاً على سؤال حول تحوّل الثّورة إلى أزمة، والدّمار وعدد القتلى التي تخلّفها الأزمة، فردّ قائلاً: "إنّ دول البريكس وإيران وفنزويلا ستساعدنا في إعادة إعمار سوريّا، وأمّا الضحايا؛ فليرحمهم الله". وهذا يفسّر سلوك دول مجموعة البريكس على الوقوف مع الأنظمة الاستبدادية في المنطقة وعدم إيلائها أهميّة لتطلّعات شعوب المنطقة، رغم أنّ الدّول الغربيّة هي الأخرى لا تُعيرُ هذه المطالب أيضاً أهميّة كبيرة، بل تنظر إليها من زاوية مصالحها الاقتصاديّة والسّياسيّة والعسكريّة.

وتحاول دول البريكس فتح ثغرات في الحصار الذي تفرضه الولايات المتّحدة وأوروبا عليها، من خلال أعمال أقرب إلى القرصنة، منها مثلاً تحدّي العقوبات التي فرضتها الولايات المتّحدة على إيران في تصدير نفطها، وخاصّة إلى سوريّا، التي هي أيضاً مشمولة بحزمة كبيرة من العقوبات الاقتصاديّة والعسكريّة، فلا تزال إيران تصدّر نفطها إلى سوريّا والصّين ودول أخرى، تحت حماية عسكريّة من روسيّا، وغطاء سياسيّ صينيّ في المحافل الدّوليّة كمجلس الأمن الدّوليّ وما إلى ذلك من المؤسّسات الدّوليّة. فالحمائيّة التي تقدّمها مجموعة دول البريكس لبعض دول المنطقة، تعتبر زعزعة لنمط العلاقات التي فرضتها الولايات المتّحدة في المنطقة والعالم. ووفق الأرقام التي أوردتها عدد من مراكز الأبحاث في الولايات المتّحدة، فمن المتوقّع أن تزداد واردات الصّين النّفطية من دول المنطقة لتتجاوز الولايات المتّحدة في العام ٢٠٣٠، وهذا يشير بزيادة حركة التّبادل الاقتصاديّ بين دول الخليج العربيّ والصّين إلى مستويات غير مسبوقة، ما ينعكس في تعزيز دور دول البريكس في المنطقة أيضاً.

لقد حاولت الصّين منذ بداية نهوضها الاقتصاديّ أواخر سبعينات القرن الماضي، وخاصة مع دخولها عام ١٩٧٩، إلى تأسيس كيانات سياسيّة واقتصاديّة إقليمية ودولية، تواجه فيها سعي الولايات المتّحدة لتحجيم دورها الدّوليّ. ففي ١٥ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠١ أسسّت "منظّمة شنغهاي للتّعاون"، وضمّت في البداية ستّة دول آسيويّة، هي كلّ من: "الصّين، كازاخستان، قيرغيزستان، روسيّا، طاجيكستان، وأوزبكستان"، لتنضمّ إليها كلّ من "الهند وباكستان" في عام ٢٠١٧ في قمّة أستانا، ولتصبح قوّة اقتصاديّة شبه متكاملة تفرض سيادتها على بحر الصّين والمحيط الهندي والهادئ، وتتحكّم في الممرّات البحريّة الحيويّة.

وتتمحور أهداف المنظّمة "حول تعزيز سياسات الثّقة المتبادلة وحسن الجوار بين دول الأعضاء، ومحاربة الإرهاب وتدعيم الأمن ومكافحة الجريمة وتجارة المخدّرات ومواجهة حركات الانفصال والتطرّف الدّينيّ أو العرقيّ. وكذلك التّعاون في المجالات السّياسيّة والتّجاريّة والاقتصاديّة والعلميّة والتّقنيّة والثّقافيّة، وكذلك النّقل والتّعليم والطّاقة والسّياحة وحماية البيئة، وتوفير السّلام والأمن والاستقرار في المنطقة".

التّحالفات الإقليميّة التي أسّستها الصّين، فتحت شهيّة عدد من دول منطقة الشّرق الأوسط على التوجّه نحوها، لتهدّد بها الولايات المتّحدة الأمريكيّة. فوزير الخارجيّة السّوريّ السّابق "وليد المعلّم" حدّد في بداية الأزمة السّوريّة خيارات النّظام السّوريّ في التوجّه شرقاً وجنوباً، منوّهاً إلى تحالف النّظام مع الصّين وروسيّا لمواجهة ما سمّاه بـ"الحرب

> **تنظر الصّين إلى الصراع في سوريّا من زاوية مصالحها الإستراتيجيّة مع إيران، فهي أكبر مورّد للنّفط والغاز لها، ولهذا السّبب وقفت الصّين ضدّ العقوبات الأمريكيّة على إيران، وتدافع عنها في سوريّا أيضاً. ووفق النّظريّة الصّينيّة أنّ إسقاط النّظام السّوريّ، سيؤدّي حتماً إلى إضعاف إيران أيضاً**

الكونيّة التي تشنها الدّول الغربيّة على بلاده"، وأشار أنّه – أي النّظام – "سينسى أنّ أوروبا وأمريكا كانت موجودة على الخارطة العالميّة"، وفق تعبيره.

كذلك لا تزال تركيّا تتّبع سياسة ازدواجيّة بين روسيّا وأمريكا، لمدّ نفوذها في منطقة الشّرق الأوسط. فقد هدّد الرّئيس التركيّ أردوغان أكثر من مرّة بنيّة بلاده الانضمام إلى منظّمة "شنغهاي"، في خَدٍّ لتخفيف الضغوط الأمريكيّة على نظامه الذي يحاول العمل ضدّ المصالح الاستراتيجيّة الأمريكيّة في المنطقة. وحاولت الصّين من جهتها استمالة تركيّا للانضمام للمنظّمة، غير أنّ قضيّة المسلمين الإيغور ممّن جنّدتهم تركيّا ضدّ الصّين وزجّت بهم في الحرب الأهليّة السّوريّة، حَدَتْ بالصّين إلى توخّي الحذر في مساعي تركيّا، فضلاً عن العلاقات الاستراتيجيّة العميقة التي تربطها بالولايات المتّحدة والتي لا يمكنها الفكاك منها بسهولة. ورغم أنّ تركيّا عمدت في الفترة الأخيرة إلى تسليم عددٍ من عناصر الإيغور المنظّمين إلى الصّين، على حساب فتح الأسواق التركيّة أمام الاستثمارات الصّينيّة، إلا أنّ الصّين لا تزال متخوّفة من التحرّك التركيّ في المنطقة، التي تميل إلى تنفيذ الإملاءات الغربيّة، وخاصّة الأمريكيّة.

تجلّيات الصراع الرّوسيّ الصّينيّ مع الولايات المتّحدة في سوريّا:

ظهر الانقسام الرّوسيّ الصّينيّ مع الولايات المتّحدة الأمريكيّة أكثر خلال الأزمة السّوريّة، وهو صراع عكس في طيّاته حالة شديدة التعقيد، اتّسمت ببروز حالة من التّعارض بين مصالح الدّول العظمى، حيث غدا صراعاً دوليّاً واضح المعالم. ورغم وقوف الصّين في ظلّ روسيّا، إلى أنّ تصاعد الصراع بين روسيّا والولايات المتّحدة، حَوّلَ سوريّا إلى ساحة لتصفية الحسابات الدّوليّة بينهما، وليرسم فيها ملامح نظام دوليّ جديد ينبثق من معاناة الشّعب السّوريّ.

التّوافقات الجزئيّة بين روسيّا والولايات المتّحدة على عدد من الملفّات السّاخنة في الأزمة السّوريّة، لم يخفّض من حدّة تنافسهما وصراعهما في سوريّا. فرغم أنّ روسيّا وأمريكا وقّعتا على عدّة اتّفاقيّات في سوريّا؛ منها ما سُمّيت باتّفاقيّة "كيري – لافروف" عام ٢٠١٦ على تقاسم مناطق النّفوذ في شرق الفرات وغربها، وكذلك التّفاهمات بينهما على تقاسم السّيطرة في الأجواء وعدم الاحتكاك بين قوّاتهما على الأراضي السّوريّة.

لكن يبدو أنّ تلك المعادلة قد تغيّرت نوعاً ما بعد الاحتلال التركيّ لمناطق سري كانيه/ رأس العين وكري سبي/ تل أبيض في أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٩، إثر انتشار القوّات الرّوسيّة شرقيّ الفرات، حيث حصلت احتكاكات متكرّرة بين قوّات البلدين. كما أنّ صراعهما للاستحواذ على المناطق الغنيّة بالثروات مثل النّفط والغاز والسّدود المائيّة، حدا بالمنطقة لتصل إلى حدّ

الاشتباك المباشر بين القوّتين. ورغم توجيه الولايات المتّحدة ضربات عسكريّة إلى بعض حلفاء روسيّا في سوريّا، مثل ميليشيّات "فاغنر" الخاصّة التي تحارب إلى جانب القوّات العسكريّة الرّوسيّة وقوّات النّظام، أثناء شنّها هجوماً على حقل "كونيكو" الغازي عام ٢٠١٨، فإنّ روسيّا تنصّلت من مسؤوليّتها عن تلك الميليشيّات، ما فسّره عدد من المراقبين، بأنّ روسيّا لا تسعى للتصعيد في المناطق الواقعة تحت النّفوذ الأمريكيّ.

كذلك محاولة كلتا الدّولتين للاستفادة من الدّور التركيّ في سوريّا، دفع بتركيّا إلى تطويع قسم كبير من المعارضة السّوريّة لصالحها، لتزجّ بها في مناطق صراعها المختلفة في المنطقة والعالم. سَعَت تركيّا إلى الاستثمار في التّناقضات بين الدّولتين، لمدّ نفوذها في سوريّا، فاحتلّت مناطق واسعة من الأراضي السّوريّة. فروسيّا تسعى إلى إحداث شرخ بين تركيّا وحلف الناتو، وبالتّالي محاولة ضمّها إلى المشروع الأوراسيّ الرّوسيّ. كذلك تحتلّ تركيّا مكانة هامّة في مشروع الصّين "طريق الحرير"، فيما تحاول الولايات المتّحدة الحفاظ على تركيّا، وإبقائها ضمن استراتيجيّتها في المنطقة، والاستفادة من دورها ومكانتها الجيوسياسيّة في المنطقة. فكما عوّلت في بداية ما يُسمّى بـ"الرّبيع العربيّ" على تركيّا وحزب العدالة والتنمية في التّسويق لما أسمته بـ"الإسلام المعتدل"، كذلك لا تزال تجد فيها أداة لها جدواها في إجراء تحوّلات كبيرة في المنطقة لصالحها مشروعها "الشّرق الأوسط الجديد".

ويعتقد "عبد الجليل زيد" في مقالة له بعنوان "الصّين والمسألة السّوريّة" نشر في موقع الجزيرة، نت بأنّ "سوريّا لا تشكّل حالة مهمّة في حدّ ذاتها بالنسبة إلى كلّ موسكو أو بكّين، إنّما هي وسيلة للاحتجاج أو جزء من استراتيجيّة أوسع لمقايضتها في قضايا أكثر أهميّة تتركّز في مناطق أكثر حيويّة. فعلى الرّغم من حجم المصالح الصّينيّة في سوريّا، لكن ذلك لا يبرّر مجازفتها بإغضاب الغرب الذي ترتبط معه بشبكة مصالح هائلة". ويذهب العديد من المراقبين إلى التأكيد أنّ روسيّا تقايض كلّاً من الولايات المتّحدة الأمريكيّة وتركيّا على أوكرانيّا وقضيّة القرم، فيما الصّين تقايضها على تقليص نفوذها في المحيط الهادئ وقضيّة تايوان، ولا نيّة لروسيّا والصّين إلى الانخراط في صراع مفتوح مع الولايات المتّحدة في سوريّا، وجُلّ ما يشغل بال الصّينيّين الاستحواذ على عقود إعادة إعمار سوريّا، خاصّة مع امتلاكها القدرات الاقتصاديّة التي تؤهّلها لذلك.

من جهة أخرى لا تفتح سوريّا شهيّة روسيّا والصّين، فهي ليست دولة نفطيّة مهمّة، ورغم أنّ الصّين استخدمت حقّ النّقض الفيتو عدّة مرات مع روسيّا ضدّ مشاريع قرارات في مجلس الأمن الدّوليّ تدين النّظام السّوريّ في قضايا انتهاكات حقوق الإنسان، وأجرت مناورات عسكريّة مشتركة مع روسيّا في البحر الأبيض المتوسّط عام ٢٠١٥، وأعلنت انضمامها إلى الأسطول البحريّ الرّوسيّ الذي رسى قبالة السّواحل السّوريّة في البحر المتوسّط (ميناء طرطوس) بحاملة طائرات وعلى متنها جنود وطائرات صينيّة، إضافة إلى صواريخ موجّهة من طراز "كروز". كما زجّت ببعض عناصرها في الحرب إلى جانب قوّات النّظام في مناطق محدودة في سوريّا، إلا أنّها لم تذهب بعيداً للإيغال أكثر في الصراع السّوريّ مثل روسيّا، وحافظت على توازن علاقاتها مع جميع الأطراف، بما فيها الولايات المتّحدة.

تنظر الصّين إلى الصراع في سوريّا من زاوية مصالحها الاستراتيجيّة مع إيران، فهي أكبر مورّد للنّفط والغاز لها، وخاصّة من حقل "بارس" في الجنوب، وبينهما خطط استراتيجيّة لمدّ أنابيب الطّاقة عبر أفغانستان، لذلك وقفت الصّين ضدّ العقوبات الأمريكيّة على إيران، وتدافع عنها في سوريّا أيضاً. ووفق النّظريّة الصّينيّة أنّ إسقاط النّظام السّوريّ، سيؤدّي حتماً إلى إضعاف إيران أيضاً، وهو جزء من الاستراتيجيّة الأمريكيّة في سوريّا، أي إضعاف إيران. والاستراتيجيّة الأمريكيّة تقضي

بفرض حصار على التمدّد الاقتصاديّ الصّينيّ في المنطقة.

وفي بداية تدخّل روسيّا العسكريّ في سوريّا في نهاية سبتمبر/ أيلول ٢٠١٥، أيّدت الصّين هذا التدخّل، واعتبرته مشروعاً؛ كونه جاء تلبية لطلب دولة لها سيادة وعضو في الأمم المتّحدة، وهي في هذا تريد إسباغ المشروعيّة على التدخّل الرّوسيّ، والتوافق معها لاحقاً في العديد من المواقف المشتركة.

استخدمت الصّين، وكعادتها، قوّتها الاقتصاديّة النّاعمة في دعم النّظام السّوريّ، فهي تعتبر مثلها مثل روسيّا، سوريّا نقطة ارتكاز للانطلاق نحو مصادر الطّاقة، ونقطة عبور رئيسيّة لصادراتها نحو بلدان المنطقة، فالاستثمارات الصّينيّة في سوريّا لم تتوقّف عن العمل رغم كل ما مرَّ على سوريّا من ويلات وحروب، فمدينة "عدرا" الصناعيّة التي تملك فيها الصّين عدّة شركات، تحاول توسيع نقاط عملها، ولتغدو مركزاً للتوسّع في المنطقة.

وفي دراسة للباحث "مروان قبلان" بعنوان "المسألة السّوريّة واستقطاباتها الإقليميّة والدّوليّة"، يؤكّد الباحث أنّ الأزمة والصراع في سوريّا بات "بين حلفاء كلّ من النّظام السّوريّ والمعارضة، متمثّلاً بكلّ من روسيّا وإيران، وخلفهما الصّين بشكل خفيّ، والدّول الغربيّة بقيادة الولايات المتّحدة الأمريكيّة وحلفائهما الإقليميّين". ويخلص الكاتب إلى نتيجة بضرورة وضع نهاية لهذا الصراع و"اتّخاذه شكل المنازعة الصفريّة التي تقتضي بالضرورة وجود رابح وخاسر بين النّظام والمعارضة، فضلاً عن عدم قدرة أيّ طرف من الأطراف الإقليميّة والدّوليّة على السّماح بخسارة وكيله المحلّيّ، فقد بات مرجّحاً أن تكون الأزمة السّوريّة من النّوع الطويل والمعقّد والذي قد يأخذ شكل الحرب الأهليّة – كما حصل في لبنان والعراق – أو قد يتّسع ليشمل دولا إقليميّة بالغت في الرّهان على مآلات الثورة السّوريّة". إلا أنّها وصلت إلى مستويات غير مسبوقة من التعقيد، بحيث بات صراعاً دوليّاً صرفاً بين الدّول الضالعة في الأزمة السّوريّة.

وفي دراسة أخرى للباحثة "سُنيّة الحسينيّ" بعنوان "سياسة الصّين تجاه الأزمة السّوريّة: هل تعكس تحوّلات استراتيجيّة جديدة في المنطقة؟". تستعرض الباحثة مراحل تطور السّياسة الخارجية الصّينيّة تجاه الأزمة السّوريّة اعتماداً على محدّدي المصلحة والأيديولوجيا، وتعتبرهما "محدّدين أساسيّين في الفكر السّياسيّ الصّينيّ"، وأنّ الصّين تناور "ما بين أهميّة سوريّا الاستراتيجيّة والأمنيّة والاقتصاديّة للصّين، وما بين دعم الصّين لسوريّا على أساس تحقيق العدالة وإرجاع الحقوق والدّفاع عن المظلوم". وتخلص الباحثة إلى نتيجة مفادها أنّ "الموقف الصّينيّ الدّاعم لاستمرار الأسد على رأس النّظام السّوريّ؛ منبعه اعتقاد الصّين أنّ محاولات الولايات المتّحدة لزعزعة استقرار المنطقة العربيّة، يأتي لسدّ الطريق أمام إمدادات النّفط التي تصل إليها، وخصوصاً أنّ ذلك جاء بعد تراجع اهتمام الولايات المتّحدة بمنطقة الشّرق الأوسط وسعيها للخروج منها، بعد اكتشاف كميّات هائلة من النّفط في كندا والبرازيل وتطوير العديد من التقنيات لاستخدام الطّاقة البديلة والطّاقة الكامنة في باطن الأرض، كبديل مستقبليّ للنّفط".

مستقبل الصراع الرّوسيّ الصّينيّ مع الولايات المتّحدة في الشّرق الأوسط:

تتّجه كلّ من روسيّا والصّين إلى تعزيز تواجدهما ونفوذهما في المنطقة، عبر الانتشار العسكريّ والانفتاح الاقتصاديّ على دول المنطقة، وملء الفراغ الذي تركته الولايات المتّحدة عقب اندلاع ثورات ربيع الشّعوب في عدد من الدّول، مثل سوريّا وليبيا واليمن، عبر الاعتماد على حلفاء لهم مثل إيران والنّظام السّوريّ وخليفة حفتر، وجماعة الحوثيين في اليمن، لتطرح نفسها قوّة منافسة وبديلة للولايات المتّحدة، خاصّة بعد أن فشلت الأخيرة في استعادة الأمن والاستقرار إلى دول المنطقة، رغم تشكيلها تحالفاً يضمّ

نحو /٧٢/ دولة لمكافحة الإرهاب. إلا أنّ الولايات المتّحدة تحاول في أحيان كثيرة استخدام سياسة ضرب الخصم بالخصم، عبر إثارة التّناقضات بين روسيّا والصّين، ومحاولة استمالة أحد القوّتين إليها، إن كان عبر تخفيف العقوبات الاقتصاديّة عليها، أو التشارك معها في بعض الخطوات التي من شأنها أن تبعد الأولى عن الثّانية، وتجلّى ذلك أكثر في تناولهما للأزمة السّوريّة. فقد وافقت الولايات المتّحدة الإبقاء على النّظام بالتوافق مع روسيّا، ولم تعترض على رعاية روسيّا اجتماعات أستانا المتعدّدة، بهدف عدم حدوث تقارب استراتيجيّ بين روسيّا والصّين، إلى جانب عدم اعتراضها بقوّة على تعاون تركيّا مع روسيّا في الملفّ السّوريّ، أو إقامة الأخيرة علاقات اقتصاديّة معها. ولكن هذا لا يعني أنّ الولايات المتّحدة قد غضت الطرف عن المحاولات الرّوسيّة في فرض نفسها قوّة عالميّة بديلة لها. وفي هذا الصدد يقول "المبدأ الاستراتيجيّ لوزير الخارجيّة الأمريكيّ الأسبق "هنري كيسنجر" إنّه يجب على واشنطن أن تنظّم علاقاتها بالخصمين، الصّينيّ والرّوسيّ، على أساس أن تكون خياراتها تجاههما أعظم دائماً من خياراتهما تجاه بعضهما بعضاً"، أي عدم إغفال أيّ خيار تجاه كلتا الدّولتين، بما فيه الخيار العسكريّ. ويبدو من خلال الصراع الدّائر بين الطرفين، أنّ الأجواء تعيد بهما إلى الحرب الباردة، رغم تغيّر موازين القوى بشكل كبير لصالح الولايات المتّحدة منذ بدء الألفيّة الثّانية.

فروسيّا المُثقلة بالأعباء الاقتصاديّة، لا يمكنها مجابهة الولايات المتّحدة في منطقة الشّرق الأوسط، وعدم قدرتها على حلّ الأزمة السّوريّة بمفردها، خير مؤشّرٍ على النّفوذ القويّ للولايات المتّحدة، فضلاً عن ضيق المجال الحيويّ الرّوسيّ في المنطقة، حيث معظم دول المنطقة دخلت في تحالفات واتّفاقيّات عسكريّة واقتصاديّة طويلة الأمد مع الولايات المتّحدة، فروسيّا الباحثة عن موطئ قدم لها في المياه الدّافئة، لا تملك ميراثاً قويّاً في منافسة الغرب في المنطقة. كما أنّ الصّين هي الأخرى ليس بمقدورها حماية

> **"حاولت الصّين منذ بداية نهوضها الاقتصاديّ أواخر سبعينات القرن الماضي، وخاصة مع دخولها عام ١٩٧٩، إلى تأسيس كيانات سياسيّة واقتصاديّة إقليمية ودولية، تواجه فيها سعي الولايات المتّحدة لتحجيم دورها الدّوليّ. ففي ١٥ يونيو/ حزيران عام ٢٠٠١ أسسّت «منظّمة شنغهاي للتّعاون"**

الأنظمة الرّاهنة من تداعيات ثورات الشّعوب، فالقوّة الاقتصاديّة والإيديولوجيا وحدهما غير كافيتين لاستعادة الاستقرار في المنطقة، إن لم تقترن بالقوّة العسكريّة ومكافحة الإرهاب.

كما أنّ النزاعات بين روسيّا والصّين حول عدّة ملفّات، مثل سيبيريا، تُعدُّ إحدى أسباب عدم وصول القوّتين إلى وضع استراتيجيّة واضحة وموحّدة في المنطقة، ما يترك الأبواب مواربة أمام الولايات المتّحدة لمدّ نفوذها أكثر في المنطقة وتستمرّ في تحكّمها بمصادر الطّاقة.

تأثيرات الصراع الرّوسيّ الصّينيّ مع الولايات المتّحدة على حلّ القضيّة الكُرديّة:

تُعدُّ القضيّة الكُرديّة جزءاً أساسيّاً من قضايا منطقة الشّرق الأوسط، مثل القضيّة الفلسطينيّة، وهي في إحدى جوانبها تعتبر قضيّة مركزيّة، لا يمكن دون حلّها بشكل عادل، كقضيّة شعب ووطن، أن تنعم المنطقة بالأمن

والاستقرار، طالما عصفت بالمنطقة الحروب والصراعات والنّزاعات طيلة أكثر من قرن منذ تقسيمها وفق مسطرة سايكس – بيكو في بداية القرن المنصرم وإلى يومنا الرّاهن.

يحمل حلّ القضيّة الكُرديّة تعقيدات عديدة، منها ما وضعتها القوى العالميّة، وأخرى خلقتها الدّول التي اقتسمت جغرافيّة كردستان فيما بينها، بعد نشوء الدّول القوميّة في كلّ من تركيّا والعراق وسوريّا وإيران، حيث سوّقت لنظريّة التآمر وربطتها بالقضيّة الكُرديّة. فدخلت في أحلاف وعلاقات الغاية منها سدّ جميع السُبُل أمام حلّ القضيّة الكُرديّة. ولا يخفى على أحد أنّ الصراع في بداية القرن العشرين على جغرافيّة كردستان بين كلّ من بريطانيا وفرنسا وروسيّا، حدت بها إلى تقسيم الوطن الكُرديّ بين أربعة دول، وانعكس الصراع الدّوليّ، إن كان في الحرب العالميّة الأولى، أو بين الحربين العالميّتين، بشكل مباشر على واقع كردستان والشّعب الكُرديّ، من خلال تمريره عبر مجازر جماعيّة، دون أن يصدر أيّ رد فعل من قوى الهيمنة العالميّة حينها، بما فيها الاتّحاد السوفييتي الذي كان يدّعي الدّفاع عن الشعوب المقهورة ودعم حركات التحرّر الوطنيّة في العالم.

إنّ الخوض في تفاصيل الصراع الدّائر على كردستان وفيها، هو موضوع بحث طويل، ربّما تُتاح لنا الفرصة لاحقاً لإعداد بحث كامل عنه، لكن ما يهمُّنا في هذه الدّراسة، هو إسقاطات الصراع الدّائر في المنطقة بين الولايات المتّحدة الأمريكيّة وكلّ من روسيّا والصّين على الواقع الكُرديّ، وخاصّة في روج آفا/ غرب كردستان، وكذلك على باكور/ شمال كردستان.

حافظت الصّين على خطّها الجامع بين الطّموح في الصعود الاقتصاديّ، والنأي بنفسها عن الصراعات والنّزاعات الدّوليّة المختلفة، وهي في هذه الحالة، ومن حيث النتيجة، لعبت، ولا تزال، دوراً سلبيّاً وانتهازيّاً، إن صحَّ التعبير، لتدخل في مساومات ومقايضات مع الدّول الرّأسماليّة، لاستدامة تدفّق الطّاقة اللّازمة لتدوير عجلة الصناعة المتنامية لديها، غير آبهة بقضايا الشّعوب ومصيرها، ولتبتعد عن مبادئها الاشتراكيّة والشّيوعيّة، التي طالما نادت بها. ولم تُبدِ أيّ مواقف إيجابيّة تجاه القضيّة الكُرديّة، على العكس من ذلك، لا تزال تؤيّد مواقف وممارسات الدّول المقتسمة لجغرافيّة كردستان. وخلال الأزمة السّوريّة، دعمت الصّين بشكل خفيّ مساعي تركيّا في نقل المسلمين الإيغور المتطرّفين من الصّين، لتوطينهم في المناطق الكُرديّة، إن كان في باكور كردستان أو في عفرين التي احتلّتها تركيّا في ١٨ مارس/ آذار ٢٠١٨. وهي تنظر إلى المسألة من زاوية التخلّص من المتطرّفين الإيغور، ولو كان على حساب تشريد الشّعب الكُرديّ من موطنه الأصليّ.

كما أنّ روسيّا هي الأخرى، مارست سياسة عدائيّة تجاه قضيّة الشّعب الكُرديّ في روج آفاي كردستان وباكور، فهي التي منحت تركيّا الضوء الأخضر لاحتلال عفرين وسري كانيه/ رأس العين وكري سبي/ تل أبيض، كما أنّها لا تزال تمارس ضغوطاً على النّظام السّوريّ لمنعه من إنجاز أيّ اتّفاق مع الإدارة الذّاتيّة الدّيمقراطيّة في شمال وشرق سوريّا.

دخول قوّات سوريّا الدّيمقراطيّة ضمن التّحالف الدّوليّ لمكافحة الإرهاب، اعتبرته روسيّا وكذلك الصّين، تحالفاً مناوئاً لها وضدّ مصالحها في سوريّا. وعليه وجد الصراع الرّوسيّ – الأمريكيّ مرتسماته على الأرض في محاولة روسيّا النّيل من قوّات سوريّا الديمقراطية والإدارة الذّاتيّة الدّيمقراطيّة وإضعافها، وكذلك من الشّعب الكُرديّ في روج آفا.

المناكفات بين القوّات العسكريّة الرّوسيّة والأمريكيّة في مناطق روج آفا، هي في المحصّلة، تفضي إلى فرض حصار عليها، وإبقائها ضمن دائرة مغلقة، وبالتالي عدم تمكّنها من تحقيق انفتاح على العالم الخارجيّ.

بدروها الولايات المتّحدة الأمريكيّة لم تخطو إلى الآن خطوات جادّة في سبيل ترسيخ

بنية الإدارة الذّاتيّة. وليتمكّن الكُرد من نيل حقوقهم المشروعة ضمن سوريّا ديمقراطيّة في المستقبل. فظلّت تنظر إلى القضيّة الكُرديّة من زاوية معادلتها بميزان الرّبح والخسارة مع حلفائها مثل تركيّا والعراق. ولم تضع إلى الآن استراتيجيّة واضحة للتّعامل مع القضيّة الكُرديّة.

فالصراع بين روسيّا والولايات المتّحدة في بداية عام ٢٠١٦ أدّى إلى تقسيم مناطق روج آفا بين "شرق وغرب الفرات". فهذا المفهوم والمصطلح المرتبط بمناطق نفوذ الدّولتين لم يكن موجوداً قبل الاتّفاق الذي حصل بين وزيري خارجيّتيهما. وهذا هو الجرح النّازف في روج آفا. تبعه احتلال عفرين وسري كانيه/ رأس العين وكري سبي/ تل أبيض.

لا تزال الدّول العظمى تتعامل مع القضيّة الكُرديّة من منطلق الحفاظ على مصالحها في المنطقة. وكان الرّئيس الأمريكيّ السّابق دونالد ترامب الأكثر وضوحاً في هذه المسألة. عندما وقف مع تركيّا في عدوانها على مناطق روج آفا. وساوى بين الشّعب الكُرديّ ودولة الاحتلال التركيّ. حيث ادّعى بأنّ الصراع بينهما طويل وليس بوسعهم إنهاءه. كذلك أطلقت رئيسة الوزراء البريطانيّة السّابقة «تيريزا ماي» تسمية "الإرهاب" على الشّعب الكُرديّ في لقاء لها مع أردوغان.

خاتمة:

إنّ النّهوض الاقتصاديّ الصّينيّ المتنامي. والسّعي الحثيث للبحث عن مساحات إضافيّة لاستثماراتها التي غزت العالم أجمع. وكذلك حاجتها المستمرّة إلى الطّاقة. من نفط وغاز. مقروناً بتعزيز روسيّا لقدراتها العسكريّة وإنشاء عدّة قواعد لها في منطقة الشّرق الأوسط. لا تضعها في سويّة الولايات المتّحدة من حيث قدرتهما على مواجهتها في المنطقة. وكذلك السّيطرة على مصادر الطّاقة وأسواق بلدان المنطقة. وأغلب الاعتقاد أنّ الولايات المتّحدة ستحافظ على موقع الرّيادة في فرض نفوذها العالميّ. ولا تغدو محاولات روسيّا والصّين سوى عراقيل آنيّة. سرعان ما ستتلاشى وتزول أمام القوّة العسكريّة والاقتصاديّة الأمريكيّة في المنطقة. وتغلغلها في تفاصيل مجتمعاتها وشعوبها.

المراجع:

1 – دراسة للدّكتور "خضر عباس عطوان" بعنوان "مستقبل العلاقات الأمريكية الصّينيّة"، التّابع لـ"مركز الإمارات للدّراسات والبحوث الاستراتيجيّة" في فبراير/ شباط 2021.

2 – تصريح لقائد القيادة المركزيّة الأمريكيّة الجنرال "كينيث ماكينزي" في عام 2020.

3 – دراسة بحثيّة لمركز "الأهرام" عن العلاقات الصّينيّة الأمريكيّة عام 2020.

4 – دراسة للباحث "محمّد عطيّة محمّد ريحان" في دراسة له بعنوان "التجربة الصّينيّة وتحدياتها المستقبلية".

5 – كتاب "دفاعاً عن شعب" للمفكّر الكُرديّ عبد الله أوجلان.

6 – تقرير معهد ستوكهولم لدراسات السّلام لعام 2015.

7 – مقالة للكاتب "عبد الجليل زيد" بعنوان "الصّين والمسألة السّوريّة" نشر في موقع الجزيرة. نت.

8 – دراسة للباحث "مروان قبلان" بعنوان "المسألة السّوريّة واستقطاباتها الإقليميّة والدّوليّة".

9 – دراسة للباحثة "سُنيّة الحسينيّ" بعنوان "سياسة الصّين تجاه الأزمة السّوريّة: هل تعكس تحوّلات استراتيجيّة جديدة في المنطقة ؟".

سياسة أردوغان في بث الكراهية وتأجيج الصراعات القومية

شيران زادة

تمهيد

دأبت الدول الغربية الاستعمارية على مرّ العصور والأزمان على زرع التفرقة والتفكّك بين الشعوب والدول في الشرق الأوسط؛ تلبية لمصالحها الاستراتيجيّة في المنطقة من جهة، ولتسهيل السيطرة عليها وتمرير أجنداتها في المنطقة من جهة أخرى، بحيث تبقى الشعوب المستهدفة في معمعة و تخبط دائمين وهي باحثة عن كينونتها،

ولربّما يأتي الشعب الكردي في المرتبة الأولى من ضمن الشعوب التي مورست بحقها سياسة الاضطهاد والامّحاء والانصهار، لا سيّما في القرنين الماضيين من قبل الدول الإقليمية، وبدعم من الدول العظمى، لا سيّما بريطانيا التي كانت بمثابة العقل المفكّر لتقسيم جغرافية المنطقة، ومنع قيام الدولة الكردية في المنطقة، لا سيّما من خلال حليفتها تركيا التي كانت أداةً طيّعة بيدها.

ففي القرن التاسع عشر الذي شهد فيه العالم بزوغ الفكر القومي وحق الشعوب في تقرير مصيرها، نجد العالم يتكاتف لمنع قيام الدولة الكردية على غرار كل دول العالم، ففي اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ تم تقسيم كردستان إلى أربعة أجزاء في كلّ من سورية وتركيا وإيران والعراق، ولعبت الدولة التركية الدور الرائد في هذا المضمار، ومارست كل قيادتها جُلَّ أشكال الفاشيات من سوداء و بيضاء وخضراء بحقّ الشعب الكردي؛ لمنعه ليس فقط من الحصول على استقلاله، وإنّما حرمانه أيضاً من ممارسة بعض حقوقه الثقافية والإنسانيّة والقوميّة، وفي الوقت الذي وصل فيه أردوغان إلى سدة الحكم، استبشر المراقبون لخط سيره خيراً بحقّ الشعب الكردي عندما أطلق ببداية حكمه عام ٢٠٠٥ مبادرة السلام مع حركة التحرر الكردستانيّة، وعلى إثرها ظنّ الشعبان؛ التركي والكردي أنّهما سينعمان بالسلام والاستقرار، لكن بعد مرور وقت ليس ببعيد ظهر للعلن عدم نيّة أردوغان وحزب العدالة والتنمية للسلام المزعوم، وعلى العكس من ذلك قاموا بالمزيد من التنكيل والاضطهاد بحقّ حركات التحرر الكرديّة، وزجّ قادتهم في السجون، واكتظّت بمعتقلي الرأي والفكر الحر الديمقراطيّ.

ظهور أردوغان وتعاونه مع إسرائيل والرأسمالية العالمية، ودوره في زعزعة الشرق الأوسط

لم يكن ظهور أردوغان مفاجئاً، بل كان مدبّراً من قبل الحداثة الرأسماليّة، فقد بات الشرق الأوسط على أبواب قرن من تجديد اتفاقية سايكس بيكو التي مزّقت الشرق الأوسط عامّة، وكردستان بشكل أخص، والتي كانت أراضي موزوباتاميا التي كانت مهد البشريّة، وبما أنّ الحداثة الرأسماليّة تريد أبداً الخلاص من الثقافات المتجذّرة لأنّها العائق أمامها، فهذه الثقافات لا تصنع الإنسان الفرديّ الذي هو دعامة الليبراليّة في العالم الجديد الذي ينشده دعاة الصناعويّة مدمّري الطبيعة، والذين يريدون أن يجعلوا الكوكب عبارة عن أداة للصراع الطبقيّ والتفاوت، واحتكار المال.

لهذا دأبت الحداثة الرأسمالية على نزع الحضارات في الشرق الأوسط، وطرح مشروع الشرق الأوسط الكبير، والفوضى الخلّاقة، لذلك مهّدت لخروج شخص لا يعرف السلام، ومهمّته تكمن في ضرب الحضارات بعضها ببعض، وخلق فتيل الأزمات، وبما أنّ موقع تركيا الجغرافيّ يؤهلها أن تكون محطّمة الثقافات، فلابدّ من خلق شخص فيها يلمّ شمل المسلمين المتطرّفين، ويحطّم كل الشعوب، ويخلق التوترات والحزازيات ما بين الشعوب للتقاتل، وتمحو كلّ الحضارات الباقية، فقد استطاع مصطفى كمال أتاتورك أن يحطّم هذه الشعوب ويقتل مليوناً ونصف مليون أرمنيّ، ويخلق إسفيناً ما بين الشعوب، فلابدّ من شخص آخر يكون زعيماً للإسلام السياسيّ، بمساعدة الأخوان المسلمين.

ولابدّ من أن يستميل الكرد لطرفه، فيعدهم بأحلام وأوهام ليصلّ إلى سدّة الحكم، ويبدأ بمشروع صفر مشاكل لينتهي الآن إلى صفر حلول، فخرج أردوغان وبدأ بمشروعه، ومع ظهور الربيع العربيّ الذي يسمّيه المفكّر عبد الله أوجلان بربيع الشعوب، بدأت مهمّته الماسونيّة.

وفتح أردوغان أبواب التعاون مع جميع دول الرأسمالية العالميّة، ومع إسرائيل، ووطّد علاقته كذلك مع الماسونية العالمية، بالإضافة كذلك تعمّقت أواصر ارتباطاته مع الإخوان المسلمين، لفكّ كينونة دول الشرق الأوسط، والمساهمة في تشكيل جغرافية، و ديموغرافية الشرق الأوسط الكبير، بما يتوافق مع مصالحه، ومع مصالح الرأسمالية العالمية، فمن ناحية نجد أردوغان

الناطق باسم العالم الإسلاميّ، وحامي حِمى المسلمين، ويدافع عن الإسلام، والعالم الإسلاميّ، ويزور جميع المدن العربية والإسلاميّة، ويخطب باسم الإسلام، حتّى فترة من الزمن نجح في ادّعاءاته، وكاد ينجح في مساعيه، لولا أنّ العالم كشف زيف ميوله، ونواياه الاستعمارية في المنطقة، وكذلك نجده في الوقت نفسه يطرح مشروعه العلمانيّ، ويسعى للوصول بتركيا إلى مصاف الدول العلمانية الأوربيّة، ومحاولة الدخول إلى الاتّحاد الأوروبي، لذلك كان في تناقض في مشروعه، فلم تكن له زاوية واضحة في مشروعه الذي يحاول فيه خلط الأوراق فحسب.

وهنا ظهرت هلاميّة، وتخبّط نظام أردوغان، عندما حاول دمج الإسلام مع العلم، فمن ناحية منع فتح المدارس الدينية التابعة لفتح الله غولن، ومن ناحية أخرى رفض نظرية داروين للتطور في المناهج المدرسية، ومن سير الأحداث يتبدّى ادّعاؤه للإسلام هو فقط، لإعادة أمجاد الدولة العثمانيّة، والتغلغل باسم الإسلام إلى كافة العالم الإسلامي والعربيّ، وإعادة السيطرة عليها، وبما أنّ غالبية شعوب المنطقة كان رادعها الفكري والأخلاقي والميثولوجي هو الدين الإسلامي، فأراد أردوغان اللعب على هذه الورقة، والزيادة في وتيرتها، وهنا ظنّ أردوغان من السهل اللعب بالتاريخ والثقافة والفكر تحت مسمّى الإسلام، لكنّه لم يكن يدرك أنّ لكل مجتمع طاقته الارتدادية.

رغم حمل أردوغان لواء الإسلام، إلّا أنّ علاقته بقيت قائمة مع رأس المال اليهوديّ، التي بقيت تدعمه إلى حدود معيّنة، وإن كانت تخالفه في بعض تطلّعاته، ولم ينجح أردوغان في تأسيس دولة ديمقراطية علمانية اجتماعية، وإنما بقيت محافظة على طابعها الرأسمالي، بل مهّد لتركيا الرأسمالية الجديدة، فباتت تركيا ضمن منظومة الحداثة الرأسماليّة، فانخرط في عوالم النظام العالم الجديد وتبنّى النيوليبرالية والرأسمال المالي، فأصبحت كلّ تركيا بيد التجّار، ولم يبلق للشعب أيّ شيء، بل لم تبق للدولة شيء، وصارت ضمن منظومة التجارة العالميّة

> **دأبت الدول الغربية الاستعمارية على مرّ العصور والأزمان على زرع التفرقة والتفكّك بين الشعوب والدول في الشرق الأوسط؛ تلبية لمصالحها الاستراتيجيّة في المنطقة من جهة، ولتسهيل السيطرة عليها وتمرير أجنداتها في المنطقة من جهة أخرى، بحيث تبقى الشعوب المستهدفة في معمعة و تخبط دائمين وهي باحثة عن كينونتها، ولربّما يأتي الشعب الكردي في المرتبة الأولى من ضمن الشعوب التي مورست بحقها سياسة الاضطهاد والامّحاء والانصهار**

المتحكّمة بالعالم، فتغريدة من السيّد ترامب كفيلة أن تزلزل أركان الدولة التركيّة، وتزعزع الاقتصاد التركيّ، وهذا ما يطمح إليه النظام العالميّ في جعل الشرق الأوسط ضمن المنظومة العالميّة، ولا يمكن أن يحصل ذلك دون هدم ثقافة الشرق الأوسط.

فلا ريب أنّ النظام العالمي يخلق النعرات الطائفية التي لم تكن موجودة قبل انتصار الحداثة الرأسمالية واحتلالها الشرق الأوسط، وتقسيمه، واللاعب الأبرز في دقّ إسفين التفرقة بين الشعوب هو مزيج السلطنة العثمانية ودمجها بالراديكاليّة الإسلاميّة، وتطبيعها بنظام الأخوان المسلمين وهذا ما يتوفر في شخصيّة أردوغان.

بث الكراهية بين الشعوب التركية والكردية والعربية

لم يكن مشروع تركيا الكارهة وليد اللحظة، فجعل الشعب التركيّ شعبَ الله المختار،

واللسان الأرقى والأجمل كان دأب الفاشيات البيضاء والسوداء التي سبقت فاشية حزب العدالة والتنمية الخضراء، وقد استطاعت أن تكون الفاشية الخضراء أخطر من كلّ الفاشيات التي سبقتها، فقد اعتمدت الفاشيات التي سبقتها على العلمانية في فاشيتها، لكن هذه الفاشيّة استغلّت الدين وحوّلت هذا الدين الذي يعتبر العامل الأخلاقي للمجتمع إلى أداة قتل وإجرام، فقد تحوّلت تركيا إلى موطن كل الإرهابيين في العالم، وبات في البيت الواحد عدّة تيّارات متصارعة، فبات التركي المتأسلم ضد التركي العلمانيّ، والكرديّ ضدّ الكرديّ، وهذا الحزب يحارب هذا الحزب، وباتت الصراعات الحزبيّة عبارة عن ساحات مصارعة، وجلب أردوغان كلّ الإرهابيين في العالم وجمعهم في تركيا.

لقد عملت الفاشية الخضراء على تفكيك بنية المجتمع التركي، وذلك من خلال الطاعة العمياء للإسلام في السيطرة على دماغوجية الشعب، والخضوع لله، والإسلام ولوكيلهم على الأرض متمثّلاً بأردوغان، وحارب أيّ فكر علميّ تقدّمي ليسهل السيطرة على الشعب، كما قام بتجذير بذور الكراهية والفتنة بين الشعبين؛ التركي والكردي في الداخل التركيّ، وذلك من خلال دعمه الفصائل الجهاديّة الإسلاميّة، وفتح ممرّات، ومعسكرات لهم في الداخل التركي، وأضحت تركيا بوّابةً للغرب إلى الشرق الأوسط، كما عمل أردوغان على لبرلة الاقتصاد في تركيا، وسمح بتضخم فئة الرأسمال على حساب إلغاء الفئة الوسطى والصغيرة، وتكديس الاقتصاد بأيدي البرجوازية الرأسمالية، وخضوعها المباشر للسلطة الحاكمة، وأضحى الحكم في تركيا حكما ديكتاتوريا بامتياز، كلّ هذه الاستراتيجية التي اتّبعها أردوغان كان هدفها الرئيسيّ زعامة العالم الإسلاميّ، ومحاربة الكرد، وأيّة حركات كردية تحرّريّة، سواء في غربيّ كردستان، أو في شماله، وما تدخّله السافر في الثورة السوريّة إلّا انعكاس لهذا النهج، جميعنا يتذكر مقولته الشهيرة حماة خطّ أحمر، وأنّه لن يسمح بارتكاب مجازر في حمص، وأنّه سيصلّي في الجامع الأمويّ، نجد كلّ أقواله ذهبت في مهبّ الريح، والكرد في شمال كردستان الذين دعموه في الانتخابات، وساعدوه في الوصول إلى دفّة الحكم، تنكّرَ لهم، ولم يفِ بوعوده لهم، عندما صرّح أنّ القضية الكردية هي قضيتنا، نجده بعد سنة فقط يصدر قانون مكافحة الإرهاب الذي توسّع نطاقه ليطال الأطفال والنساء أيضاً، وكلّ من يخالفه الرأي، وقد اعتبر من أقسى القوانين المضادّة للكرد على مختلف عهود الجمهورية التركيّة، وما قتله الأطفال والنساء في شوارع جزيرة بوطان وغيرها من المدن الكردستانية إلا حقيقة مشروعه الذي لم يلق النور، وقد ظل أردوغان يقول عكس الواقع، ولطالما أنّ المنظومة الإعلامية بيده، فلماذا لا يكذب، ويزيّف الحقائق؟! وقد ظنّ أنّه القائد الناجح، والمفكر العظيم، ويريد أن يدخل التاريخ التركيّ والإسلاميّ والشرق أوسطيّ باستقباله الذكرى السنوية المئة لتأسيس الجمهورية التي تصادف ٢٠٢٣ تحت قبّة السلطان المؤلّفة من ١٥٠٠ غرفة، لكن هيهات لمشروعه أن ينجح فقد جنّد المعارضة السورية لخدمة مشروعه الإباديّ ضد الكرد، فدمّر سوريا، وسقط مشروعه، وكانت نزعة الإسلام السنّي المعتدل مبدأه من أجل كردستان عموماً.

دور أردوغان في الشمال السوري من خلال مساعدة داعش، ومساعدة التيارات التكفيرية التي تبث روح التفرقة ما بين الشعوب، وتتريك المناطق التي احتلتها في الشمال السوري

لم يكن هدف أردوغان في مساندة الثورة السورية هو الشعب السوريّ، بل كن مخطّطه هو الأمن القوميّ التركيّ الذي ظلّ يتبجّح به علانية، فتحوّلت قيادة الثورة السورية إلى أردوغان، وبات الجيش الحرّ طوع بنانه، وكان هدفه من الأوّل السيطرة على حدوده الجنوبيّة، أي المناطق التي فيها غالبيّة كرديّة، أي روجآفا، وبالتالي كانت روجآفا هي الهدف الرئيس لأردوغان.

نجد أن أردوغان قد سخّرَ كلّ إمكانياته وطاقاته لإفشال المشروع الديمقراطيّ في الشمال السوري، من خلال ادّعائه أنّ حزب الاتحاد الديمقراطي هو

حزب إرهابيّ وأنّه شبيحة نظام بشار الأسد، وذلك لتشويه سمعة هذا الحزب الذي استطاع الحفاظ على أمن وسلامة وحماية المناطق الكرديّة، والشعب الكردي من براثن هذه الثورة العمياء التي استغلها أردوغان أيّما استغلال، وكذلك محاربتهم وحدات الحماية الشعبية الكردية التي هي من أبناء المنطقة، وهبّوا للدفاع عن أراضيهم، فعمل أردوغان على التكاتف مع الفئة الكردية الصغيرة التي تعمل دائماً لصالح الأجندات الخارجيّة، والعمل كمرتزقة لمصالحهم الشخصية، فكانت شريحته التي تهاجم وحدات حماية الشعب، وذلك من خلال محاولة إفراغهم من مضمونهم النضاليّ، وتنصيب أنفسهم الممثل للشعوب، وهم يرتزقون في أروقة قصور أردوغان، ومن ناحية أخرى دعم أردوغان الفصائل الجهادية من خلال الفيديوهات والصور المسرّبة، وكيف بعثهم إلى الشمال السوري للقضاء على المشروع الديمقراطيّ في الشمال السوريّ، الذي تجسّد في مهاجمة داعش للمناطق الكرديّة الآمنة، لا سيّما هجومهم على مدينة كوباني عام ٢٠١٤، ورهانه على سقوطها، وادّعائه أنّ كوباني سقطت، وفشلهم الذريع في حرب كوباني، والتي كشفت زيفه، وتدخّله السافر في غربيّ كردستان؛ لتمرير رغبته في القضاء على المشروع، والشعب الكرديّ، وزرع الفتنة بين الكرد والعرب؛ من خلال ادّعائه أنّ الكرد دعاة انفصال، وأعداء للشعب العربيّ، وهنا وجدت الدول الرأسمالية فشلها في الاعتماد على أردوغان لتغيير خارطة الشرق الأوسط الكبير، وفشل فكرة المشروع الإسلامي المعتدل، ونجد تباعد الدول الرأسمالية عنه، وبحثهم عن صيغة أخرى، وحليف آخر في المنطقة.

وهنا نجد كيف أن أردوغان قد صبّ جام غضبه على الكرد في شمال كردستان، ولم يستثني أيّة مدينة كردية من هجماته من نصيبين إلى آمد و شرناخ و جزيرة بوطان، واللعب على حبل أنّ حركة التحرّر الكردستانيّة تسعى إلى الانفصال عن الدولة التركية، وأنّها ستحارب الشعب التركيّ، وزرع الفتنة ما بين الشعب الكرديّ، والتركيّ؛

> **لم يكن ظهور أردوغان مفاجئاً، بل كان مدبّراً من قبل الحداثة الرأسماليّة، فقد بات الشرق الأوسط على أبواب قرن من تجديد اتفاقية سايكس بيكو التي مزّقت الشرق الأوسط عامّة، وكردستان بشكل أخص، والتي كانت أراضي موزوباتاميا التي كانت مهد البشريّة، وبما أنّ الحداثة الرأسماليّة تريد أبداً الخلاص من الثقافات المتجذّرة لأنّها العائق أمامها، فهذه الثقافات لا تصنع الإنسان الفرديّ الذي هو دعامة الليبراليّة في العالم الجديد الذي ينشده دعاة الصناعويّة مدمّري الطبيعة**

لكسب مؤيدين ومناصرين لأفعاله الإجرامية، وبعد تدمير أردوغان المدن الكردستانيّة بدأ بحملة اعتقالات واسعة لجميع المفكّرين والمعارضين لسياسته، وكذلك زجّ رؤساء البلديات في غياهب السجون، من نساء ورجال نجحوا بشكل ديمقراطي في الانتخابات، وما اعتقال زعيمَي حزب الشعوب الديمقراطي؛ «صلاح الدين دمرتاش ٠وفيغان يوكسك داغ" لهو أكبر شاهد، ودليل على محاربته الشعب الكرديّ والتركيّ على السواء، ومحاربته الفكر الحرّ والديمقراطي ضمن تركيا، لكنّ أردوغان سيدرك قريباً أنّ سياسته هذه ستكون بمثابة انقلاب السحر على الساحر، وسيضيع في بوتقة غيّه وديكتاتوريته.

لقد حاول أردوغان دائماً وأبداً أن يقوّي الجانب العدائيّ للعرب ضدّ الكرد، ويجعلهم الأعداء- كما فعل في تركيا، فقد بات الشعب التركيّ يفرح دون وعي منه لاحتلا عفرين والقضاء على الإرهابيين حسب زعمه.

كلمة لا بدّ منها

”نجد أن أردوغان قد سخّرَ كلّ إمكانياته وطاقاته لإفشال المشروع الديمقراطيّ في الشمال السوري، من خلال ادّعائه أنّ حزب الاتحاد الديمقراطي هو حزب إرهابيّ وأنّه شبيحة نظام بشار الأسد، وذلك لتشويه سمعة هذا الحزب الذي استطاع الحفاظ على أمن وسلامة وحماية المناطق الكرديّة، والشعب الكردي من براثن هذه الثورة العمياء التي استغلها أردوغان أيّما استغلال، وكذلك محاربتهم وحدات الحماية الشعبية الكردية التي هي من أبناء المنطقة.“

رغم كلّ سياسة أردوغان في إفشال المشروع الكرديّ، وزرعه التفرقة بين الشعوب الكرديّة والتركيّة من جهة، والشعب العربيّ والكرديّ من جهة ثانية، وتجنيدهم جميعا لمشروعه الاستبدادي، إلّا أنّه لم يكتفِ بذلك، وكشف الغطاء عن وجهه، وتجاوز مرحلة الحرب بالوكالة إلى الحرب المباشرة العلنيّة من خلال قوّته وجيشه العسكريّ بتدخّله المباشر في كرى سبي و سرى كانيه الكرديتين، من دون أي وجه حقّ، أو شرعية تخوّله لاحتلال مدن دولة مجاورة، فهو لم يكتفِ باحتلال عفرين من خلال مرتزقته الذين دخلوه بآلة الحرب، وتسبّبوا بتهجير الآلاف من سكّان مدينة الزيتون، وإلباسها ثوب التتريك من خلال القضاء على اللغة والثقافة الكرديّة، وجعل اللغة التركية لغة العلم والثقافة، وما الهجوم الأردوغاني الشرس الخطير على كرى سبي و سرى كانيه إلّا محاولةً أخيرة للقضاء على الحلم الكرديّ، ومشروع الإدارة الذاتيّة في شمال وشرقيّ سوريا.

وبعد أن امتدّت يده إلى المافيا التركيّة، فقد بات رئيس المافيا يهدّد وجوده، والتخبّط الاقتصاديّ الذي وصل إليه، عبر وضع الغفرب إيّاه لزعزعة الشرق الأوسط.

لربما الذي لا يدركه السيد أردوغان أنّه قد دقّ مسمار الخطر في نعش موته؛ بحربه المعلنة الأخيرة على الشمال السوريّ، واستطاع أن يكون البوابة للغرب في تطبيق مشروع الشرق الأوسط الكبير، وانقلب السحر على الساحر، وخلق فوضى عارمة في الداخل التركي الذي تعالت فيه الأصوات التي تنادي بإقالته وفشل سياسته، وما ظهور باباجان المدعوم من الغرب إلّا دليل على انتهاء مدّة صلاحيته، لكنّ الرأسمال العالميّ تأكّد أن الديمقراطيّة المجتمعيّة التي تقوى في الشمال السوريّ هي الحلّ التوافقي الأرقى، وأنّ مشروع الأمّة الديمقراطيّة يفرض نفسه على الساحة كلاعب لا يمكن التخلّي عنه، على الرغم من التضاد الموجود ما بين مشروع الحداثة الرأسماليّة والحداثة الديمقراطيّة، إلّا أن مشاريع الحداثة تفشل عندما يتعلّق الأمر بمسألة الأمن والاستقرار، فعندما تكون الحداثة الرأسماليّة الوسيلة الرئيسة للحرب، لكن عندما تحتاج إلى الاستقرار لا تفيدها مصطلحات التنمية البشرية والحوكمة في الشرق، فلا حلّ إلّا الحلّ المجتمعيّ الشرقيّ، الأطروحة التي طرحها المفكّر عبد الله أوجالان.

دراسة في كتاب "في نقد العقل الشرقي"

عواس علي

بداية وجدت نفسي أمام بوابة الشرق واقفاً أتهيأ للدخول إلى عالم ضبابي بكل معنى، فلمحت المعارك بغبارها الهائج حتى بلغت عنان السماء، ثم تفقدت رمحي وترسي، لكن في البداية لم أجرؤ على الدخول، لأن الشرق له فرسانه الخاصون، فالحق ليس متاحاً لأي شخص لولوج عتبة الشرق، الشرق المعتم المكتظ على ساكنيه، المقدس للموت والنابذ للحياة، فالشرق الطافح بالروحانية والخالي من المادية، قلاعه حصينة. تفقدت أثر الباحث «بولات جان»، فوجدته قد أمعن الخوض في عباب الشرق، مرة أصاب الهدف ومرة جانبه، أردت أن أتفقد أغوار ما قدّمه من تحليل وتركيب للعقل الشرقي مرة بطريقة استنباطية ومرة بطريقة استقرائية، وددت أن أجعل القارئ الشرقي يطّلع على حقيقته بطريقة سهلة من خلال ما رآها الباحث، وسواء وُفّقت في نقل الحقيقة أم لم أوفق؟ فهذا حكم يتطلب من الإنسان الشرقي الاطلاع على كتاب الباحث.

ارتأيت أن أبدأ من حال الإنسان الشرقي كباحث يسعى وراء الاستشراق البعيد عن عبق الشرق ورائحته، فأردت أن ألفت النظر بداية إلى الباحث الشرقي من خلال أسئلة:

- هل من الصحيح أن الشرق لا يطربه مزمار الحي، فنجد كماً هائلاً من الندوات والحوارات في التلفزة عن كتّاب غربيين وباحثين من الغرب يتم استسقاء آرائهم عن الشرق؟

- هل من الصحيح أن الشرق يتمتع بروحانيته والغرب بماديته؟

- ماذا جلبت حضارة الشرق للشرقي سوى الأديان المكبّلة له؟

- هل من الصواب أن نقول إن الشرقي يخاف من مبضع الطبيب ويتجه إلى التداوي بالتعاويذ والتمائم بدل العلاج بمواد علمية، أواللجوء إلى العلاج الغربي كونه حائز على ثقة الشرقي بدل العلاج الشرقي الذي لا يثق به حتى صانعه؟

- لماذا الشرقي دائم التباهي بماضيه؟ هل الجواب ينحصر في كون الشرقي لا يملك حاضره؟

- لماذا يرمي الشرقي بأسباب الهوائل التي تصيبه على الغرب؟ وهناك عدو دائم مبتذل للسلطات الشرقية، ثم يتم توجيه الشعوب الشرقية لمحاربته؟

- الشرقي يتباهى بالأقوال، وليس فيه من الأفعال ما يتطابق مع الأقوال.

- ثم ما سرّ تقديس الشرق للموت والأموات؟

هل من الصحيح لو قلنا أن كتاب بولات جان، لو كان لباحث أو كاتب غربي لرأينا الشرق بكافة وسائله الإعلامية المسموعة والمرئية يسرده، ويتناوله في حوارات وأبحاث مطولة، لكن الباحث كونه من الشرق فمزمار الشرق لا يطرب الشرقي.

«كاتب كتاب في نقد العقل الشرقي» رجل من الشرق تعمّق في دراسة ذهنية الإنسان الشرقي وروحه، تأبّط مبضعه واتجه إلى وضم المشرحة، ولا ينسى بداية أن يعرّف المريض بذاته، ويتباحث معه حول أسباب المرض ثم تعريفه بمرضه، ولا ينسى أن يلفت انتباه المريض إلى ما قد يحتاجه من آخر وسيلة للعلاج وهي الكيّ.

يبدأ الكاتب من فكّ الشيفرة الشرقية ونظرة الغرب للشرق، فالشرق في عيون الغرب رجل حافٍ متمعن في الصحراء يقطر على أثره عدد من الجمال، أطفال حفاة عراة، ونساء على شاكلة كتلة من القماش الأسود دبّت فيه الحركة، الشرق هو صدام حسين، وأسامة بن لادن وداعش، الشرق هو الرؤوس المقطوعة المعلقة على أسوار الحدائق، الرؤوس الآدمية التي حوّلها الدين إلى كرة قدم يلعب بها الأطفال في الشوارع والحدائق، الشرق ذو اللون الأوحد: اللون الأسود.

ومن المؤسف أن الشرق يساهم في نقل هذه الصورة للغرب (أحد المثقفين الشرقيين كان يبعث بملف مصور لإحدى القتيلات الغربيات في الشرق، وقد تم جزّ رأسها بسكين، أوصى المفتي بأن يكون السكين حاداً، قال لي الشاب المثقف: انظر لرحمة المسلم، لا تفوته الوصية بأن يكون السكين حاداً).

هذا الشاب كان يوصي و يشجع الآخرين على نشر الفيديو على نطاق واسع ليثبت رحمة الإسلام إلى أي مدى تصل.

أما نظرة الشرقي لذاته كعادته فهي التغني بالأمجاد والماضي، من عمر بن الخطاب إلى صلاح الدين، إلى منبع الأديان، ولا ينسى أن يوصي بأن الغرب أخذ عنه كل شيء، بل سرقه.

أما حقيقة الشرق فيوردها بولات جان مُرّة لاذعة كالعلقم، الشرق المتشابه في كل بلدانه ودوله، شرق السجون الرطبة والمظلمة، الشرق مصنع الاستبداد والمستبدين، الشرق الذي تتحول فيه مراكز التعليم لمصاطب لترويض الإنسان على

التحمل والخنوع وتقديس القيادات والحكام، الشرق السوق المفتوحة لتصريف أسلحة الغرب، ليقتل بها الشرقي أخاه، كل ما في الشرق ثمين وأرخصه على الإطلاق هو الإنسان.

منابع تشكّل ذهنيات الشرق

يقول الكاتب إن الإنسان الشرقي مصاب "بعقدة الاكتناز" فهو إنسان مريض بتلك العقدة المرضية النفسية التي يحاول صاحبها التمسك بكل ما هو بالٍ وقديم إلى جانب الجديد، فهو لا يؤمن بالتطور من حيث الذهنية، وليس لديه القدرة أو المحاولة للتخلص من كل قديم لا يتناسب مع التطور المستمر في الكون والطبيعة، فنجده يتمسك بأفكار باتت لا تناسب مرحلة التطور، وأحياناً يقدس تلك الأفكار، يريد بولات جان أن يقول إن ذهنية الشرقي كعربة البائع الجوال تحتوي على أشياء غير متجانسة البتة، فتجد الشرقي شيوعياً وفي ذات الوقت قومياً وقبلياً وعشائرياً، ينفي وجود الله وتجده يثقل صدور أولاده بالتمائم والحُجب وتعاويذ الأولياء الصالحين... وهكذا.

ذهنية الشرقي تتعبه وترهقه كونها تحمل تناقضات وصراعات جمّة وغير متجانسة، البالي فيها يختلط مع الجديد، وكأن الكاتب يريد أن يقول إن الشرقي برجه ماء، وهواء، وتراب، ونار، فالذهنية الشرقية كتلة من التناقضات، تجد بعض الأفكار والحلول المطروحة عند الشرقي من العصور الغائرة، إلى جانب أفكار وحلول جديدة وعصرية، فالشرقي يحمل موروث خمسة آلاف عام إلى جانب الأفكار التي حُمّلت على ظهره، كالفلسفات الجديدة: من الماركسية حتى الرأسمالية، فصفات الشرقي: عاطفي، قدري، اتكالي، ساذج، مكبوت، عشوائي، فوضوي، متنمّر، مسكين، يقضي وقته بلا هدف، سريع الفساد والعطب، يحب الوساطة والمحسوبيات، يخاف الموت ويقدس الأموات، لا يحب القراءة، يقضي وقته في شرب الشاي وفصفصة البزر...

ومع كل هذه الصفات تجد القناعة لديه بأن مؤامرات الكون كلها تُحاك ضده، وتُسرق علومه

> **"بداية وجدت نفسي أمام بوابة الشرق واقفاً أتهيأ للدخول إلى عالم ضبابي بكل معنى، فلمحت المعارك بغبارها الهائج حتى بلغت عنان السماء، ثم تفقدت رمحي وترسي، لكن في البداية لم أجرؤ على الدخول، لأن الشرق له فرسانه الخاصون، فالحق ليس متاحاً لأي شخص لولوج عتبة الشرق، الشرق المعتم المكتظ على ساكنيه، المقدس للموت والنابذ للحياة، فالشرق الطافح بالروحانية والخالي من المادية، قلاعه حصينة"**

واختراعاته ومبتكراته.

يقول الكاتب : «**إن هذه المتناقضات التي يحملها الشرقي ويعتلها على ظهره ترهقه وتجعله غير قادر على مواكبة التطورات الكونية بالشكل السريع**».

أسباب الانحطاط في الشرق

يُرجع بولات جان الانحطاط في الشرق إلى عدة أسباب، منها أسباب داخلية ومنها خارجية، مع التأكيد على أن الشرق كان في مرحلة من المراحل التاريخية منارة للعالم يستقي منه العلوم والفكر والحضارة.

بداية الانحطاط كانت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكان أولها ظهور الانقسامات الداخلية والتشبث بالسلطة، وظهور العناصر التركية في الشرق بكل همجيتها، وسيطرتها على الشرق بكل أجزائه، ثم تلتها هجمات الفرنجة على الشرق بحروب دامية، ثم هجمات

”يقول كاتب الكتاب ”نقد العقل الشرقي“ عن الإنسان الشرقي بأنه مصاب ”بعقدة الاكتناز“ فهو إنسان مريض بتلك العقدة المرضية النفسية التي يحاول صاحبها التمسك بكل ما هو بالٍ وقديم إلى جانب الجديد, فهو لا يؤمن بالتطور من حيث الذهنية, وليس لديه القدرة أوالمحاولة للتخلص من كل قديم لا يتناسب مع التطور المستمر في الكون والطبيعة, فنجده يتمسك بأفكار باتت لا تناسب مرحلة التطور, وأحياناً يقدس تلك الأفكار“

المنغول التي دمرت بنية الشرق تماماً, وهدمت المدن وأنظمة الري, لقد كانت هجمات متبادلة بين المنغول والفرنجة.

ويضاف إليها الأسباب الداخلية التي خوّل بموجبها الشرق إلى حقل مغلق أمام الاجتهاد والابتكار, فتحوّل إلى عبادة النصوص الجامدة وتقديسها, وقتل الكثير من العلماء والمفكرين عبر باب الزندقة والتكفير عن طريق الإفتاء الصادر عن رجال الدين مثل **”الإمام الغزالي“**, حيث تم القضاء على كل حركة ثورية تهدف إلى التجديد, وفي ظل كل هذه الظروف ظل العثمانيون مسيطرين بكل ما يمتلكونه من تخلف قرابة الخمسة قرون, إذ أغلقوا منافذ الشرق على العالم, وبينما في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كان العالم في تطور مستديم والشرق مستمر في انحطاطه؛ توجهت أنظار الغرب إلى الشرق المريض, فكانت بداية ظهور الحملات الأوربية باتجاه الشرق من فرنسا إلى بريطانيا, وكانت عبارة عن حملات استكشافية لجغرافية الشرق, والبحث عن أسواق لتصريف البضائع الأوربية إلى جانب الاستفادة من حضارة الشرق وعلومه المطمورة مع الأوابد التاريخية.

الاستشراق

يدرس بولات جان الاستشراق كعلم ظهر في الغرب وكانت وسائله وأدواته الشرق بحد ذاته, وكانت الغاية من هذا العلم هي دراسة الغرب للشرق بكل تفاصيله من آثار وعلم, إلى دراسة الإنسان المريض وإجراء التشريح عليه للاستفادة من حياته وعمل كل عضو من أعضائه لاكتساب التجارب ونيل المعارف, فكانت البداية من قبل العلماء المتلمذين في الشرق: **”المستشرق عبارة عن فرد قبِل المخاطر على نفسه والتضحية بحياته من أجل أن يقدم لبلاده المرتبط بها وطنياً خدمة علمية أو نفعية, فدأب على تعلم لغات الشرق وعاداتهم وتقاليدهم حتى أصبح فرداً منهم, وكل ذلك لينال رضاهم وثقتهم حتى يقدموا له المعلومة, أو يسمحوا له بالتنقيب و التحري عن معالم الشرق وثقافته».**

كان الاستشراق إعادة استكشاف الغرب للشرق الساحر والغامض المتستّر خلف أساطيره وحكاياه و خرافاته, وربما كانت البداية المشجعة من قبل الكنيسة في الغرب التي كانت تهدف إلى دراسة أصول الأديان في الشرق بما فيها الدين المسيحي, حيث استطاع الأوروبيون أن ينقلوا الكثير من آثار الشرق إلى الغرب لتشريحها ودراستها, كالطب والفلسفة والمنطق والتصوف, ويستفيدوا منها في تطوير أبحاثهم واكتشافاتهم, وربما على ذلك بنى الغرب مفهومه عن الإنسان الشرقي الكسول لحد العجز عن البحث في ما قدمه له أسلافه من علوم وحضارة, فنجد جميع الاكتشافات الأثرية قد قام باكتشافها غربيون بمساعدة الشرقيين الذين كانوا يعملون تحت إشراف الغربيين كعمال حفريات, وعتّالين للمكتشفات, فعلماء الغرب

المتعالين على الشرق يدركون أن أصول جذورهم الحضارية قادمة من الشرق، وفي النهاية لو نظرنا إلى كل تلك الحضارات من منظور إنساني فهي مجموع ما قدمته البشرية للعالم ككل بدون تحديد الاتجاهات الجغرافية، ومن المؤسف أن الشرقي لم يكتفِ بكسله في البحث فيما تركه له أسلافه من حضارة، بل اتجه حينما دبت فيه النخوة إلى تحطيم وإتلاف تلك المعالم الحضارية والثقافية والعلمية.

النظرة الاستشراقية لدى الشرقيين

بعض العلماء والأدباء الشرقيين انتبهوا إلى ما قام به المستشرقون الغربيون من دراسات على كافة العلوم والحضارات الشرقية، فنادوا بالنهضة الفكرية، لكنهم لم يجدوا أمامهم سبيلاً غير الرجوع إلى الدراسات التي قام بها المستشرقون عن الشرق، فالشرقي الذي لم تلفت انتباهه الآثار والمخطوطات الشرقية، وهو المارّ بجانبها في كل يوم، وحوّل بعضها إلى زرائب للدواب، لم يجد في وفاضه ما يدرسه، فاضطر المفكرون الشرقيون أن يبحثوا في ما قدمه الغربيون من دراسات عن علوم الشرق وحضارته، فقاموا بعملية النقل من الغرب بدل البحث العقلي، وهكذا أصبحوا مجرّد أداة نقل لمعارف وأفكار واكتشافات شرقية على يد المستشرقين الغربيين، وحوّل الشرق إلى الغرب للبحث عن ذاته التي لم يعرف كيف يكتشفها، وراح يرى ذاته من خلال عيون الغرب.

على الشرقي ههنا أن يعي ويعرف أن تطور الشرق لا ينبع من الغرب، ولا بأس من الاستفادة من التطور الغربي بما يناسب الشرق، وألا يأخذ عن الغرب كل شيء ويلبسه بدون أن يعي فيما إذا كان يناسب قياسه أم لا، ويجب الابتعاد عن التقليد الأعمى للغرب، ويتوجب على الشرقي أيضاً العودة إلى الشرق ودراسة ماضيه ليعثر على حاضره المنشود.

الاستغراب

الاستشراق الذي ظهر كعلم في الغرب يهتم بدراسة العلوم الشرقية وحضارته؛ ظهر في مواجهته تيار من المثقفين الذين يدعون إلى محاربة الغرب وكل ما قدمه للشرق من دراسات وعلوم، فطالبوا بالعودة إلى السلف، إي إلى الوراء، والابتعاد عن كل ما هو غربي، فكان "الاستغراب» ضد الاستشراق، وجلّ هؤلاء ظهروا بين رجال الدين الذين راحوا يفتون بأن كل ما هو وارد من الغرب أو كل ما هو غربي مكروه، وبعضهم ذهب إلى تحريمه، فظهرت التيارات الإسلامية المعادية للغرب كالوهابية والأخوان المسلمين التي تفرعت عنها منظمة القاعدة وداعش فكانت جذوة السلفية في الإسلام.

ربما الحل الأمثل يكمن في الابتعاد عن تقليد الغرب والأخذ بالنظريات العلمية الثابتة التي قدمها، والأخذ بكل ما يتناسب مع الشرق، والبدء في دراسة روح الشرق من نظرة شرقية، والكشف عن كل ما هو مستور لدى الشرق من القوميات إلى الأديان والتاريخ، والابتعاد عن المغالطات التاريخية، يجب على الشرقي أن يعرف بدايةً مكونات الشرق بشكل مفصّل، والابتعاد عن الخطاب القومي المقيت والتقديس الأعمى للمذاهب المتفرعة عن الأديان في الشرق، وتقديس الفرد وعبادته. والسؤال الذي يتبادر لذهن المرء: **لماذا الغرب استفاد من المعارف الشرقية ولم يستفد منها الشرق نفسه؟!** الجواب يكمن في الذهنية الشرقية المتعصبة لكل ما هو ماض، وتقديس الماضي الذي يطغى على الحاضر.

الغربي أخذ من الشرق كل ما هو مناسب له بعد دراسة تفصيلية وتشريحية، لكن الشرقي مازال مفعماً بكل ما هو منغلق على المقدسات التي تدعو إلى تصرفات بقمّة الوحشية، فالشرقي لا يمتلك حرية الاختيار من حيث الثقافة أو المعرفة، إنه يأخذ كل ما يُقدّم له على شاكلة مقدسات، من النعرة القومية إلى التعصب الديني فالمذهبي، ولا ننسى أن الغرب أخذ عن الشرق ما هو سلبي أيضاً، وخاصة ثقافة القتل والمجازر وربما طوّرها أيضاً، فالوحشية الموجودة في الغرب ربما تتجاوز وحشية الشرق في مضمونها، ولكنها تبقى على نطاق ضيق، ولا ننسى الغرب الذي

أفرغته رأسمالية الدولة من مضمونه الأخلاقي والإنساني.

الاغتراب

ليس الاغتراب هو تغيير المرء لمكانه فحسب، بل هو غربة الروح أيضاً. «**أن تضطر إلى ترك موطنك تحت ظروف قسرية قاهرة وتئن تحت وطأتها، وتُجبر على الرحيل عنه والاستقرار في بلدان أو مناطق أخرى**».

يرى الباحث بولات جان أن الاغتراب يعكس نموذجين لا ثالث لهما:

النوذج الاول: هو الإنسان الشرقي المغترب الذي يجد نفسه مرغماً على العيش ضمن منظومة غربية متكاملة، وهو مرغم على العيش ضمنها، ولكنه في نفس الوقت غير قادر على التخلي عن جذوره الشرقية، فيعيش صراعاً داخلياً مريراً، فلا هو قادر عن الانسلاخ عن ماضيه ولا هو قادر على الاندماج مع المجتمع الغربي، وهذا ما جسّده الأديب السوداني «الطيب صالح» في روايته (موسم الهجرة إلى الشمال)، حيث عاش صراعاً بين الحاضر والماضي الذي لا يقدر على تجاوزه ونسيانه، وذلك ما يولّد لديه الكره تجاه المنظومة الغربية التي أُرغِم على العيش فيها، فتتحول لديه ردة الفعل إلى التطرف، والشاهد على ذلك أن المهاجرين الغربيين مع داعش ذوو الأصول الشرقية هم أكثر تطرفاً من تطرف الشرقي ضد الغرب، فهم يعرفون خفايا المجتمع الغربي بكل تفاصيله المملة.

النوع الثاني: هو الشرقي المغترب الذي يبذل كل ما بوسعه ليتحول إلى إنسان غربي بل أكثر غربية من الغربي نفسه، وربما نجد هذا النموذج أيضاً داخل الشرق ويتجسد في بعض الشخصيات التي تقلد الغرب تقليداً أعمى، فيظهر لدينا من حيث الشكل إنسان غربي ولكن المضمون يبقى شرقياً، فتولدت لدينا شخصية مشوّهة، روح غربية تعيش في جسد شرقي، والأقرب إلى هذا النموذج هم اليساريون المنسلخون عن الواقع الشرقي، وإلى جانبهم المنادون بالعودة إلى الماضي والمتجسدون بالإسلاميين، فالمجتمع الشرقي بات يحتوي على نموذجين من الطليعة، السلفيين والمقلدين.

التقليد الأعمى للغرب

يقول الباحث بولات جان: «**محاولات التقليد العمياء للحياة الغربية في بلدان الشرق قد انتهت كلياً تقريباً إلى نتائج معاكسة وتراجيدية، وتسببت في نفور فئات وطبقات ونُخب مختلفة في تلك البلدان**»، وإننا نجد أن التقليد الأعمى للغرب قد انعكس سلباً على بلدان أرادت أن تقلّد الغرب في شكلها مع تستّرها على واقعها الشرقي الملطّخ بكل أشكال الإرهاب والإبادات والصهر القومي، وخير مثال على ذلك ما قام به أتاتورك من محاولة تقليد الغرب، وكذلك حزب البعث وجمال عبد الناصر، كلهم تناسوا بأن الشرق له خصوصية لا تسمح بتقبّل النمط الغربي، وأن للشرق إرثه الذي يساعده للدفاع ضد كل ما هو دخيل إليه، فلا يتقبّل ما هو دخيل إليه بسهولة، ومن المؤسف أن المحاولات مازالت مستمرة بجلب قوالب جاهزة وتنصيبها على الشرق.

عقدة الإسقاط ونظرية المؤامرة

يقول الباحث إن الحكومات والسلطات في الشرق قبل أن تبحث في الأسباب التي تجعلها ترتقي بشعوبها، تبحث عن عدو مفترض يتآمر على السلطة الممثلة للشعب ويحيك المؤامرات ضد هذه السلطة، فيمنعها من أن تقدم أسباب التطور والرقي لهذا الشعب، ولا بد لهذه السلطة من إعلام كاذب يسوق لها ادعاءاتها، وفيما لو فكر هذا الشعب بأن يتألب على هذه السلطة، فإن هذا التألب أوالحراك هو بدافع من العدو الخارجي الذي يريد أن يتآمر على هذا الشعب، فالشعب لا يمكن أن ينفر بوجه السلطة لولا المؤامرة الخارجية، و كل من يفكر أن يخرج عن الحلقة المفروضة على الشعب هو

عميل أو متعاون مع العدو الخارجي، والشرقي من السهل عليه أن يحمّل أسباب بؤسه وجوعه وفقره على عدو مفترض صنعته له السلطة ووجهته بذلك الاتجاه، وغالباً ما يكون العدو هو الغرب وأمريكا، فلولا الغرب وأمريكا والاستعمار لكان الشرق يرفل بالنعم، وإن كان في ذلك شيء من الصحة فإن أغلب الحكومات في الشرق هي أدوات طيّعة بيد الغرب، فهي في الظاهر تعادي الغرب ومن الباطن أداة بيده، فالمشكلة تكمن في الشرق والحكومات الشرقية، فالشرق بحاجة إلى صعقة قوية تخرجه من هذه الدوّامة اللا متناهية، وعلى الشعوب أن تتعرف على حقيقة حكوماتها التي تعتبرها المنجى الوحيد لها، وأن تتعرف على عدوها الأقرب لها.

الدين: جدلية الإصلاح وسدنة الإرهاب

ربما وُلد الإنسان وهو يبحث عن تفاسير لما يحيط به، وأغلبها حول رجوعه إلى قوى خارجة عن إرادته، ولطالما وجد الأشياء تحيط به وهي موجودة قبل وجوده، وربما كل إنسان بحاجة إلى معبود وهو عبارة عن طمأنينة للنفس والروح، ولكن سرعان ما تلتف السلطات حول هذا الدين وتحوّله إلى أداة لخدمتها، تارة باسم الفتوحات وتارة باسم نشر الدين والإيمان، وتارة أخرى بالدفاع عن الوطن، وكلها تبدأ من حيث الغاية النبيلة لإرضاء الإله والوعود بالجنة والحواري والغفران، ولكن الحقيقة تختفي خلف الإله الذي يتمثل في الهدف الأسمى، أي في السلطة، فكلها حروب من أجل السلطة وجني الثروات والنفوذ، ونجد بدايتها في محاربة النبيين كون ظهورهم كان يهدد وجود السلطة، من فرعون إلى اليهود إلى العرب، كلهم وقفوا في وجه الأنبياء، وسرعان ما تحوّل الدين إلى إيديولوجية الهدف منها إحكام قبضة السلطة على الشعب وتوجيهه بالاتجاه الذي يخدم مصالحها، وجمع أكبر قدر من الناس البسطاء والسذّج والزجّ بهم في حروب سلطوية، وسرعان ما تظهر من بين الإيديولوجية الدينية تيارات مناهضة للسلطة بتفاسير وتعاليم جديدة، فيتحول الدين إلى تيارات كما هو في الإسلام حيث الشيعة والسنة والعلوية، ومازال الصراع مستمراً منذ قرابة أربعة عشر قرناً، ومن ثم استغلال الدين بالوجه المغاير لمضمونه، فالإسلام الذي ظهر لرفع الظلم تحوّل إلى دين القتل والجزّ والنحر والنهب والسلب، وربما هذا الصراع الديني في الطوائف المسلمة هو أحد الأسباب الرئيسية في ركود الشرق.

لا يُنكر أن ظهور الدين من حيث الزمان والمكان كان عبارة عن صرخة في وجه الظلم، ولكن من المؤسف أن هذا الدين تقولب ولم يتطور، وأضحت قواعده لا تناسب الزمان والمكان، وتم تفريغ الدين من مضمونه لصالح أجندات السلطة.

يمكن القول بكل صراحة إن الدين يلعب دوراً هدّاماً وتخريبياً ومعرقلاً للتطور في الشرق، فهو يضع الناس أمام خيارين: إما إلى التشدد والتوحش أوالعدمية والنفور من الدين، فالأديان في الشرق مرغمة على إجراء مراجعة نقدية وتشريح حالتها الحاضرة، وإجراء الإصلاحات الفورية التي تتلاءم مع العصر، وتحويل الدين إلى قيم أخلاقية وروحية واجتماعية بعيداً عن السياسة والزهو بالمباني الفخمة من الجامع إلى الكنيسة والصومعة.

وربما أشدّ ما جعل الأديان تتحول من مفهومها الروحاني والأخلاقي إلى مظلة للأفكار القومية والشوفينية هو اجترارها وراء السلطة، عن طريق رجالات الدين الذين راحوا يباركون رجال السلطة ويهبونهم الدعاء الدائم والمبايعة لهم من أجل الحصول على مكاسب مادية حرّمتها الأديان بكافة أنواعها، وظهور مجمّعات الإفتاء التي تعتبر كل من يخرج عن طوع الحاكم خارجاً عن الدين وبالتالي وجوب تكفيره وزجره، وظهور فكرة النص المقدس وتحريم النقاش في الأديان، فالنصوص ورجالاتها بشكلهم الحالي أصبحوا حجر عثرة في طريق تجاوز معضلة الدين، وكل من حاول أن يطرح فكرة إصلاحية اتُّهم بالكفر والاستيراد من أفكار الكفرة في الغرب وكان مصيره السجن أو الموت المحتم، وكل الحركات الإسلامية الراديكالية التي ظهرت في الشرق

”إن علة الشرق تكمن في الأسباب الداخلية التي تحوّل بموجبها الشرق إلى حقل مغلق أمام الاجتهاد والابتكار, فتحوّل إلى عبادة النصوص الجامدة وتقديسها, وقتل الكثير من العلماء والمفكرين عبر باب الزندقة والتكفير عن طريق الإفتاء الصادر عن رجال الدين مثل «الإمام الغزالي», حيث تم القضاء على كل حركة ثورية تهدف إلى التجديد, وفي ظل كل هذه الظروف ظل العثمانيون مسيطرين بكل ما يمتلكونه من تخلف قرابة الخمسة قرون“

كان جلّها يدعو إلى التمسك بالدين؛ الدين الذي يعبّر عن مفهوم السلطة، وتحوّل القادة السلطويون إلى أنصاف آلهة، وربما أهمّ ما يميز الإنسان الشرقي هو فعله خلاف قوله، الظاهر شيء والباطن شيء آخر، على عكس ما هو عليه الغرب الذي خاض صراعاً مريراً مع الكنيسة ورجالاتها، واستطاع أن يتجاوز معضلة الدين، وتحوّل الدين في الغرب إلى مجرّد فكر روحاني بعيد كل البعد عن السلطة، ففي تلك المرحلة التي مرّ بها الغرب في القرن الثامن عشر؛ مرحلة الاكتشافات والاختراعات والأفكار النيّرة، كان الشرق مشغولاً في الانقسامات الدينية وظهور المذاهب كان في أوجِه، ففي المرحلة التي ظهرت فيها الاختراعات والاكتشافات في الغرب كان الشرق مشغولاً في من هو الأحقّ بالخلافة الإمام علي أم معاوية، ومازالت الكرة تتدحرج بين المذاهب الإسلامية حول الأحقية في الخلافة، فالشيعي يبيح قتل السني الذي يعتبره سبباً في قتل الحسن والحسين، وهناك فتاوى وأحاديث متخفية لدى كل مذهب لا تظهر للعلن تندى لها الجباه، كلها عبارة عن خزعبلات وأقوال تنافي المسلّمات العقلية.

إن القدسية التي أضفاها رجال الدين على النص الديني تعدّته إلى النصوص الفرعية التي تم ابتداعها من قبل رجال الدين، وتحولت القدسية إلى قدسية كل ما هو مسنون لدى الشرقي من العادة حتى العرف، فنجد الشيوعيين في الشرق مازالوا متمسكين بالنصوص الماركسية التي تخلى عنها واضعوها أنفسهم، فالإنسان الشيوعي الشرقي إنسان أممي وفق ما يخدم قبيلته و قوميته، فنجد الشيوعي قد تحوّل إلى صفّ القوميين والطائفيين، وتحولت السلطة لديه إلى وراثة يتم تداولها ضمن الأسرة الواحدة، فتقديس النص في الشرق تعدّى النص الديني، والإنسان الشرقي لا يقبل التغيير بل يحارب بسيف السلطة التي ترفض التغيير والإصلاح وفق ما يخدم مصالحها، على غير ما هي عليه حقيقة الأديان القائمة على الجدلية والنقاشات والبراهين من النبي زردشت مروراً بالمسيح فالرسول محمد، وانتقال الفلسفة من الغرب إلى الشرق وظهور بوادر التفكير كان له قوته التي ساهمت في تحريك الركود الفكري والجمود الديني، لكن ظهور بعض رجالات الدين الذين رموا بشباكهم على كل ما هو قادم من الغرب، و الذين قنّعوا الأفكار التي حاولت أن تطل برأسها من تحت عباءة الإسلام، فحرّموها واتهموها بالكفر والزندقة والإلحاد كما فعل الإمام الغزالي مع جميع المفكرين والمتنورين، وحاز فكر الإمام الغزالي على رضاء الحكام، وبناءً عليه قرر صلاح الدين الأيوبي قتل السهروردي.

وسرعان ما تحوّل مجمع المسلمين ”الجامع» إلى منبر لمدح الحاكم والسلطان بعد أن كان منبراً للنقاش والجدال والوقوف على أوضاع البلاد والرعية، وبذلك تم محاربة الفكرة الفلسفية التي ترى في النقاش والجدل إغناء للأفكار وتفتيحاً للعقول، وبذلك تم إغلاق الباب أمام

الجدل والنقاش، والاكتفاء بالنص الجامد.

العقل الشرقي

سرمدية الدوغمائيات في الشرق.

يكتظّ الإنسان الشرقي بالجمودية من كل الأطرف، من دينه حتى أيديولوجيته، لا يقبل بالبديل ويحاول أن يرمّم ما يمتلكه، ولا يقبل بالتوجه إلى ما هو جديد، تراه يبذل قصارى جهده من أجل إصلاح سيارة بالية يصرف على إصلاحها ثمن سيارة جديدة، وهكذا في أفكاره، يتمسك بأفكاره بتعنّت للحفاظ على ذاته وخصوصيته، ويشعر أو هكذا جعلته السلطات يشعر بالهلاك بمجرد الاقتراب من الجديد، وتراه دائم التحسّر على ما هو قديم، حتى وهو يركب السيارة تجد في قلبه ووجدانه يتحسّر على أيام ركوب الحمير والجمال، لا يواكب التطور حسب الزمان والمكان، يكتفي بما هو مقسوم له، اتّكالي إلى درجة الخمول، يقف في عمر الستين بانتظار الموت، بينما في الغرب تجدهم في عمر الثمانين يتسابقون على تقديم الخدمات لمجتمعاتهم، أمّا الشرقي دائماً الأقرب على الأخذ من العطاء، ينقل تجارب الآخرين ليقوم بتطبيقها على واقعه، متناسياً الظروف المكانية والزمانية لتجربة الآخرين، لديه القوة لإعادة تجربة الآخرين مراراً وتكراراً، على الرغم من أن النتائج التي يحصل عليها هي نتائج خاطئة، تجده يحترم آراء الغير ويقدسها، وما لا شك به أن مجمل ما يتلبس روح الشرق هي أفكار قدّمها له الغرب، تجده يحارب التجزئة ويطالب بالوحدة، وهو كاذب في أفكاره، يقدّس التجزئة التي فرضت عليه عنوة، وما لا شك فيه بأنّ الإنسان الأفريقي ليس ببعيد عن الإنسان الشرقي، وهو صنوه، والغريب أن الكل يتحدث عن التغيير والتجديد والوحدة، ويشرح لك أسباب التخلف، وفي حقيقة الأمر هو ما لا يريد وهو ضد أهدافه، تجده يتصدّى للأزمات بالزغاريد والشعارات الطنانة والرنانة.

انبعاث التوحش

لا يؤمن الشرق بالقوة العلمية، ويرجع سبب البلاء إلى الابتعاد عن الدين الحنيف، وفي نفس الوقت يسند معظم الاكتشافات العلمية في الغرب إلى الدين والقرآن وإن اسلمنا بذلك فما المانع الذي منع الشرق من الاستفادة من العلوم التي أوحى بها الله لهم على حد قولهم، لا يعترف الإنسان الشرقي بأن ترك البحث عن الاكتشافات العلمية التي أوحى له بها الله وراح يبحث عن القتل والتدمير، فلو أخذنا من الآية الكريمة مضمونها «**وأعدوا لهم ما استطعتم من القوة ورباط الخيل لترهبوا بها عدو الله وعدوكم**» ليس الله بعاجز عن أن يقول لتقتلوا عدو الله وعدوكم، واكتفى بترهيب العدو لمنعه من الاعتداء، وقال الرسول: **الناس شركاء في ثلاثة: الماء، والنار، والكلأ**، لم يقل الاسلام شركاء قال قوله على إطلاقه «الناس» فنجد الإسلام يعمل على عكس ذلك تماماً، وتم استبدال إرهاب العدو بالقتل والموت، وتجد أن الوسيلة تحولت إلى غاية بحد ذاتها، ألا وهي الموت والقتل، وتم وضع الدين في خدمة القومية، وعلى ذلك ظهرت حركات وأحزاب عدة، وفق كل مذهب سواء سني كالبعث في العراق أو شيعي كحزب الله اللبناني، ولم تفت الحكومات الدكتاتورية في الشرق في مواجهة تلك الحركات في ابتداع إسلام يناسب مثالها كحكومات دكتاتورية، فوضعت الدين والقومية في خدمة مصالحها الفردية، وباتت تقتل باسم الدين تارة، وتارة باسم القومية.

تقيح أمراض القومية

ظهرت القومية بداية في أوربا، وانتقلت بعدها إلى الشرق التي عشّشت فيه وفرخت، ولم تستطع القومية أن تحارب الدين والكنيسة كما فعل **مارتن لوثر**، **وهوبز** في أوربا و لا ينكر ظهور شخصيات في الشرق، لكن التيار الديني قضى عليها بسهولة، واجتث جذورها،

وتم التزاوج ما بين الدين والقومية بعد تحويل الدين إلى خادم مطيع للقومية، وباسم ذلك التآلف ظهرت حركات التحرر القومية، قادها رجالات من المبتدعين لذلك التزاوج، وإلى جانب ذلك ظهرت الحركة الشيوعية التي وضعت في خدمة القومية أيضاً، وهي في أصل ظهورها كانت تخدم القومية حتى في برجها العاجي في موسكو، لكن الشرق انقسم على ذاته، وظهرت أثنيات طائفية وقومية ومذهبية، وعلى حساب تطوّر الثقافة الوطنية العامة تطورت الثقافات الاثنية المذهبية والقومية، فنجد الإنسان الشرقي يتعصب لانتمائه الطائفي والقومي اكثر من انتمائه الوطني وبالتالي ظهرت في الشرق أوطان مهلهلة ومتفككة، ومجتمعات غير متجانسة يحكمها طغاة باسم الأكثرية والاقلية عن طريق الارتداد القومي الذي تحوّل إلى شعار القومية النبيلة وغيرها من القوميات فهي قوميات وضيعة، وبدل العمل على إيجاد ثقافة وطنية تستظل تحتها كلّ مكونات الوطن باثنياته القومية والطائفية والمذهبية، وجدت ثقافة القومية النبيلة الواحدة، ومن المؤسف أنّ الشرق نسخ قومية متطابقة لبعضها البعض، والكل يحتقر الكل من العربي للكردي واليهودي والسني والشيعي والمسيحي.

عقلية أنا المركز

في حقيقة الأمر العقلية التي تعتبر نفسها مركز الكون والبقية أطراف تحدث عنها أفلاطون واعتبرها أحد دوافع الصراعات الفردية أو الجماعية على مر التاريخ، بدت بالقبيلة وانتهت بالقومية والدول والقارات، **ومن المؤسف أن هذه العقلية لازالت مستمرة بشكل متستر، موسكو أم الأفكار الاشتراكية، أميركا مركز القوة في العالم، وسورية قلب العروبة، والشرق أم حضارات الغرب، وأم الاكتشافات والفلسفة**، هذه الطريقة في التفكير والتعصب جعلت البشرية بعيدة وطامسة للكثير من الحقائق، والحقيقة الوحيدة أنّ العقلية المسيطرة على هذا التفكير يجهل الفرد أو الجماعة أو الحزب يجانب الصواب من خلال الابتعاد عن الفعاليات التي يجب أن تتم لترتقي بالإنسان أو الحزب أو الدولة إلى الأمام بدل التقوقع على الذات.

عقدة النقص لدى الاقليات

إنّ مفهوم الأقلية بحد ذاته مفهوم انتقاصي ودنيوي بحق ما يطلق عليهم باسم الاقلية، وإن كان هذا المفهوم يأخذ بالمفهوم العددي، فالاكثرية في أيّة دولة تعتبر عددها يخولها بأحقّيّة السلطة، ولا يكتفى بذلك بل يتم التوجه إلى مفهوم الصهر الأثني لكل أقلّيّة ضمن بوتقة الأكثرية، وفي حال رفض الانحلال فليس أمامهم إلا التهجير القسري من قبل الأكثرية، وقد تصل القضية إلى حدّ التصفية الكاملة بحق الاقلية كما حدث بحق الأرمن في تركيا، وكما يحدث بحق الأمازيغ في الجزائروفي إيران بحقّ مجموعة الديانات غير المسلمة أو حتى على مستوى المذهب غير الشيعي، وهناك مكانة خاصة بالأكثرية تعمل على إظهار دنيوية الأقلية مقابل إظهار العراقة والأصالة على الأكثرية، كما هو الحال في تركيا، فالكردي في ظل الحكومة التركية يتستر خلف القومية التركية ببذل جهد مضاعف لتعلم اللغة التركية، وفي ظل الحكم العلوي في سورية لم تتغيّر نظرة السنة تجاه العلويين الذين يعتبرون أقلية بالنسبة للسنة، بالرغم من سيطرة العلويين على مقاليد الحكم بكل تفرّعاته الأمنية والعسكرية.

ويجب أن يعلم أبناء الشرق الأوسط الحقائق التالية:

- كل الشعوب في الشرق الأوسط ذات بنية حضارية عميقة في الشرق.

- إنّ بعض القوميات جاءت إلى الشرق الاوسط في وقت متأخر كالاتراك والعرب، وأغلب الشعوب في الشرق التي تعتبر أقليات هي الأقدم.

- أكثر الشعوب في الشرق تمّ تقسيمها وتجزئتها

فتحوّلت إلى أقليات موزعة بين عدد من البلدان.

- إنّ الشعوب التي تعتبر أقلية في الحقيقة هي صاحبة الأرض الحقيقية، كالأمازيغ في شمال أفريقيا، والآشوريين في العراق وسوريا والكرد في الأناضول، الأرمن في أرمينيا...إلخ

- إنّ الأكثرية تمارس سلطتها بحق الأقلية من أجل التخلّي عن هويتها الأثنية ما أدّى إلى انسلاخ عدد لا يحصى من الأقلّيّة إلى الأكثريّة.

- إنّ الشرق بغناه الحضاري الذي يتنوع بحسب تنوّع الأثنيات فيه سواء الأثنية القومية أو الدينية ويعتبر حديقة متنوعة بأزهارها.

أدلجة التاريخ

إنّ من أهمّ ميزات الشرق السلبية في قراءته التاريخ وفق منظور أيديولوجي، فقد تم تسخير التاريخ في خدمة الدين الذي يعتبر أيديولوجية الشرق من اليهودية حتى المسيحة، فنجد أن اكثر الكتب السماوية من التوراة إلى الإنجيل إلى القرآن كلها تسرد تاريخ فئة محددة أو قومية محددة، ولم تلبث تلك الفئة أو القومية أن تنظر إلى التاريخ وفق مفهومها الأيديولوجي، وراحو يكتبون التاريخ وفق مصالحهم، على مبدأ «**من لا تاريخ له لا مستقبل له**» فنجد أنّ أتاتورك شكل مجمعاً، وأمر الأتراك بإيجاد تاريخ لهم في المنطقة، وهم القوم الوافد إلى الشرق في القرن العاشر الميلادي فتم تحريف تاريخهم، وربطهم بتاريخ السومريون أسوة بالكرد والآشورين والأرمن والفرس، وأكثر الأحاديث الإسلامية لدى الدولة التركية منسوبة لعثمان بن عفان الذي يرون به جدا مسلماً للعثمانيين، وليست البقية بعيدة عن ذلك سواء من العرب أم غيرهم، فالتاريخ في الشرق هو عبارة عن تاريخ مغلوط ومزور، فالسوريون يحتفلون بحرب تشرين التحريرية، وهي في الحقيقة خسارة فادحة للسوريين مع الاسرائيلين، ومع ذلك تم إقناع السوريين بانتصارهم خلف القيادة الحكيمة، وإيران الخمينية التي همها مقاتلة اسرائيل

كان الاستشراق إعادة استكشاف الغرب للشرق الساحر والغامض المتستّر خلف أساطيره وحكاياه و خرافاته، وربما كانت البداية المشجعة من قبل الكنيسة في الغرب التي كانت تهدف إلى دراسة أصول الأديان في الشرق بما فيها الدين المسيحي، حيث استطاع الأوروبيون أن ينقلوا الكثير من آثار الشرق إلى الغرب لتشريحها ودراستها، كالطب والفلسفة والمنطق والتصوف، ويستفيدوا منها في تطوير أبحاثهم واكتشافاتهم

كُشفت الحقيقة المخمينية تلك الفضيحة» ايران كيت» إسرائيل كانت تدعم ايران في حربها ضد العراق سراً.

وحقيقة القول: إنّ التاريخ في الشرق هو عبارة عن أكاذيب ملفقة وحقائق مزورة، ليس لها من الصحة شيء، وستكشف هذه الحقائق لاحقاً كما تمّ الكشف عن حقيقة الطوفان وسفينة نوح و سفر التكوين وقصة آدم وحواء.

العنصرية المحلية

داهم الشرق مفهوم مصنع عبر سلطاته وهو مفهوم القوقعة على الذات في مواجهة الحضارات والثقافات الأخرى، وربما يعود ذلك إلى انتفاء العدالة وضعف القوانين ممّا اضطر الفرد في الشرق إلى التمسك بالقبيلة والطائفة والقومية، فهو بغير ذلك الانتماء يحسّ بالضعف والخوف في مواجهة القبيلة أو القوميات الأخرى، و كل ذلك أدى إلى انغلاق الفرد الشرقي على ذاته ضمن البيئة الواحدة، ففي بلدٍ واحدٍ تجد

الفوارق بين إنسان الداخل والساحل في فوراق كبيرة وكل ذلك يعود إلى الانغلاق على الذات بدافع من السلطات التي أبدت له التخوف من الغير، ممّا أدّى إلى ظهور ثقافات محلية بعيدة عن الثقافة الوطنية، وخير مثال على ذلك ما كشف عنه الحراك في سورية فظهرت الثقافة السنية والعلوية والشيعية والكردية والعربية فوق الثقافة الوطنية، وكلها صرعات تنم عن الحقد والكره، وعدم تقبل ثقافة الآخر، واحترام خصوصيته، فنتج عنها صراعات أثنية، وربما التجربة السورية ليست بالبعيدة عن التجربة اللبنانية في الثمانينيات، والصراعات التي لازالت جذورها متجذرة في المجتمع اللبناني، بالنتيجة العنصرية المحلية تعني أن تكره الآخر لأنه ليس من طائفتك أو دينك أو قومك فقط.

تفضيل الأغيار على الأقارب

هناك عقدة تمّ التحدث عنها، هي عقدة الإحساس بالنقص تجاه الأغراب، فالإنسان الشرقي لا يتقبل الشرقي الذي يتفوّق عليه، ويتقبّل الغير بكل رحابة صدر، وذلك ناتج عن عقدة الإحساس بالدونيّة، فقريش لم تقبل بمحمد رسولاً عليهم وهو العبد الفقير، وكذلك اليهود لم يقبلوا بعيسى بن النجار، فتجد الشرقي يفتخر بالماركات الأجنبية الغربية، مع أنّها لا تقلّ جودة عن المنتجات الشرقية، ويندفع إلى قراءة أطروحات الغرب، وينكفئ عن قراءة ما يطرحه الشرقيّون من علوم وأفكار، وكلّ ذلك نابع من الشعور بالدونية والحسد والغيرة وعدم الثقة بالذات.

المرأة في الظل

الشرق ليس على ما يرام وليس بخير، لأنه بكل بساطة المرأة الشرقية ليست بخير وليست على ما يرام.

يرى الباحث بولات جان أنّ الوضع الذي عليه المرأة في الشرق ينعكس بشكل مباشر على المجتمع الشرقي، كيف لا وهي نصفه، فهناك ألف قانون سُنّ في الشرق في سبيل استعباد المرأة بدءاً من الشراشف السوداء التي تغطي المرأة وتجعلها عبيدة للون الأسود الأوحد، ولا يحق لها أن تظهر إلا في الزوايا المعتمة، فالمرأة في الشرق مملوكة للرجل بموجب القواعد الدينيّة بكل أشكالها ومذاهبها، وفوق ذلك اعتبرتها ناقصة عقلٍ ودين، وأيدتها المثيولوجيا في سرد الحكايا عن المرأة واعتبرتها مدبراً للشيطان ومعينه، ففي بدايات القرن الواحد والعشرين لازال الشرق يعامل المرأة كما عاملها هارون الرشيد واتباعه، فالشرق لازال يعتبر الرجل رب الأسرة، فهو مالك كلّ شيء في الأسرة، من الأثاث حتى المرأة والأولاد، فالرجل الشرقي ينظر إلى المرأة كما ينظر لنبتة الزينة، يتمتع بجمالها وهو المالك لها، وفي الجانب الآخر حصلت المرأة على بعض الحقوق، وكانت ردة الفعل أنّها استرجلت وتحولت إلى أقبح ما هو عليه الرجل، وتلك المرأة المسترجلة لا تمثل حقيقة المرأة الحرة، وتعتبر انحرافاً عن حقيقة المرأة، وقد انسلخت المرأة عن المجتمع الشرقي، وراحت تقلّد المجتمعات الغربية دون تطور واع، وربما حقيقة المرأة هو وجود المرأة، وإثبات ذاتها في الحركة الكردية وخاصة في سورية، فقد قطعت شوطاً تجاه حقيقة المرأة الحرة.

المحاولات الثورية

كثيراً ما يتم الخلط بين الثورة وبعض المفاهيم الأخرى، كالانقلابات العسكرية والحروب الطبقية، أو المذهبية أو الدينية.

ولابد من التنويه إلى أن كلّ الثورات تولد وتولد بداخلها الثورات المضادة، وخاصة في الشرق، فالثورة في الشرق تقوم ضد جهة ما وسرعان ما تقع في ذات المصيدة التي قامت ضدها، وتتحول إلى نسخة طبق الأصل عنها، وغالباً ما تقع تحت وطأة الأديان والمذاهب التي يتم تسخيرها لمصالح تخدم افراد الثورة، وتتحول الثورة إلى مبادئ وأفكار دينية تخدم مصالح معينة، وكل من يعارض هذه الأفكار هو خارج عن الدين.

ليس الشرق تاريخَ الحروب والصرعات والتناحرات،

بل هو تاريخ الثورات سواء الفردي منها أو العام، فالرسل والأنبياء كانوا ثوريين حقيقين، لأنهم أوّل من شعر بالحاجة للثورة والتغير من موسى حتى محمد. ففي بلاد ما بين النهرين على إثر الصراع بين الزردشتية والمسيحية الدائم ظهر الرسام والفيلسوف ماني، وكان عبارة عن ثوري حقيقي شعر بالحاجة إلى الثورة ضد الواقع المرير الذي عاشه في بلاد ما بين النهرين، وككل الثورات لاقى ماني ما لاقى من الثورات المضادة، كما هو عليه المسيح وكان مصيره القتل، وليس ببعيد عنه الرسول محمد الذي عانى ما عاناه من وجود الثورة المضادة، وفي النهاية انتصر الإسلام المنبثق من الصحراء والذي يحمل صفاتها في طياته، وبعد تزاوجه مع الإمبراطوريات الرومانية تحول إلى دين القتل والذبح، و مع مرور الزمن ظهرت بذور الثورة بين الدولة الإسلامية وكانت محاولات فردية، لكنّ من المؤسف كان مصير كل هؤلاء القتل والرجم من الحلاج إلى أبي ذر الغفاري والسهروردي، وكل هؤلاء رفعوا راية الثورة في وجه الظلم والقتل، لكن النصر كان حليف الديكتاتوريات التي قلبت الحقائق المطروحة ضد هؤلاء، وهيّجت الجماهير عليهم وباسم الشعب تمّت محاكمتهم وقتلهم.

وفي النهاية إنّ الشرق بحاجة إلى ثوريين حقيقين يشعرون بالحاجة إلى الثورة ومستعدين للتضحية الثورية.

يسار تائة بين أروقتَي الزمان والمكان

إنّ ما عرف عن اليسار بمعنى الشيوعية التي تجسد مفهوم الاشتراكية بمنهجيته المتكاملة، جانب الصواب، فالاشتراكية أقدم من الماركسية بكل أنواعها من الطوباوية حتى اللينية، فالاشتراكية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، فكانت من بداية المجتمع القبلي ومروراً بالمسيح الذي كانت أفكاره تجسّد الاشتراكية، ونبذ الملكية الخاصة، لم يكن الرسول محمد بعيداً عن الاشتراكية بدعوته للتآخي بين الناس، ونبذ الاحتكار وتوزيع الملكية بالتساوي، لكنّ ذلك لم يدم بعد ظهور الثورة المضادة، وتحوّل الدولة الإسلامية إلى دولة دكتاتورية محصورة بيد عوائل معينة تبحث عن مصالحها الشخصية، وسرعان ما ظهرت تيارات ثورية ضد ذلك الظلم كثورة العبيد والقرامطة، **وخلاصة القول:** نستطيع أن نقول إنّ الشيوعية والاشتراكية وجدت قبل الماركسية، فلا ينكر نهجهها المتكامل الذي تبلور في الاتحاد السوفيتي والصين وغيرها، لكن يجب ألّا يغيب عن بالنا أنّ تلك الأفكار ظهرت في الغرب من حيث الزمان والمكان، وتمّ تصدير الثورة الماركسية إلى الشرق في بداية القرن العشرين، حيث كانت في صراع مع الغرب، فتحوّل الصراع إلى صراع مصالح بين الغرب والشرق المتمثل بالشيوعية، وبالرغم من التضحيات التي قدمتها الاحزاب الشيوعية في الشرق من الثقافة والفن والأدب فقد ترك اليسار آثاراً إيجابية في الشرق، لكن الذي تحول إلى سلبيات يمكن انتقادها هول التحول الذي أصاب تلك الأفكار في الشرق، فقد تحوّل لينين إلى نبي، وماركس إلى إله، والقادة الشيوعيون إلى صحابة وحواريين، وكما في الدين ظهر تقديس النص، وظهر الخلاف عن مضمون النص الماركسي في جزئياته والابتعاد عن فحوى مفهوم النص العام، فتحوّلت الأحزاب الشيوعية في الشرق إلى تابع ومتبوع مع الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، دون أن يكون لتلك الأحزاب حرية تحليل النص الماركسي وتطبيقه وفق ما تتطلبه المرحلة من حيث الزمان والمكان في الشرق، كان ذلك ما ندعوه بتقديس النص، والطامة الكبرى كانت في الشرق هي الازدواجية الأممية والشوفينية، فالأممي في الشرق يرفع شعار الأممية وينادي بالأممية، وفي ذات الوقت يحمل أفكاراً شوفينية لم يستطع التخلص من قدسيتها قد تصل إلى حدّ القبلية، وكانت تلك الشوفينية تمارس على الشعوب التي تحاول أن تتحرر من نير الظلم، والحصول على حقوقها كما هو الشعب الكردي والأمازيغي، وسرعان ما كانت النتيجة انقسامات حادة بين صفوف اليساريين في الشرق، أتت على ما تبقّى منهم.

ثالوث السلطة ـ الحزب، القبيلة والسياسة

> **الاستشراق الذي ظهر كعلم في الغرب يهتم بدراسة العلوم الشرقية وحضارته؛ ظهر في مواجهته تيار من المثقفين الذين يدعون إلى محاربة الغرب وكل ما قدمه للشرق من دراسات وعلوم, فطالبوا بالعودة إلى السلف, إي إلى الوراء, والابتعاد عن كل ما هو غربي, فكان «الاستغراب» ضد الاستشراق, وجلّ هؤلاء ظهروا بين رجال الدين الذين راحوا يفتون بأن كل ما هو وارد من الغرب أو كل ما هو غربي مكروه**

حزب القبيلة أو قبيلة الحزب: تعتبر القبيلة أقدم تنظيم عرفته البشرية، وكان للقبيلة دورها في تنظيم المجتمع في الشرق، والسير الأعمى وراء رئيس القبيلة وعدم الخروج عن طاعته، وكان للقبيلة قوانينها وأعرافها وعاداتها الخاصة التي يتوجب على الفرد الالتزام بها وعدم الخروج عنها، والولاء التام لرئيس القبيلة سواء كان شيخ القبيلة أو الآغا أو الأمير...إلخ، ولا يجوز الخروج عن طوعه، ومن خرج فقد كفر، فكان هناك هرم للقبيلة مقدس، وسرعان ما انتقلت تلك القبيلة بكل ما تحتويه من هرميّة وقدسية إلى أحزاب في الشرق، وتكاد لا تختلف تلك الأحزاب عن القبيلة في مضمونها من قدسية رئيس الهرم إلى أعوانه وأبنائه، فتشكلت لدينا أحزاب قبلية في الشرق، حتى أنّك لا تستطيع التمييز بين أكانت القبيلة قد تحوّلت إلى حزب أم تحوّل الحزب إلى قبيلة؟ وفي نهاية الأمر جميع تلك الأحزاب في الشرق غايتها الفوز بالسلطة واستثمار تلك السلطة لمصالح الحزب القبلي ورئيسه الخاص وأعوانه، فالسياسة في الشرق تستثمر للمصالح الشخصية بعيدة عن المصلحة العامة

الشرق يقتل مبدعيه

الشرق الملوث بالدكتاتوريات، والأنظمة القمعية الفاسدة، والسائرون على إثرهم والمصفقون الخانعون من قضاة و جلادين، تلك الأنظمة التي تحكم وفق نهج متماسك، ومتّحد في المصالح، وكلّ من خرج بأفكار مميزة أو حارب الحاشية الديكتاتورية اعتبر خارجاً عن الشريعة التي تمّت صياغتها على شاكلة قوانين شرعية، وليس على تلك الطغمة إلا الاستعانة بهؤلاء المفتين لهم.

ففي الشرق الذي يحارب كل ماهو جديد بيد من حديد، لا ينفك عن قتل كل فرد يحمل أفكاراً جديدة تناقض مصالح الطغمة الحاكمة، كانت البداية من الأنبياء حتى آخر المفكرين، وكان نصيب الأنبياء التعذيب والطرد والقتل جزاء ما قدّموه من أفكار تناقض مصالح الطغمة الحاكمة وحاشيتها، والقليل من هؤلاء المبدعين استطاعوا أن يتخطوا خنادق الشرق العميقة من خلال استفادتهم من الخلخلة التي أصابت تلك الانظمة في الشرق، فكلما كانت تلك الأنظمة مصابة بداء الهشاشة استطاع المفكرون والمبدعون من إعلان أفكارهم والفوز على تلك الأنظمة، والعكس صحيح كلما كانت تلك الأنظمة متماسكة وقوية استطاعت أن تقضي على تلك الافكار ومبدعيها، فالشرق لا يدرك أفكار مبدعيه، وإن أدركها حاول الوقوف في وجهها عبر أصوات رجال الدين المنافقين للسلطة، والعلماء الكذابين، والجنرالات الملاعين لتعلو أصواتهم فوق كلّ الاصوات، فإن نظرنا إلى ما هو عليه الشرق نجد أن أغلب العقول المفكرة والمبدعة فرت تجاه الغرب خوفاً من جنرالات الشرق وحاشية البلاط، ففي الشرق رجلُ السلطة دائما على حق، وكلّ ما يقوم به ليس إلا وحي وإلهام رباني، ولا يحتاج إلا لثلة من المصفقين، وزغاريد السلاح، فيما لو احتاج في وجه من الأوجه لكل من يحاول التطاول على مركزه السلطوي.

في النتيجة قدم لنا الباحث بولات جان دراسة موسعة عن حقيقة الإنسان الشرقي وقال لنا بصوت مرتفع: هذه هي حقيقة الشرق المتألب على ذاته غير المدرك لحقيقته المرة، فالإنسان في الشرق ليس إلا إنساناً مريضاً بأمراض متراكمة عبر الزمن، ويحتاج إلى طبيب شرقي، وعلاج شرقي يناسب أمراض الشرق، ويقدم للإنسان الشرقي دواء حسب الزمان والمكان.

جنون السلفية

ظهر تيار السلفية إلى الوجود في بدايات ظهور الوهابية في شبه الجزيرة العربية في بداية القرن الثامن عشر على يد آل سعود والوهابيين. ويُعتبر ردة فعل تجاه الأفكار التي راحت تدعو إلى التطوير والتحديث وقراءة النص وفق المرحلة التي هو فيها. فكانت السلفية التي تدعو إلى العودة إلى الماضي والتمسك به "رواية السلف الصالح"، وأسندت أسباب البلاء والتخلف إلى الخروج عن ركب الماضي والنص الديني، وراحت تحارب أي نظرة إلى المستقبل الذي سيقود التاريخ عنوة إلى الأمام، ثم تمسكت بالتاريخ القديم وفق نظرة مغلوطة؛ على الرغم من أن قراءة التاريخ ضرورة ملحّة لاستنباط التجارب والنظرة إلى المستقبل. فظهور الفتاوى التي تحرّم كل ماهو مخالف لحياة السلف من المأكل حتى الملبس على يد السلفيين، جعل التاريخ يلتفت إلى الماضي ولوَتُ بعنقه إلى الوراء بدل النظرة إلى المستقبل، وسرعان ما تحوّل هذا التيار إلى عصا لينة وطيعة في يد الغرب لمحاربة ما يتناقض مع مصالحه، من الحرب في أفغانستان إلى الصومال والسودان.

لقد تحول هذا التيار السلفي إلى تيار فكري تعدّى الإسلام إلى جميع المفكرين الذين لا يرون في المستقبل سوى الماضي، وحقيقة السلفية وتفرعاتها جاءت لتقديم الخدمة للغرب والرأسمالية في مواجهة الشيوعية، فتم توجيهها باتجاه بوصلة السيوعية، وما تقوم به السلفية من حروب الآن ما هو إلا عبارة عن ردة فعل تجاه توقف الدعم لهذه المجموعات بعد أن لم يعد لوجودها معنى بعد انهيار المنظومة الشيوعية، فانقلبت هذه المجموعات على أسيادها.

و يقول الباحث إن السلفية لم تنحصر بالإسلام السني، فالمذهب الشيعي لا يقلّ تطرفاً ودوغمائية عنه، والحرب بين الشيعة والسنة مازالت تُعتبر انتقاماً للإمام علي وأحقيته بالخلافة وثأراً لدم الحسن والحسين، وفي الحقيقة ليست سوى حرب غبية لا يقبلها المنطق والعقل يموّلها الساسة في سبيل تحقيق أهداف سياسية عميقة في إشغال الشعب بعدو خارجي وداخلي، فالشعب الإيراني الذي يموت من الجوع يثابر على أثر رجالات الدين الإيرانيين في محاربة السنة باطناً، وكذلك دول الخليج التي ترى في الشيعة عدواً للسنة، والإسلام كله متفق بكل شرائحه على محاربة اليهود، من تركيا إلى إيران، وفي حقيقة الأمر تنفضح الأمور أمام التطبيع الذي تقوم به الدول العربية الثرية مع إسرائيل، وتنحصر الحرب بالدول المهلهلة اقتصادياً كإيران وتركيا، فكلاهما يبحث عن عدو خارجي لشعبه لصرف النظر عن الواقع الاقتصادي المهلهل، فالجوع والبؤس و الفقر هو من أجل محاربة العدو الكافر لتحرير المقدسات.

تقديس الموت

يتعمق الباحث في جدلية الشرق حول الموت والحياة، وهي عبارة عن جدلية الهروب عبر الموت من الحياة الفانية إلى حياة أبدية، وحتى يتم تحقيق الحياة الأبدية لا بد من المرور بالموت، وأفضل الموت هو الموت في سبيل نشر الدين الذي تحوّل إلى سلطة، فالموت هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحياة الأبدية، وربما مفهوم الموت في الشرق بكل أديانه لا يختلف في مضمونه وأهدافه، فالإنسان في الشرق عبارة عن إنسان مسافر يقف في محطة القطار بانتظار أن ينقله إلى الجنة حيث أنهار من الخمر والحواري والأشجار المثمرة، فالموت هو السبيل الوحيد للوصل إلى الحياة الأبدية، ولذلك تم تقديسه في الشرق،

حيث الجنة الرغد. وفي الحقيقة فإن الجنة التي تم تصويرها في الإسلام ليست إلا عبارة عن كل ما ينقص المسلم في الحياة الأولى. ويُضاف إليها ما هو محرّم. من أشجار ونساء وخمر وماء رقراق. إننا في حقيقة الأمر نجد كل ما في الجنة رقراقاً. وهو ما يعكس حياة الصحراء منبع الإسلام. فالذي يعيش في الدول الإسكندنافية يبحث عن الشمس والدفء اللذين ينقصانه. ولو وصفت له الجنة الإسلامية لرفضها مقارنة بالجنة التي يعيش فيها في وقته الحالي.

إن مفهوم الموت عند الأديان عبارة عن مفهوم تحفيزي من أجل الوصول إلى الحياة الأبدية. فالتصور الذي ينقله الأمير الداعشي لعناصره عن الجنة سيجعلهم يستعجلون الموت في سبيل الوصول إلى تلك الخيرات. وربما لم يخطر ببالهم لماذا الأمير نفسه لا يستعجل الجنة التي ينقل حقيقتها لعناصره؟ ما الذي يجعله يتأخر عن كل هذه الخيرات؟ والمثال على ذلك أن الخليفة الإسلامي (أبو بكر البغدادي) لم يفجّر نفسه بالرغم من تلفّحه بكل وسائل الموت السريع. وكان يترقب الحياة لآخر لحظة. ومع كل هذه الأساطير نجد الإنسان الشرقي لا يهتم بالحياة لطالما هي حياة مؤقتة. وعليه أن يتحمل المظالم والعيش المتقشف في سبيل الوصول للحياة الأبدية. وكل من يموت مقاتلاً في سبيل دينه الذي تحوّل لخدمة الساسة. هو شهيد لا تنتظره سوى الملائكة لتقوده إلى الجنة. وجزاء موته مقاتلاً عن الساسة والدولة والأحزاب والإيديولوجيات هو تخطيه حاجزالحساب إلى الجنة. وفي ظل كل هذه المفاهيم هناك أشخاص يتربّعون على هرم السلطة. ويعلمون حقيقة الحياة التي يجب أن يعيشها الإنسان لمرة واحدة. لذلك نجدهم يقدّسون ضحاياهم من أجل تحفيزالأحياء منهم إلى الموت في سبيل أن تُكتب لهم حياة يعرفون حقيقتها. ويعرفون كيف يعيشونها بكل تفاصيلها الشهية.

ربما كانت بداية تقديس الموت جاءت من الأديان. ولكن سرعان ما انتقلت إلى الإيديولوجيات. وأضحى الموت سبيلاً لتحقيق أحلام الملايين من الفقراء والعبيد. وربما كانت الجنة التي يوعد بها الأحياء لا بد من تحقيق جزء منها على الأرض في ظل القتال من أجل الكرامة والحرية والتفرّد في الخيرات. فجمال عبد الناصر الذي رسم للأمة العربية وطنها الأوحد بامتياز. وكان عبارة عن زجّ العرب في بوتقة العيش في سبيل تحقيق حلم فردي لعبد الناصر في سبيل الخلاص. فالموت الذي رسمه عبد الناصر في سبيل تحقيق أهدافه الدوغمائية التي لم يؤمن بها. كان الهدف من الموت هو تحقيق النصر على اليهود ورميهم في البحر من أجل العيش في جنة وعد بها عبد الناصر. وهي ذات الجنة التي من أجلها أمرت الصهيونية العالمية اليهود بالهجرة إلى فلسطين وقتال كل من يقيم عليها من غير شعب الله المختار. والحقيقة أن ظهور الأديان ارتبط بمنح جرعة أمل للناس من أجل خوض الحروب والقتال والتضحية بالذات. وجاءت الإيديولوجيات الفكرية لتكمل هذه الرسالة.

و ربما يكون هذا هو السبب وراء تخاذل الإنسان الشرقي عن عيش حياته وتحسين ظروفه والاهتمام بالتطوير والتحديث. والسعي وراء الاكتشافات والاختراعات.

يتبع

في فلك الأصنام الأربعة لفرنسيس بيكون

صلاح الدين مسلم

مخطّط بحث (في فلك الأصنام الأربعة)

- **التمهيد**: **عبارة عن تمهيد لسيادة الأسلوب العلمي ودور فرانسيس بيكون في النهضة العلمية.**
- **المبحث الأوّل – الأصنام الأربعة عند بيكون: وفيه شرح للأصنام الأربعة**

أوّلاً - صنم القبيلة (صنم المجتمعيّة)

ثانياً - صنم الكهف (صنم المثاليّة والانعزاليّة)

ثالثاً - صنم السوق (صنم الأفكار السوقيّة)

رابعاً - صنم المسرح (صنم الإيمان الأعمى بالسلف أي تقديس الماضيين)

المبحث الثاني: أساليب الحياة: وفيه سأتناول تحليلاً للأساليب الأربعة التي سيطرت على مدى التاريخ وهي متسلسلة حسب سيطرتها التاريخيّة: (الميثولوجي - الديني التوحيدي – الفلسفي – العلمي) وكيف أنّ العصر الحديث قد طغى فيه الأسلوب العلمي الذي نفى الأساليب الثلاثة السابقة.

أوّلاً - الأسلوب الميثولوجي

ثانياً - الأسلوب الديني التوحيدي

ثالثاً - الأسلوب الفلسفي

رابعاً - الأسلوب العلمي

خامساً – الأصنام الأربعة

المبحث الثالث – تحليل تناول بيكون للأصنام الأربعة، من الناحية الإيجابيّة من جهة، ومن الناحية السلبية من جهة أخرى.

أوّلاً - إيجابيات تحطيم الأصنام الأربعة

ثانياً – سلبيات تحطيم الأصنام الأربعة

الخاتمة: كلمة ختامية تتناول رأيي في هذا التناول.

التمهيد

كان روجر بايكون الإنجليزي أو الجدّ الأكبر لفرنسيس بيكون (١٢٢٠ – ١٢٩٢) فيلسوفاً وراهباً فرانسيسكياً وهو أوّل من أكّد على التجربة، ودعا إلى إعادة النظر فيما يتعلق بعلم الإلهيات، وتعلّم لغات مصادر الكتاب المقدّس، ولاحظ أنّ في الكتاب المقدّس أخطاء، ودعا إلى العلوم التجريبيّة، وبالتالي كان الملهم لفرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) بعد ثلاثة قرون، ليؤسّس المنهج التجريبي، الذي يتلخّص في مقولة بيكون: (إن بدأ الإنسان من المؤكدات انتهى إلى الشك، لكنه إن اكتفى بالبدء بالشك، انتهى إلى المؤكدات).

بدأ العصر الحديث باكتشاف قارة أميركا، وبدأ القرن التاسع عشر بثورات علميّة مذهلة، وكانت الأفكار العلمية التي طرحها جاليليو ونيوتن، القنبلة التي فجّرت عصر النهضة، من خلال التركيز على مبدأ الشكّ، وكان لبيكون وديكارت وقبلهما بايكون التمهيد لهذه النهضة الأوروبيّة، وأيضاً كان للثورة الفرنسيّة الأثر الكبير في رسم ملامح الليبرالية، والثورة الصناعيّة.

لقد كان موقع بريطانيا مساعداً للابتعاد عن الكنيسة، بحكم بردها القارس، وانزوائها في الشمال الغربيّ، فكانت مرتعاً خصباً للمفكّرين الذين ثاروا على اللاهوت الكنسي، وقد ظهر قبل خمسة قرون المفكّر الإنجليزي فرانسيس بيكون رائد الثورة العلميّة، والممهّد لثورة الانقلاب على سلطة الكنيسة في أوروبا، والممهّد لسيطرة الأسلوب العلميّ فيها، فقد أشار فرنسيس بيكون[1] في كتابه (الأورجانون الجديد[2]) إلى أربعة أصنام تقيّد الفكر، وهي (صنم القبيلة – صنم الكهف – صنم السوق – صنم المسرح)[3] ويجب تحطيمها لتحرير الفكر.

المبحث الأوّل – الأصنام الأربعة عند بيكون

أوّلاً - صنم القبيلة (صنم المجتمعيّة)

يعني الصنم الأوّل (صنم القبيلة) أي صنم العقل الجمعي الموجود في القبيلة، أو العرق أو أيّ جماعة أثنية أو طائفية ينتمي إليها الفرد، فعندما يتخلّص الفرد من صنم الجماعة المهيمنة على حرّيّة الفرد، يفترض بيكون انبثاق الإبداع الفرديّ، وبالتالي فإنّ القبيلة تفرض قيوداً على فكر الفرد، ولا تجعله يفكّر، بل يصبح أداة بيد الجماعة التي تسيّره، حسب مفهوم بيكون، ففي العقل الجمعيّ هناك ميول إلى الميتافيزيقيا، كالعادات والتقاليد التي لا معنى لها حسب رأيه، فيصبح الفرد عبداً للخرافة، والتقاليد البالية، ومعتقدات الجماعة التي ينتمي إليها، وكلّما تحرّر من أسر هذه التقاليد يصبح حرّاً، فهو يدعو إلى رفض المجتمعيّة الذاكرة الجمعيّة، والتحرّر من سلطة الجماعة، والذاكرة، فهذه المجتمعيّة مغموسة بالعادات والتقاليد التي يراها بالية لا نفع لها، ففيها الخرافات، والميثولوجيات غير المنطقيّة، فيها أفكار متوارثة لا معنى لها، فيها سحر وشعوذة قد استمدّ من تراكم العصور، فيها أفكار تنتمي إلى ما قبل آلاف السنين، فعلى سبيل المثال هناك قصص عن الغول والعنقاء والتنين ولكلّ مجتمع في هذا الكون معتقدات راسخة، كتقديس القمح عند جماعة، وتقديس الذرة عند جماعة أخرى، أو تقديس البقرة عند جماعة أخرى، هناك إيمان بالتنجيم، والحظّ السيء، والغراب رمز الشؤم، والبوم رمز الخراب، وأفكار عن الجنّ، وغيرها من الأفكار التي تقيّد الفكر.

١- فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، وكان مستشارا للملكة إليزابيث، عرف بقيادته الثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب «. اعتمد منهجه التجريبي على مقولة: (لو بدأ الإنسان من المؤكدات انتهى إلى الشك، لكنه لو اكتفى بالبدء في الشك، لانتهى إلى المؤكدات) وعدّ بيكون من أوائل الذين دعوا إلى تحرير الفكر والاصطباغ بالروح العلمية في العصور الحديثة في كل أوروبا.

٢-الأورجانون، كلمة إغريقية تعني "الآلة"، أو "الأداة".

٣- في كتاب "الأورجانون الجديد"، افترض بيكون أصنامًا أربعة، يجب على العقل الجمعي العالمي التخلص منها ، تلك الأصنام ترسّخت في العقلية الإنسانية على مر العصور، فزرعت في عقولنا مجموعة من الأوهام والخرافات والتقاليد الفاسدة باعدت بيننا وبين جوهر العقل الصافي ومعدنه الفطري الاصيل فتعذر الوصول إلى الحقيقة.

رأى بيكون أن التحرّر من هذه العادات وهذه السلطة المجتمعيّة سينحو الإنسان نحو الفردية، أي بمعنى الحرّيّة الفرديّة. فعندما يتخلّص الإنسان من سيطرة الأنا الأعلى (الدين – العادات – الأعراف...) سيتخلّص الإنسان من ربقة التحجّر، وسينحو نحو الحقيقة، فالحقيقة هنا فرديّة، أي عندما يتخلّص الإنسان من الأفكار القديمة يتخلّص من الأغلال، فالشكّ في كلّ شيء، يؤدّي إلى التمحيص والتدقيق، والوصول إلى جوهر الحقيقة.

إنّ معتقدات القبيلة أو العرق أو الطائفة تقيّد حدود العقل البشريّ بنظر بيكون، فإذا كان كرديّاً على سبيل المثال سينحاز إلى الكرد دون تفكير، وبالتالي سيتعاطف معهم، وهذا التعاطف سيبعده عن الحقيقة، فيجب أن يتخلّص من كرديته، وقرويّته، ونزعاته، وميوله، لتنجح نظرته إلى الأمور، أي يجب التخلّي عن العاطفة التي زرعتها جماعته فيه دون وعي منه.

ثانياً-صنم الكهف (صنم المثاليّة والانعزاليّة)

والمقصود بالصنم الثاني (صنم الكهف) أي الجمهوريّة الفاضلة عند أفلاطون،[٤] ومثال الكهف الذي أورده أفلاطون، حول نظرية المثل[٥]،

> **بدأ العصر الحديث باكتشاف قارة أميركا، وبدأ القرن التاسع عشر بثورات علميّة مذهلة، وكانت الأفكار العلمية التي طرحها جاليليو ونيوتن، القنبلة التي فجّرت عصر النهضة، من خلال التركيز على مبدأ الشكّ، وكان لبيكون وديكارت وقبلهما بايكون التمهيد لهذه النهضة الأوروبيّة، وأيضاً كان للثورة الفرنسيّة الأثر الكبير في رسم ملامح الليبرالية، والثورة الصناعيّة**

فالإنسان معزول في عالم خاصّ به، متقوقع على ذاته، فالحياة التي يعيشها هي انعكاس لعالم جميل خالد في مكان آخر، وهذا يعني أنّ الإنسان لا يعيش حياته الجميلة، بل يعيش ليرى الجمال الحقيقي الكامل في عالم سماوي آخر، قد تكون فكرة الجنّة مستوحاةً منها، أو استمدّ أفلاطون نظريته من الشرق الذي برزت فيه فكرة الجنة واليوم الموعود ما قبل وجود أفلاطون، وبالتالي يرى بيكون أنّ المثالية تدمّر الإنسان، وقد يكون هذا الصنم مكمّلاً للصنم الأوّل، فالصنم الأوّل يحارب الجماعيّة والأفكار المجتمعيّة، والعقل الجمعيّ والميتافيزيقيا، فالصنم الآخر هو المثاليّة، أو الروحانيّة، أو تحطيم الميثولوجيا، ففكرة أفلاطون ميثولوجيّة أكثر من أن تكون فلسفيّة، حول أن الحياة هي ظلّ الحقيقة، والمقولة

٤- يسرد أفلاطون قصّة عن مجموعة من البشر مقيدين بالسلاسل داخل كهف مظلم ليس به إلا فتحة صغيرة، موجودة خلف ظهورهم. فلا يشاهدون من الحياة الخارجية إلا ظلال البشر السائرين بالخارج المنعكسة على جدار الكهف المقابل لعيونهم. فالعالم الخارجي وفق أفلاطون، خارج الكهف، هو عالم المُثُل وهو العالم الحقيقي غير المرئي لنا، وأما داخل الكهف، فهو الحياة التي نعرفها على الأرض وهي زائفة لا ترى من الحقيقة إلا ظلالها.

٥- تميّز الميتافيزيقيا الأفلاطونية بين عالمين: العالم الأول، أو العالم المحسوس، هو عالم التعددية، عالم الصيرورة والفساد. ويقع هذا العالم بين الوجود واللاوجود، ويُعتبَر منبعًا للأوهام (معنى استعارة الكهف) لأن حقيقته مستفادة من غيره، من حيث كونه لا يجد مبدأ وجوده إلا في العالم الحقيقي للمُثُل المعقولة، التي هي نماذج مثالية تتمثل فيها الأشياء المحسوسة بصورة مشوَّهة. ذلك لأن الأشياء لا توجد إلاَّ عبر المحاكاة والمشاركة، ولأن كينونتها هي نتيجة ومحصلّة لعملية يؤديها الفيض، كصانع إلهي، أعطى شكلاً للمادة التي هي، في حدّ ذاتها، أزلية وغير مخلوقة، يشرح أفلاطون عملية سقوط النفس البشرية التي هَوَتْ إلى عالم المحسوسات –بعد أن عاشت في العالم العلوي- من خلال اتحادها مع الجسم. لكن هذه النفس، وعن طريق تلمُّسها لذلك المحسوس، تصبح قادرة على دخول أعماق ذاتها لتكتشف، كالذاكرة المنسية، الماهية الجلية التي سبق أن تأمَّلتها في حياتها الماضية: وهذه هي نظرية التذكر، التي يعبّر عنها بشكل رئيسي في كتابه مينون، من خلال استجواب العبد الشاب وملاحظات سقراط الذي «توصل» لأن يجد في نفس ذلك العبد مبدأً هندسيًا لم يتعلّمه هذا الأخير في حياته.

الفلسفيّة المثالية المستوحاة من قصّة الكهف هي أنّ الإنسان يجب أن يدنو من جوهره ليصل إلى الكمال.

إنّ تحطيم هذا الصنم عند بيكون يعني تحطيم فكرة الخلود، وفكرة الابتعاد عن المنطق، والتبشير بالكونيّة أو العولمة، فالنفس البشريّة واحدة، ولا وجود لجواهر متعدّدة حسب نظرة بيكون، فليس الإنسان تابعاً لبيئته، وليس أسيراً لعالمه النفسيّ، فكلّ إنسان يستطيع أن يصل إلى الحقيقةعبر التخلّص من سلطة الميول والرغبات الشخصيّة والأفكار التي انبعثت من بيئته.

إن كان يدعو بيكون في تحطيم صنم القبيلة إلى التخلّص من العادات والتقاليد البالية والانقطاع عن الذاكرة المجتمعيّة في المجتمع الأكبر (القبيلة)، ففي تحطيم صنم الكهف يعني انقطاعه عن ميوله الشخصيّة، وذاتيته المفرطة، وعدم التقوقع في بقعة فكرية صغيرة، والخروج من الانعزاليّة في بوتقة فكره المستمدّ من أسرته الصغيرة؛ أي المجتمع الأصغر (الأسرة)، وفي كلا التحطيمين يدعو بيكون إلى تحطيم الأفكار المستوردة من الآخر.

ثالثاً - صنم السوق (صنم الأفكار السوقيّة)

أما الصنم الثالث، فهو (صنم السوق)، أي سوقية المعلومة وتداولها عبر منظومة الصنم الأوّل، وهو الآراء والمعتقدات المغلوطة الناتجة عن تواصل البشر وتبادلهم المعلومات دون علم. وينتج عن هذا الصنم تشويه المصطلحات والتعريفات وتعميم الأمور، بسبب تداول البسطاء والعامة والدهماء لآراء علمية دون فهم ولا دراية ولا دراسة. فى المقاهى والأندية والأسواق وغيرها من مناطق تجمع الناس، حيث يتداول الناس فى شؤون الحياة والطبيعة والسياسة بلغة مشتركة بعيدة عن المنطق، فتفقد الألفاظُ دلالاتها الحقيقية وتستقر فى الأذهان مجموعةٌ من المغالطات المشوهة.

أي الابتعاد عن سوقيّة الفكرة، دون تمحيص وتدقيق، فالفكرة السوقيّة هي فكرة بعيدة عن الأكاديميّة، لأنّها طريقة تحليل تعتمد على الصنم الأوّل القبيلة، والصنم الثاني (الكهف) وبالتالي صنم السوق هو نتيجة تداخل الصنمين في المجتمعات الإعلاميّة؛ كالسوق، ففي المقاهي على سبيل المثال هناك أفكار وتحليلات وآراء وأخبار تعتمد على الإشاعات والطبقات، فعلى سبيل المثال إذا قال تاجر فكرة فإنّها تسوّق، وكذلك الأمر إذا روّج رئيس القبيلة فكرة ما فإنّها تسوّق، فالأفكار الموجودة في السوق ليست حقيقية، ومن هنا انبعث مصطلح (السوقيّ).

يروّج بيكون لفكرة الأكاديميّة العلميّة البعيدة عن كلام الشارع، والأرصفة، فكلام النساء على الأرصفة هو إعلام يروّج ويصبح حقيقة، فعند تحطيم صنم السوق، يعني هذا تحطيم الإعلام الشعبي، والترويج للإعلام المؤسّساتي، وبالتالي تزول سيطرة القبيلة على السوق، وتزول سيطرة صنم الكهف أيضاً، فهذه الأصنام متكاملة، ففي صنم السوق تُشوَّه المصطلحات، فعالم الدين يروّج للدين، وشيخ العشيرة يروّج لعشيرته، والقوميّ لقوميته، والكلّ لا يعتمد العلميّة أساساً، لأنّ الأسلوب السائد هو الديني والميثولوجي والفلسفي المثالي، وكي يروّج الأسلوب العلمي يجب أن يتحكّم العالِم بالسوق، أي بالإعلام.

رابعاً - صنم المسرح (صنم الإيمان الأعمى بالسلف أي تقديس الماضيين)

الصنم الأخير هو (صنم المسرح) وكان بيكون يقصد أرسطو وأمثاله من الفلاسفة والمفكرين، أي السلف، ويقصد به النقل قبل العقل، أي الاعتماد على أفكار السلف والنظرة التقديسية لهم، دون أيّ تفكير، وعلى أنّ أقوال الأوّلين عبارة عن نصوص مقدّسة لا يمكن أن تتغيّر، حتّى وإن أثبت العلم والمنطق خطأهم، وقد كان يهاجم مبدأ الناس المتحيّزين للفكر السلفي دون أيّ تفكير، وهذا يؤدي إلى الدوغمائيّة الفكريّة.

صحيح أنّ بيكون من مدرسة أرسطو، لكنّه

يدعو المجتمع للتخلّص من سيطرة الفلاسفة الإغريق على التفكير الغربي (سقراط – أفلاطون – أرسطو) فهو يدعو إلى تحطيم صنم المسرح؛ للخروج من أسر أفكار السلف، وتقديس الماضي، وتأليه تلك الأفكار التي لا تقبل الشكّ أو النقاش، وكأنّ كلماتهم كلامٌ منزّلٌ لا يقبل الجدال.

يعتبر تحطيم صنم المسرح تحطيماً لكلّ المقدّسات، وتحطيماً لكلّ الأفكار التي لا تقبل الجدال، وبالتالي تحطيم للكتب المقدّسة، وكلّ الأفكار الإلهيّة، ومن هنا بدأ الفكر التجريبي، أي عدم القبول بأيّة فكرة لا تخضع للقياس والملاحظة والتجريب.

خامساً - الأصنام الأربعة مجتمعة

لطالما كان الهاجس الوحيد للمفكّر والكاهن والقدّيس والنبي هو البحث عن الحقيقة، فهي الغاية المنشودة، وهي التطلّع للخلاص من ربقة الواقع الأليم، وتطهير الشعوب من الآلام، وبالتالي كان المفكّر بيكون من أولئك الباحثين عن الحقيقة، وكان الواقع القمعيّ في أوروبا والدوغمائيّة الدينيّة، السبب في الانفجار وتحطيم أصنام المعبد، فكانت هذه الثورة على كلّ القديم، بكل ما يحمله هذا القديم من إيجابيات وسلبيات، بكلّ الإرث التاريخي والذاكرة الجمعيّة والفرديّة.

إنّ الأصنام الأربعة لبيكون تتحد ضمن إطار واحد وهو الشكّ، فالشكّ وحده يؤدّي إلى اليقين، والعلم هو المقياس الوحيد للوصول إلى الحقيقة، ليغدو العلم الأداة العظيمة للاحتكار، لتستفيد الحداثة الرأسمالية من هذا العلم الذي كبّل الشعوب بأداة احتكار لا مثيل لها في التاريخ.

هذه الأصنام الأربعة تتحد في مسألة المقدّسات والهويّة، فلا حلّ لبيكون للتخلّص من جبروت الكنيسة إلّا بنسفها من جذورها، ونسف كلّ ما يشابهها من هوية جمعيّة، وذاكرة وتاريخ وقدسيّة الروح، وجمالية المثالية، لتتسرّب العلميّة إلى أدقّ تفاصيل الحياة الإنسانيّة في

> **لطالما كان الهاجس الوحيد للمفكّر والكاهن والقدّيس والنبي هو البحث عن الحقيقة، فهي الغاية المنشودة، وهي التطلّع للخلاص من ربقة الواقع الأليم، وتطهير الشعوب من الآلام، وبالتالي كان المفكّر بيكون من أولئك الباحثين عن الحقيقة، وكان الواقع القمعيّ في أوروبا والدوغمائيّة الدينيّة، السبب في الانفجار وتحطيم أصنام المعبد، فكانت هذه الثورة على كلّ القديم، بكل ما يحمله هذا القديم من إيجابيات وسلبيات**

أوروبا لينتج عنها هذا الصرح المدنيّ الجميل من الخارج.

المبحث الثاني: أساليب الحياة

أوّلاً - الأسلوب الميثولوجي

إنّ القضية التي طرحها بيكون هي قضيّة الأسلوب، أي أسلوب الحياة، فلاشكّ أن بيكون قد أحدث ثورة عارمة بمعالجته هذه الأصنام أو التابوهات التي تقيّد الفكر والعلم، وقد كان همّ الإنسان منذ انتقال الإنسان من الحياة البدائيّة (حياة عدم الاستقرار) إلى المجتمع الزراعيّ، هو البحث عن الحقيقة، وتفسير ظواهر الكون (الشمس – الرياح – المطر – الخير – الشرّ – الحبّ ....) وقد كان أوّل أسلوب اتّبعه الإنسان في نظرته إلى الحياة هو الأسلوب الميثولوجي، تُعتبَر الميثولوجيا[٦] أيضاً أسلوباً وطريقةً للكشف عن

٦ الميثولوجيا أو علم الأساطير: كلمة يونانية مؤلفة من شطرين: Mythos وتعني الأسطورة، وLogy وتعني العِلم. أي علم الأساطير، وبخاصة تلك المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال

الحقيقة. وقد عاش الإنسان ردحاً مع هذا الأسلوب، صحيح كانت هناك حروب للإمبراطوريات للبحث عن المجد والسلطة والمال، لكن لم يكن هناك التدمير للكون في الحروب العالميّة في قرننا الحالي وما قبله.

كان من إيجابيات الأسلوب الميثولوجي الانسجام مع الطبيعة، والحرّيّة البعيدة عن القدريّة، وإن كان عمر الإنسان العاقل ٢٥ ألف عام، فقد ظلّ الأسلوب الميثولوجي منهجاً، وأسلوباً اتّبعه الإنسان قرابة ٢٢ ألف عام، قبل سيادة الأسلوب الدينيّ، وحتّى الآن نرى الأسلوب الميثولوجي ماثلاً لدى الكثير من الأقوام والشعوب، حتّى لدى تصرّفات الإنسان العلماني المتعصّب للعلمانيّة، مثلاً عندما يرى الشرقيّ قطعة خبز مرماة على الأرض يلتقطها، ولا يدوس عليها، وهذه تابع لقدسية القمح لدى شعوب الشرق الأوسط، لأنّه رمز الخير. وإنّ رفض الميثولوجيا يعني رفض كلّ هذا التاريخ الإنسانيّ للوصول إلى المعرفة والحقيقة.

لم تستطع هرميّة الدولة وطبقيّتها السيطرة على المجتمع كثيراً من خلال الأسلوب الميثولوجيّ، بما يمتلكه هذا الأسلوب من حرّيّة، وقدسيّة أقرب إلى الاحترام وليس التعصّب ورفض الآخر والابتعاد عن الدوغمائيّة، بعكس الأسلوب الدينيّ الدوغمائيّ، الذي يعتمد على المسلّمات، وكلام الله، والقدريّة، وهذا ما استثمره المتسلّط ليشرعن وجوده على العبد، وليرضى العبد بالقدر واليوم الآخر، والعدالة الإلهيّة التي استثمرها السيّد على مدى ثلاثة آلاف عام وحتّى يومنا هذا، فكلما كانت الصرامة والصلابة موجودة في أسلوب ما، ينطوي في داخله الطغيان والجشع والاستغلال.

ومن سلبيات هذا الأسلوب أنّ التفسير الميثولوجي للكون بعيد عن الأسلوب العلمي، لكنّه ساهم في فهمه من خلال الأسئلة المطروحة، ومن خلال منهج الأسلوب العلمي المعتمد على اندماج الذات بالموضوع، واندماج الإنسان بالطبيعة، واعتبار الطبيعة هي السيّد، وإذا دمجنا ما بين الأسلوب العلمي لفهم الكون والأسلوب الميثولوجيّ، فسيساعدنا هذا في السير في درب الحقيقة.

ثانياً - الأسلوب الديني التوحيدي

لقد تمّ الانتقال من الأسلوب الميثولوجي إلى الأسلوب الديني قبيل ثلاثة آلاف عام على وجه التقدير، ويعدّ الدين التوحيدي استمراراً لتعدّد الأديان الذي كان مرافقاً للأسلوب الميثولوجيّ، فتعدّد الأديان كان مكمّلاً للأسلوب الميثولوجيّ، فقد كانت الآلهة تمتلك صفات إنسانيّة، ولم تخلق بعد مرحلة رفع الإله إلى السماء، ورفعه فوق الطبيعة والمجتمع، وقد يكون أفلاطون قد دمج ما بين فكرة الدين والفلسفة من خلال رفع الحقيقة إلى ما وراء الطبيعة، وأنّ الإنسان هو ظلّ الحياة المثلى، وظلّ الحقيقة، «فالقاعدةُ الأساسيةُ في التعاطي الدينيّ، هي الحراكُ بموجب الكلام المُعزى إلى الآلهة التي تُعَدُّ فوق الطبيعةِ والمجتمع، بصفتِها غايةَ الحياة وسبيلَ الوصول إلى الحقيقة. وانحرافُ المرءِ أو حَيدُه عن هذا الكلام، يعني تحمُّلَه كل أنواع الأشغالِ الشاقة، وعيشُه شتى ضروبِ العبوديةِ وهو على قيد الحياة؛ بينما يكون مصيرُه بعد المماتِ جهنم وبئسَ المصير، إننا على عتبةِ عهدِ إنشاءِ الآلهة المَقَنَّعة.»[٧]

كانت الثورة الدينيّة التوحيدية ثورة مجتمعيّة، وكان الأنبياء والمرسلون والزاهدون والأولياء دعاةَ خير، باحثين عن العدالة الاجتماعيّة، رافضين كل أشكال التمييز، وقد خرجوا من فئات المجتمع المسحوقة، كالراعي والحدّاد... فإبراهيم عليه السلام ثار على الحكم والملك باسم الآلهة، ورفض العبوديّة، وهو من أوائل من دعوا إلى وحدانيّة الله، وجعله فوق الطبيعة والمجتمع، وخارجاً عن نطاق الحدس، وقد استطاع الأسلوب الدينيّ أن يكرّس الأخلاق ضمن المجتمع، واستطاعت الفضيلة أن تكون عنوان المجتمع الباحث عن الخلود، وبات

الخرافيين عند شعب ما. وهو علم معني بالبحث في أساطير الأولين وتفسيرها. وينقسم إلى أربعة حقول: الثيوغونيا، وعلم نشأة الكون، والأنثروبولوجيا، وعلم الإيمان بالأخرويات والبحث فيها (المترجمة).

٧ مانيفستو — المجلد الأوّل — الصفحة ٢٨

المجتمع الإنسانيّ في طور التطوّر الأخلاقيّ الذي تميّز عن عالم الحيوان، «يتجسّد الجانبُ الإيجابي في الأسلوب الديني؛ في قطعه أشواطاً ملحوظةً في ظاهرة الأخلاق ضمن المجتمع. ففي هذه المرحلة، وفي ظل هذا الأسلوب، تعرضَت ثنائيةُ «الفضيلة – الرذيلة» لتمايزاتٍ كبرى، فقُيِّدَت بأحكامٍ قطعيةٍ صارمة. فالخاصيةُ الأساسية الملفتةُ للنظرِ في هذا الأسلوب، هي مرونةُ ذهنِ الإنسان، وبالتالي، اتسامُه بالمزيةِ التي تُمَكِّنُ من تأهيله ورسمِ ملامحه. وهذه الذهنيةُ التي تُمَيِّزُ الإنسان عن عالَم الحيوان، إنما تشكّل الأرضيةَ الأسَّ للتطورِ الأخلاقي. ومن دون الرجوعِ إلى الأخلاق، لا يمكنُ تحقيقُ المجتمعيةِ أو القيامُ بالإدارةِ والتوجيه. فالأخلاقُ في الأسلوب تكوينةٌ وحقيقةٌ وإدراكٌ إداريٌّ لا غنى عنه بالنسبة للمجتمع. ومن دونِ الدخول في الجدال حول مضمون الأخلاق الإيجابي أو السلبي، فإنَّ التطورَ على هذا الصعيد يُعتبَر ضرورةً اضطرارية للوعي الاجتماعي. لا شك في أنَّ الأخلاقَ وعيٌ ميتافيزيقي[٨]، ولكنّ هذه الخاصية لا تجعل منها موضوعاً تافهاً أو منبوذاً. ولن نبالغ إذ ما تحدثنا عن تفوق الأخلاق الدينيةِ نسبةً إلى الأخلاق البدائية السائدةِ في العصر الميثولوجي. إنَّ مجرَّدَ التفكيرِ بالمجتمع البشري مجرداً مِن الأخلاق، يعني انقراضَ الجنسِ البشري، أو القضاءَ على بيئة الحياةِ التي تحيطُ به. وربما أنّ ذلك أَشْبَهُ ما يَكُونُ بالديناصورات التي انقرضت لأنها لم تُبْقِ شيئاً من النباتِ الذي يُمكنُها أنْ تتغذى منه. الأمران سيان، ويخرجان من البوابةِ نفسِها، ويفيدان في نهايةِ المآلِ بسقوطِ الإنسان في حالةٍ يغدو فيها نوعاً عاجزاً عن تأمينِ سيرورته. مع العلمِ أنّ التدَنِّيَ الفظيعَ للأخلاقِ هو السببُ وراء تفاقُمِ قضايا البيئة في راهننا لدرجةِ الوصولِ بالبشريةِ إلى حافةِ الهاوية.»[٩]

لقد اعتنقت الدولة هذا الدين الوحدانيّ، وجعلته أداة طيّعة لها، لترسيخ مبدأ السطوة والاستغلال، ووصلت الدوغمائيّة الدينيّة ذروتها في العصور الوسطى في أوروبا، إلى حدّ قتل أي شخص بتهمة الهرطقة، ومنع المفكّرين والعلماء من التفكير، وهذا ما مهّد لهذا العطس الفكري الأوروبيّ، وتفجير الطاقة الكامنة العلمية لنسف كلّ ما يمتّ إلى الأسلوب الدينيّ والميتافيزيقي والفلسفي المثالي.

لقد ظلّت الدوغمائيّة أسلوباً استمرّ عهداً طويلاً، وشرعنت العبوديّة، والخنوع للقدريّة، وإطاعة أولي الأمر الذين باتوا خلفاء الله في الأرض، وبات مفهوم (كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته) مبدأ تقسيم السلطات، للوصول إلى الراعي الأكبر وهو السلطان، واستمرّ هذا الأسلوب طيلة ثلاثة آلاف عام ونيّف إلى يومنا هذا في كثير من البلدان، وكثير من المجتمعات، ما مهّد لظهور الأسلوب العلميّ الذي كان بيكون رائده، للتخلّص من سلطة الكنيسة، وسلطة الراعي الأكبر.

إنّ قِدم الأسلوب الديني الحياتي أيضاً يترافق مع قِدم الأسلوب الميثولوجيّ، إذا أضفنا مرحلة تعدّد الأديان إلى مرحلة الأسلوب الديني، وكان ظهور مصطلح (الملك – الإله) بداية الجشع الإنسانيّ، وسيطرته على مقدّرات المجتمع وتقسيم للمجتمع إلى طبقات، وكان الأسلوب الدينيّ التوحيديّ على تضاد مع الأسلوب الميثولوجيّ الذي كان سائداً في المجتمع (الزراعي – النيوليتي)

لقد تحطّم الدين في الغرب، فعيسى عليه السلام شرقيّ، وكلّ الأديان منبعها الشرق، ولم يتحطّم كثيراً في الشرق، صحيح أنّ الشرق يعيش مرحلة اغتراب وابتعاد عن الهويّة في دمج ما بين الدين الشرقيّ، والعلم الغربيّ، لكنّ الدين قد أبيد في الغرب، وصار العلم مقياس كلّ شيء.

ثالثاً - الأسلوب الفلسفي

أضحى الأسلوب الفلسفي مرافقاً للأسلوب الدينيّ، فقد ظهرت الفلسفات المثاليّة التي

٨ الميتافيزيقيا أو علم ما بعد الطبيعة، الفَوْطَبيعة: ويعني البحث في الموجودات اللامادية. وبينما كان يشمل قديماً البحث في الأمور الإلهية والمبادئ الكلية والعلل الأولى، فإنه عند المحدثين مقصور على البحث في مشكلة الوجود والمعرفة المطلقة التي يحصل عليها بالحدس المباشر. وبعض الفلاسفة يُعَرِّفه على أنه المعرفة بالعقل لإدراك حقائق الأشياء، لا ظواهرها، لذا سمي بالفلسفة الأولى (المترجمة).

٩ مانيفستو – المجلد الأوّل – الصفحة ٣١

> **كانت الثورة الدينيّة التوحيدية ثورة مجتمعيّة، وكان الأنبياء والمرسلون والزاهدون والأولياء دعاةَ خير، باحثين عن العدالة الاجتماعيّة، رافضين كل أشكال التمييز، وقد خرجوا من فئات المجتمع المسحوقة، كالراعي والحدّاد... فإبراهيم عليه السلام ثار على الحكم والملك باسم الآلهة، ورفض العبوديّة، وهو من أوائل من دعوا إلى وحدانيّة الله، وجعله فوق الطبيعة والمجتمع، وخارجاً عن نطاق الحدس**

كانت مكمّلاً للأسلوب الدينيّ الأخلاقيّ. وظهر بالمقابل الأسلوب الفلسفي المادّي الذي مهّد للأسلوب العلمي. وقد كان سقراط وأفلاطون الممهّدَين للفلسفة المثالية التي دعمت الدوغمائية الدينية التوحيديّة. وبالمقابل كان أرسطو الممهّد للفلسفة الماديّة. وإن استفادت الدوغمائية الدينية التوحيدية من أرسطو أيضاً.

كانت الفلسفات المثاليّة أقوى من الفلسفات المادية في الشرق. (بوذا – كونفوشيوس – زردشت...) وقد قطعت الأخلاق الإنسانيّة شوطاً عظيماً بفضل هؤلاء المثاليين. وأفكارهم القيّمة الجميلة. ممّا أدّى إلى تأسيس علم الجمال. الذي كان روح المجتمع الإنسانيّ. وأرقى ما وصلت إليه الإنسانيّة. وكان تأثير أفلاطون على الشرق أكثر من تأثير أرسطو. وقد ترجمت كتب أفلاطون إلى الشرق. وتأثر بها الفلاسفة العرب والمسلمون. فقد كانت روحانيّة الشرق عنواناً بارزاً لسحر الشرق. بالمقابل استطاع أرسطو أن يخلّف تياراً فكرياً يعدّ بيكون وديكارت نقطة الانفجار لهذا التيار الذي مهّد للثورة العلميّة في الغرب. ما أدّى إلى كلّ هذه الطفرة العلميّة في خمسمئة السنة الأخيرة. من الاختراعات والاكتشافات الغربيّة.

كان الأسلوب الفلسفيّ المثالي مكمّلاً للميتافيزيقيا والدين التصوفيّ التزهّدي. واختلط عالم الدين والفيلسوف المثاليّ. وأضحت الفلسفة الماديّة أيضاً نتاجاً تصوّرتاً لعالم تندمج فيه القوى الماديّة والمثاليّة معاً. فقد ظلّ المنطق الأرسطي مسيطراً على تفكير الفلاسفة الماديّين. إلى أن جاء بيكون ونسف كلّ الإرث الفلسفيّ.

رابعاً - الأسلوب العلمي

بات الأسلوب العلمي ثورة على الأسلوب الدينيّ في الغرب. وكان روجر بايكون وفرنسيس بيكون وديكارت وغيرهم روّاد هذه الثورة. وقد كانت أوروبا أرضاً ممهّدة للخلاص من الدين. بسبب القرون الوسطى التي كانت مجزرة للعلم. فقد سيطر الأسلوب الميثولوجي والديني ردحاً من الزمن على أوروبا كما أسلفنا. ومهّدت الدوغمائيّة القروسطيّة لحصول هذا الانفجار.

لقد غدا العلم قوّة. فمن يمتلك مفاتيح العلم يستطيع أن يقود المجتمع. فقسّم المجتمع إلى جاهل متخلّف. وإلى عالم قائد. فمن كان يمتلك ثقافة المجتمع في معرفة الفلكلور والتاريخ الشفاهي والثقافة المجتمعيّة ليس عالماً. إنّ من يمتلك الشهادة العلميّة الموثّقة من الترسانة العلميّة العالميّة هو المثقّف والعالم.

كان العلماء دائماً شغوفين للبحث عن الحقيقة. فلم يكن هدف العلماء تدمير الكون. كان هدف العلماء إنقاذ البشريّة من هذه الأصنام. وقد أعدم كثير من العلماء نتيجة مخالفتهم لتقاليد الكنيسة. وكان بيكون عالماً يبحث عن الحرّيّة والحقيقة. وهو الأسلوب للخلاص من هذه الدوغمائيّة. لكن سيادة هذا الأسلوب قد حطّم البشريّة عوضاً عن أن تنقذها. فالقنابل النووية

والعنقودية .... وحروب المعلومات والبنوك والصحة .... باتت تدمّر البشريّة. فعن طريق العلم وصل الاحتكاريّون إلى ترسانات من المال والسيطرة على مقدّرات العالم، وهذه الشركات العملاقة العابرة للقارات هي التي تحكم الكون، وهي التي ترسم المجال العلمي الذي يجب على العلماء أن يسيروا فيه.

لقد صار الفكر علميّاً بحتاً في قرننا الحالي، وقد غزا التعصّب العلميّ أسلوب الحياة في الغرب وصار يمتدّ إلى الشرق، فحصلت الكوارث الفكريّة في الشرق، إذْ ظهر الهجين الليبرالي العشائريّ، وظهر التديّن العلميّ، واختلط الدين بالقوميّة، والاشتراكيّة العلمية بالدين، فظهرت تسميات غير منطقية كتيار يدمج ما بين العولمة والتعصّب والتقوقع واليمينيّة واليساريّة... فظهرت شخصيّات فكريّة متناقضة كلّ التناقض، وظهر التشظّي الفكريّ في كلّ مكان في الشرق.

كان هذا التشظّي الفكريّ مناسباً للحداثة الرأسماليّة، فطالما هناك حروب وكوارث وانشقاقات ومذاهب هناك احتكار، وهناك سيطرة للرأسمال، فينشط العمران وبناء المهدّم، وتنشط الصحّة ومصانع الأسلحة، وتجدّد الأفكار نفسها، وهناك إعلام يرعب الشعوب التي تتطلع إلى الثورة، وترعب الحكّام الذين تهتزّ عروشهم.

بالأسلوب العلميّ تستطيع أن تفكّك كل الأديان، وتفكّك الأخلاق والذاكرة والهويّة، والانتماء، تستطيع أن تنفي التاريخ، وتصنع تاريخاً جديداً لا يقبل أيّ تاريخ، فبالتعصّب العلمي (العلمويّة) تستطيع أن تحطّم كلّ ما هو مقدّس، وكلّ المجتمعيّة، ليسيطر الاحتكار التاريخي، ويصبح المهيمن الفكريّ الأوّل والأخير.

المبحث الثالث – تحليل تناول بيكون للأصنام الأربعة

أوّلاً - إيجابيات تحطيم الأصنام الأربعة

إيجابيات التحرّر من صنم القبيلة (المجتمعيّة): يستطيع الباحث عندما يحلّل التاريخ على سبيل المثال أن ينظر إلى التاريخ نظرة موضوعيّة، فالإنسان العربيّ على سبيل المثال عندما يحلّل التاريخ العربيّ عليه أن يتجرّد من عاطفته القومية والدينيّة، فعندما يتحدّث عن الخليفة هارون الرشيد عليه ذكر إيجابياته وسلبياته ضمن الظروف التاريخيّة حينذاك، لا أن يذكر مناقبه الحسنة، والقوّة التي وصلت إليها الدولة العباسيّة في عهده، وتشجيعه للعلم والمعرفة، والثقافة والفن، وينسى الجرائم التي ارتكبها، وشهواته.... وكذلك العكس صحيح، فهناك من يصوّر هارون الرشيد على أنّه زير نساء ويشرب الخمر فقط، ويسهر، وله ألف جارية....

إنّ الكثير من كتب التاريخ على سبيل المثال تمجّد من الشخص الذي ينتمي إليه الكاتب، وتشوّه من الخصم، لأنّه لم يحطّم وإن قليلاً من صنم القبيلة.

إيجابيات التحرّر من صنم الكهف (صنم المثاليّة والانعزاليّة): يرمز الكهف إلى أنّ النفس الإنسانية المتّصلة بالبدن، مثل سجين مقيد بالسلاسل، وضع في كهف، وخلفه نار ملتهبة تضيء الأشياء وتطرح ظلالها على جدار أقيم أمامه، فهو لا يرى الأشياء الحقيقية بل يرى ظلالها المتحركة، ويظنها حقائق. لا شكّ أنّ هذا الكهف المقصود هو العجز في الوصول إلى الحقيقة، فلا يستطيع الإنسان الوصول إلى الحرّيّة، بل تظلّ الحرّيّة وهميّة، فإدراكنا الحسي قاصر للوصول إلى الحقيقة المخفيّة، فالأشياء الحقيقية هي الجوهر، وعلى هذا فإن الفيلسوف - حسب أفلاطون - هو الذي يرتقي بنفسه ويفكر في المُثُل الجوهرية التي تكمن وراء المظاهر الخارجية، ويعرف الحقيقة ويميز العَرَض من الجوهر.

وهنا رمز إلى الإنسان الواصل إلى الحقيقة بإنسان ينتمي إلى طبقة معيّنة، فليس كلّ إنسان بقادر للوصول إلى الحقيقة، وهنا مبدأ احتكار الحقيقة، بالمقابل ليست الحياة عبارة عن روح فحسب، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش بالروح فقط، فالمثاليّة

والتقوقع على الذات لهما أبعاد سلبية، فعندما ينزاح صنم الكهف، ينزاح القصور الحسّي.

إيجابيات التحرّر من صنم السوق (صنم الأفكار السوقيّة): إنّ السوق لا يحمل معايير صحيحة في كثير من الأحيان، فيختلط الحابل بالنابل، وتكثر الإشاعات، ويعلو صوت الغوغاء، فهناك من يتحكّم بالسوق، التاجر والمتنفّذ والسلطويّ والغني وصاحب الجاه... أي أنّ هناك طبقة تتحكّم بالسوق، وعندما يتخطّى هذا الصنم، تستطيع الأفكار الصحيحة الوصول إلى الجمهور، فعلى سبيل المثال باتت وسائل التواصل الاجتماعي منبراً سوقيّاً، ومن المهم عدم تصديق كل ما يرد في وسائل التواصل هذه، فالمنابر الإعلاميّة ذات المصداقيّة هي التي يجب أن تزوّد المجتمع بالمعلومة.

إيجابيات التحرّر من صنم المسرح (صنم الإيمان الأعمى بالسلف أي تقديس الماضيين): من الخطأ تقديس أفكار الماضيين، فأفكارهم مرتبطة بالزمان والمكان، فلكلّ وقت تفكيره، ومن المنطقي الاعتماد على بعض أفكارهم، ونفي بعضها، فحتّى المفكّر ذاته تتغيّر أفكاره حسب الزمن، فأفكار الإمام الغزالي على سبيل المثال متفاوتة ما بين كتبه الأولى وكتبه الأخيرة، فقد كان متزمتاً متعصّباً في بداياته، ووصل إلى مرحلة الشكّ في نهايات حياته، وكذلك الشاعر أبو العتاهية فقد كان شارب خمر، وزير نساء، وغدا زاهداً فيما بعد.

ثانياً – سلبيات تحطيم الأصنام الأربعة

إنّ معالجة هذه القضايا هي معالجة ثوريّة لا محالة، وقد أحدثت تغييراً في بنية الفكر الغربيّ، والفكر العالمي بالضرورة، وهي قضايا مهمّة علينا معالجتها للوصول إلى الحقيقة، لكنّ مبدأ تحطيمها ونسفها أمر فيه إجحاف كبير بحقّ تاريخ الثورات المجتمعيّة على مرّ التاريخ، فسقراط على سبيل المثال قد دفع حياته ثمناً للوصول إلى الحقيقة، والمسيح أيضاً، والحلاج، وهناك من أحرقت كتبه كابن رشد والتوحيدي... فقد قدّم المفكّرون والقدّيسون للبشريّة ما لم يقدّمه أحد، دفعوا حياتهم ثمناً للوصول إلى الحقيقة، خلّدهم التاريخ، وعند نسفهم يعني نسف التاريخ.

إنّ الأصنام الأربعة التي دعا بيكون إلى تحطيمها والممثلة في (صنم القبيلة – صنم الكهف – صنم السوق – صنم المسرح) تتلخّص في تحطيم (صنم المجتمعيّة – صنم المثاليّة والانعزاليّة – صنم الأفكار السوقيّة – صنم الإيمان الأعمى بالسلف أي تقديس الماضيين) أي كانت دعوته إلى تقديس العلم وجعل الأسلوب العلمي المنهج الرئيس في الحياة، والابتعاد عن المثاليّة الموجودة في الأساليب (الميثولوجيّة – الدينيّة – الفلسفيّة) وجعل المقياس العلمي هو المقياس الوحيد للوصول إلى الحقيقة، ورفض التاريخ البشري وجعله تاريخاً بدائيّاً.

من هنا ظهرت المصطلحات التي نفت الماضي وأسمت العصور الوسطى عصور الظلمات، وعصور العبوديّة حتّى وصل الأمر ببعض المفكّرين الحاليين إلى تسمية الأسلوب العلمي نهاية التاريخ، كالمفكّر فوكوياما، فالأوروبيون والأميركيون لا يهتمون كثيراً بالأصل الآن، ولا يهتمون بالعرق، ولا بالتاريخ، كلّ ما يهمهم هو الحاضر، والمستقبل، وكلّ فكرة جديدة تنفي سابقتها، كأنّ ماركس قد أسّس للحتميّة التاريخيّة والديالكتيك لخدمة الحداثة الرأسماليّة.

لا شكّ أن الأسلوب العلمي كان موجوداً لدى العديد من الحضارات السابقة التي كان فيها دمجٌ ما بين الأساليب الأربعة للوصول إلى الحقيقة (الميثولوجيا – الدين – الفلسفة – العلم) فالحضارة الفرعونيّة على سبيل المثال كان العلم فيها متطوّراً، كعلم الهندسة والطب والفلك.... فهذه الأهرامات والتحنيط .... شاهد على ذلك، وغيرها من الإمبراطوريات المشادة، ولم يصل هذا التطوّر العلمي إلى اكتشاف الكثير من المجالات التي اكتشفها واخترعها أجداده، وكذلك لم يصل العلم إلى النهاية، فكلّ يوم

هناك اختراع جديد، واكتشاف جديد.

لقد ذكر فرنسيس بيكون تحطيم الأصنام الأربعة التي تقيّد الفكر، في كتاب أسماه الأورجانون أي الإله، والعنوان يلخص فكره، أي تحطيم الإله، أو الآلهة، والدعوة إلى إله جديد، وهو العلم والمنطق، وأدواته (القياس والتجريب والملاحظة والتعميم والتحليل والتركيب...) ورفض كلّ أداة غير منطقيّة، أي رفض ذاكرة المجتمع وتحطيم عقله، ووضع روبوت عوضاً عنه.

كان بيكون من دعاة المدنيّة، ورفض المجتمع الريفي الذي ظلّ مُحافظاً إلى حدٍّ ما على هذه الأصنام الأربعة، فالمدنيّة والمدينة تنحو نحو الخلاص من الجذور والمقدّسات، فما يهمّ المدينة هو فائض الإنتاج والاحتكار وتكديس المال، واستغلال الريف، ووضع الريف في خدمة المدينة، والمدينة تعني التضخّم السكّاني، والسيطرة والسطوة والمال.

إنّ الشكّ البيكوني الذي مهّد للشكّ الديكارتي كان الممهّد للخلاص من هذا الأسلوب الديني في الغرب، فتحطيمه الأصنام الأربعة، كان مشابهاً لتحطيم سيدنا إبراهيم لأصنام تعدّد الأديان وثورة الدين الوحدانيّ، والتشابه بينهما هو الوحدانيّة، أي وحدانية التفكير، والأسلوب الوحيد للوصول إلى الحقيقة، فالمنهج العلمي الذي دعا إليه بيكون كان في سيطرة الإله الجديد (العلم) وجعل الإنسان محور العمليّة الفكريّة، وأنّ الطبيعة مسخّرة للإنسان كي تكون حقل تجارب له، وبالتالي صار الإنسان هو محور الكون، بينما كانت الطبيعة محور الكون في الأسلوب الميثولوجيّ.

> **لقد ظلّت الدوغمائيّة أسلوباً استمرّ عهداً طويلاً، وشرعنت العبوديّة، والخنوع للقدريّة، وإطاعة أولي الأمر الذين باتوا خلفاء الله في الأرض، وبات مفهوم (كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته) مبدأً تقسيم السلطات، للوصول إلى الراعي الأكبر وهو السلطان، واستمرّ هذا الأسلوب طيلة ثلاثة آلاف عام ونيّف إلى يومنا هذا في كثير من البلدان، وكثير من المجتمعات، ما مهّد لظهور الأسلوب العلميّ**

أن يكون هناك خطّ عريض من القيم المطلقة للوصول إلى الحقيقة (المجتمعيّة – الحريّة المجتمعيّة - نبذ السلطة – العدالة – الحقّ – الجمال – المحبّة – التعايش – السلم – الوفاء – الصدق...) فما يتوافق مع هذه القيم علينا التشبّث به، وما يؤدّي إلى زعزعة هذه القيم علينا رفضه، فتحطيم أيّ صنم يعني نسف السلبيات والإيجابيات معاً.

لكنّ تحطيمها يعني نسف الماضي، والذاكرة، والانقطاع عن المجتمع والنزوع نحو الفرديّة المطلقة والجشع والأهواء كما أسلفنا.

الخاتمة

في المحصّلة نرى أنّ التحرّر قليلاً من سيطرة هذه الأصنام الأربعة تفيد في الوصول إلى الحقيقة، فهناك الكثير من المعتقدات التي تكرّس قمع المرأة، وهناك الكثير من الأمثال التي تمجّد القوّة، والسيطرة.... إنّ التحرّر من هذه الأصنام يعني

النزعة القبلية وعملية التحول نحو الأمة

سردار ستار

كيف يجب أن نقرأ مسألة القبيلة والعشيرة و الـ «بك Beg» في كردستان؟ يا ترى هل تلك القراءة التي تتم الآن من قبل بعض المثقفين والكتاب والسياسيين صحيحة؟ حيث تأتي تعاريفهم وتحليلاتهم من إطار محمّل إياهم الجهل والقتل والنهب، يا ترى هل القبيلة هكذا فعلاً؟ أم إن حقيقة الأفخاذ والقبيلة والعشيرة قد شوّهت في كردستان، بنفس الطريقة التي شوّه بها قسم كبير من تاريخنا ومجتمعنا ومكوناته، هل النموذج الموجود اليوم من القبلية هو نفس النموذج والنظام القديم؟ أليس من الممكن أن تصبح القبيلة والعشيرة جسر عبور نحو مجتمع الحداثة الديموقراطية؟

الرأسمالية والعداوة في القبيلة والعشيرة

إن الحداثة الرأسمالية برزت أكثر على أنقاض النظام

الإمبراطوري في الـ١٥٠ من الأعوام الأخيرة. (لأن النظام الرأسمالي أقدم من ذلك). فالنظام الرأسمالي الذي اتّخذ نموذج الدولة القومية كأساس وإطار ليقول للعالم إن النظام الإمبراطوري نظام جامد. ولهذا قدم نظاماً جديداً باسم نظام الدولة القومية.

بصورة عامة لم يكن هناك قومية واحدة ودولة واحدة في النماذج و الأنظمة الإمبراطورية. بل كان هناك الكثير من القوميات والقبائل والعشائر والعوائل والأُسر النبيلة. اجتمعت كلها في إطار إمبراطورية واحدة. صحيح أنها لم تجتمع مع بعضها بصورة اختيارية. ولكن لم يكن هناك قرارات بالقضاء على أية قبيلة أو عشيرة أو أسرة. وصحيح أنه كان هناك مركز رئيسي كعاصمة. ولكن كان هناك الكثير من المراكز والأقاليم والولايات التي لم تكن أدوارها أقلّ من دور العاصمة, فمع وجود النظام الضريبي وضريبة الرأس ومسألة خدمة الدولة. فلم يكن المواطن متضايقاً منها إلى تلك الدرجة, لأنه في أغلب الأوقات لم يكن الإمبراطور يريد سوى مقاتلين من القبائل والعشائر. وكانت هذا يتيح الفرصة للقبائل والعشائر أن تدير شؤونها بنفسها إلى حدّ ما .

إن الحداثة الرأسمالية في فترة الـ ١٥٠ عاماً بجميع حركاتها اليمينية واليسارية, والحركات التحررية والاشتراكية. تقوم بالدعاية المضادّة ضد النظم القبلية والعشائرية, وتظهرهما كبعبعين, وهذا جعل من الأمم التي لم تصبح دولة في العالم الحالي؛ أي لا تملك دولتها القومية, تشعر بالعار وأن لا يُذكر اسمها في أية عملية في العالم. فمثلاً يتم ذكر الأمم المتحدة. لكن في الأساس الأمم المتحدة هو مكان تلك الأمم التي تملك دولاً. ولهذا لو أطلقنا عليها الدول المتحدة فسيكون أدقّ من الأمم المتحدة. لأنه لا نوجد بينهم أمة لا تمتلك دولة. والشاعر الكردي الكبير (عبدالله بشيو) قد عبّر عن هذه الحقيقة في قصيدته (١٣ درساً للأطفال) حينما يقول: «يا عديم الراية اخرج». لأن الدولة القومية فقط تقدر أن تمتلك راية لها.

في الحقيقة في زمن الإمبراطوريات معظم القبائل والعشائر كانت تمتلك رايات خاصة بها. وحتى كانت أصحاب اقتصاديات خاصة بها. ففي كردستان نرى بأن العديد من أمرائها أرادوا أن يمتلكوا صكّاً لنقودهم الخاصة ولم يكونوا يأخذون الإذن من أحد, ولهذا نرى الدولة القومية قد ضيّقت على الأقوام والقبائل والعشائر, وجمعتهم في حدودٍ واحدة باسم الدولة. ووضعتهم تحت راية واحدة وفرضت عليهم لغة واحدة باسم اللغة القياسية القومية. وحشرتهم في تاريخ واحد كميناء مفروض عليهم بالقوة. ولهذا فإن الدولة القومية أصبحت حفرة عميقة كحفرة الموت للقبيلة والعشيرة والأمم.

أوروبا تُعرف بأنها باني نظام الدولة القومية وقد عرّفوا أنفسهم ضمن أُطر جمهوريات. وتُعتبر الدولة الفرنسية هي بداية لتلك العملية, والثورة الفرنسية الكبرى التي اندلعت في ١٤ تموز ١٧٨٩. عُرِفَت كثورة للبورجوازية, وفي الحقيقية إن البورجوازية ليست بحاجة إلى أية ثورة. والذين بحاجة إلى ثورة هم الشعب والمجتمع والطبقات المضطهدة والكادحة.

هذا خطأ حدث في فترة الـ ٢٣٠ سنة الماضية, ففي فترة السنوات الأخيرة الماضية انضمّ مؤرخو وفنانو وسينمائيو شمال ووسط أوروبا في السلسلتين الدراميتين (Vikings) و(Game of Thrones). حتى يتذكروا مرة أخرى أو ينتقدوا أنفسهم, وليسترجعوا تاريخهم عن طريق السيناريوهات والمسلسلات الدرامية الطويلة, وخاصة التاريخ ما قبل اعتناق الديانة المسيحية, وأن يكشفوا بأنه كم كانت الأفخاذ والعشائر والقبائل ودويلات شمال ووسط أوروبا, مرتاحة أكثر مقارنة بزمن هيمنة الحداثة الرأسمالية التي لم تبقِ قيمة للإنسانية. فالتغيير الذي طرأ على النظام

والهيمنة التي انتشرت في العالم باسم الإمبريالية، أحدث أكبر عملية سرقة ونهب في البلدان المحتلة وفرضت عليها نموذجاً مشابهاً له.

بعد الحربين العالميتين في القرن العشرين، خسر النموذج الإمبريالي أمام كفاح الشعوب والأحرار في العالم، ما أجبر الدول الإمبريالية التي كان مركزها أوروبا وأمريكا، على التراجع إلى الخلف بما نهبوها وسرقوها. وكذلك استطاع الرأسماليون الذين كانوا قد نظموا أنفسهم بصورة أحسن، أن يستولوا على مكاسب الشعوب المتحققة من الكفاح في ثورة الشعوب والثورة الصناعية في أوروبا، وأن يبنوا على أساسها هيمنتهم.

النزعة القبلية في كردستان

إن نموذج الفخذ والقبيلة في كردستان تاريخه أقدم مما في أوروبا، لأن تاريخ التحول المجتمعي واكتشاف مصادر الحياة والإنتاج في كردستان، والذي أطلق عليه اليونانيون ميزوبوتاميا أي بلاد ما بين النهرين، هو أقدم من التاريخ الذي يبدأ باليونانيين، بلا شك إن المفكر عبدالله أوجلان قد كشف هذا التاريخ أكثر في مجلداته الخمسة باسم (مانيفيستو الحضارة الديموقراطية)، بالاعتماد على بحوث الآثاريين الذين بدؤوا في مطلع القرن العشرين وما زالوا مستمرين إلى الوقت الحالي. وضّح المفكر عبدالله أوجلان هذا المبحث بصورة أعمق في الجزء الخامس- الفصل الثالث، عندما يتحدث عن تسلسلية المجتمع الإنساني في كردستان، في العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث أو العصر الحجري الذهبي، أو عندما يقول بتعبير آخر، المجتمع الطبيعي. هذه المرحلة انتهت في جنوب بلاد الرافدين بدويلات مثل سومر و بابل، ولكنها استمرت عند الآريانيين بالأفخاذ والعشيرة والقبيلة، فصحيح بأن نظام الكلان والقبيلة قد صاغ نفسه في العائلة والقرية، ولكن هذا التطور في كردستان اتخذ شكل العشيرة.

"بصورة عامة لم يكن هناك قومية واحدة ودولة واحدة في النماذج و الأنظمة الإمبراطورية، بل كان هناك الكثير من القوميات والقبائل والعشائر والعوائل والأُسر النبيلة، اجتمعت كلها في إطار إمبراطورية واحدة، صحيح أنها لم تجتمع مع بعضها بصورة اختيارية، ولكن لم يكن هناك قرارات بالقضاء على أية قبيلة أو عشيرة أو أسرة"

العشيرة في كردستان بيّنت نفسها أكثر في إطار الأُسر النبيلة و النزعة الأسرية، أي أن القبيلة لم تتحول في كردستان إلى دولة وإمبراطورية، وعندما سارت أكثر تشكلت في بوتقة النزعة العشائرية، والعشيرة هي نظام كونفيدرالي للقبائل، أي أنه في نظام العشيرة لا تسود قبيلة واحدة، وعندما ننظر إلى الإمبراطورية الميدية نجدها شكلاً من أشكال كونفيدرالية الشعوب والقبائل والعشائر والمجموعات الخاضعة لهم، وعلى الرغم من تسميتها بالإمبراطورية الميدية، فإن مصطلح الإمبراطورية يمكن أن لا يناسب هذا التكوين كثيراً، لأن تلك الشعوب والأقوام والقبائل والعشائر، التي كانت تُضطهد تحت الحكم الآشوري، والذين أرادوا أن يتخلصوا من ظلم واضطهاد الآشوريين لهم، قاموا بعمل اتفاقية حلف آرياني، ولهذا لا تجد اسم قومية واحدة فقط على السلطة الميدية، ولغاية اليوم تجد مع الأكراد شعوباً وأمماً أخرى تعتبر الإمبراطورية

الميدية ونوروز وهذا الانتصار ملكاً لهم.

في عهد الإمبراطوريتين الصفوية والعثمانية، ظهر الدور والوجود الأكبر للقبائل والعشائر الكردية، فمن ناحية كانوا يديرون شؤون أقاليمهم، ومن ناحية أخرى كانوا يدعمون واحدة من هاتين الإمبراطوريتين، وتُعتبر اتفاقية إدريس البدليسي مع الخليفة العثماني من أبرز الاتفاقيات في ذلك العصر، والتي تعتبر كاتفاقية استسلام يجب أن يتم منافشتها أكثر. فهي الأكثر شهرة، لأن القبائل والعشائر الكردية قد شهدت في ذلك العصر تغييرات إدارية وتوسعاً في مناطق سلطتها، ولهذا كانوا يسمون بالأمراء، والذي كان يستحوذ على سلطة أوسع ويعقد اتفاقيات أكثر بين الأمير والعشيرة والقبيلة كان يُسمى «أمير الأمراء»

إن مشروع أمير الأمراء في كردستان كان يُعتبر عملية محلية، أي أنها كانت تُنجز بدون تدخلات خارجية، لأنه في الإمارة كما في القبيلة لم تكن هناك هيمنة طرف أو قوم أو مجموعة أو فخذ أو لغة أو لهجة واحدة: (أمير بوتان، أمير بابان، أمير سوران، أمير أردلان)، هؤلاء هم أمير الأمراء، أي أنهم قد جمعوا عشرات القبائل والعشائر حولهم، وبالتأكيد فإن كل واحد من هؤلاء الأمراء أو القبائل قد حاول أن يوسع قوته و مساحة ولايته.

لقد أشار كاتبا التاريخ الكرديان «ديار غريب وقاسم أنكين» في كتابيهما باسم (قراءة حديثة لتاريخ كردستان ـ التاريخ المعاصر) إلى نقطة مهمة في مسألة القبيلة والعشيرة، فكلاهما يفصلان نموذج القبيلة والآغا والشيخ عن بعضهما البعض, أي أنه بظهور الآغايتية والمشْيَخة في كردستان يمكن القول إن معايير نموذج القبيلة قد اضمحلّت لدرجة كبيرة، لأن ذلك النموذج الجديد يظهر في الآغايتية أكثر بعد قمع نظام الإمارة في كردستان, ونظام الإمارة كان قد بنى نفسه على أساس القبيلة, وتتطور هذا خاصة بعد مجيء الإنكليز إلى الشرق الأوسط, الأمر الذي دعم خلق شخصيات وأُسَر وآغاوات وشيوخ تابعة لهم، ولهذا وزّع الإنكليز عليهم أراضٍ وأملاكاً كثيرة, وأخذوا أطفالهم إلى بريطانيا ليغيّروا هذا النموذج الرصين بنموذج مزيّف ومصطنع. ولهذا إذا سألنا لماذا لم يبقَ أحد من عائلة أمراء سوران؟ لماذا لم يبقَ أحد من أمراء بوتان و بادينان وأردلان؟ الجواب هو أن الذين لم يصبحوا عكازة بيد الإنكليز، انتُزِعوا من الجذور, ومن الممكن أن يتم عمل بحوث أكثر عن هذا الموضوع، ولكن الحقيقة التي لا يمكن نكرانها هي أن الذين يُطلق عليهم آغاوات وشيوخ في كردستان، ليست لديهم جذور وأصول، وأن أعمارهم لا تتجاوز المئة عام. وكذلك فإن المشْيَخة ليست لها جذور في كردستان، ففي مئتي عام الماضية، أتت الطريقة القادرية من شمال إيران وبدؤوا بنشر طريقتهم من بغداد، ومولانا «خالدي الميكائيلي» جلب الطريقة النقشبندية من الهند إلى السليمانية وبعدها إلى بغداد والشام، وفي كردستان وسّعوا أنفسهم بالتركيز أكثر على الشخصيات والأسر البارزة, ومن الجلي أن الطريقة الوهابية والذين عبّروا عن أنفسهم بعدها بإطار الأخوانية وبعدها بالسلفية, أسسها محمد بن عبدالوهاب في بريطانيا, وانتشرت أكثر في الجزيرة العربية، كما انتشرت في كردستان في منتصف القرن العشرين وما بعده باسم الأخوانية, و بعدها باسم السلفية.

في القرن العشرين أصبحت الكثير من القبائل والآغاوات في كردستان أدوات بيد المحتلين، وهذا حدث بعد العملية التي قام بها السلطان عبد الحميد الثاني بتأسيس فرق الفرسان الحميدية في شمال كردستان, وجعلهم أداة لإبادة الأرمن والآشوريين, وفي جنوب كردستان بعد الحرب العالمية الأولى وتأسيس دولة العراق, في البداية تم تسليح الآشوريين تحت اسم (ليفي)، وبعدها تم تسليح آغاوات وبيكات الكُرد باسم الشرطة، حيث تم منحهم شكلاً

من أشكال الشرطة الداخلية. وكان ضدّ كل أشكال الانتفاضات والمخاطر التي يمكن أن تواجه السلطة البريطانية, والقبائل التي كانت داخل المدن. أو الأصحّ أن نقول بأن الأمراء والبيكات والآغاوات الذين كانوا داخل المدن. أصبحوا جزءاً من سلطة أنظمة المحتلين لكردستان. لأن الكثير من تلك القبائل والعشائر قد أخذوا دوراً عند مواجهة الإنكليز. وكانوا قد حاولوا أن يكون لهم إدارات إقليمية, وعندما فشلت الانتفاضات والجمعيات والمنظمات وانتفاضة الشيخ محمود والشيخ سعيد وسمكو الشكاك, وبعدها حصلت الإبادة الجماعية في ديرسم. بهذا مد فقدان الأمل جناحيه على كردستان. هذا هو أحد أسباب استسلام الآغاوات والبيكات والأسر النبيلة في كردستان وحملهم السلاح للمحتل.

ولأن النزعة القبلية والعشائرية لم تسعَ للتحول القومي. فقد حاولت القوى الاستعمارية والدول المحتلة. أن تستغل هذا الضعف في المجتمع الكردي. فمن جهة يلحقونهم بأنفسهم ويعززون بهم سلطتهم في كردستان والمنطقة. ومن جهة أخرى يستخدمونهم ضد غيرهم من القبائل والعشائر. فخلف جميع الحروب التي حدثت بين القبائل والعشائر الكردية بدون أي شك. إما أيادي القوى الاستعمارية أو أيادي محتلي كردستان. و بسبب عدم التحول من القبيلة إلى الأمة وقعت القبيلة تحت أيادي محتلي كردستان.

عملية التحول نحو الأمة في كردستان

لأن الحداثة الرأسمالية قد خلطت بين عمليتي التحول نحو الأمة و التحول نحو الدولة. لهذا فإن عمليتي التحول نحو الأمة والتحول نحو الدولة في كردستان أيضاً تم خلطهما. حتى إن الكثيرين في جنوب كردستان يقولون إنهم لا يملكون وطناً. لأن الدولة تمّ تقديسها إلى درجة بحيث أن الذي لا يملك دولة فإنه لا يملك

"بعد الحربين العالميتين في القرن العشرين, خسر النموذج الإمبريالي أمام كفاح الشعوب والأحرار في العالم, ما أجبر الدول الإمبريالية التي كان مركزها أوروبا وأمريكا, على التراجع إلى الخلف بما نهبوها وسرقوها، وكذلك استطاع الرأسماليون الذين كانوا قد نظموا أنفسهم بصورة أحسن، أن يستولوا على مكاسب الشعوب المتحققة من الكفاح في ثورة الشعوب والثورة الصناعية في أوروبا، وأن يبنوا على أساسها هيمنتهم"

وطناً. لكن في الحقيقة لا يوجد أي ربط بين الدولة والوطن. من المحتمل أن عملية التحول نحو الأمة قد تأخرت في كردستان. ولكن الآن بعد قرابة نصف قرن من نضال حزب العمال الكردستاني فإن عقلية ومفهوم وحياة التحول نحو الأمة قد تقدمت. فمغوار من كرمانشاه يستطيع بسهولة أن يحارب في ديرسم ويستشهد فيها. وكذلك بنفس الشكل فإن كردياً ظاظائياً وعلوياً بمقدوره أن يحارب بفخر في سنجار ومخمور و كركوك و شاهو ودالاهو, و أن يسجل ملاحم المقاومة فيها. ولهذا فإن الكردي الذي تربى بمفاهيم و فلسفة المفكر عبدالله أوجلان. نستطيع أن نقول بأنهم قد حققوا هذا التحول إلى مستوى كبير. وبهذا قد تم خلق كردي وطني. وهذا يخبرنا. بأنه بالإمكان إنجاز عملية التحول نحو الأمة بدون دولة. ولكن القوى والجهات التي ما تزال تصرّ في نضالها السياسي والفكري على النزعة القبلية والأسرية والتعصب المناطقي والإقليمي.

> **وعندما ننظر إلى الإمبراطورية الميدية نجدها شكلاً من أشكال كونفيدرالية الشعوب والقبائل والعشائر والمجموعات الخاضعة لهم، وعلى الرغم من تسميتها بالإمبراطورية الميدية، فإن مصطلح الإمبراطورية يمكن أن لا يناسب هذا التكوين كثيراً، لأن تلك الشعوب والأقوام والقبائل والعشائر, التي كانت تُضطهد تحت الحكم الآشوري، والذين أرادوا أن يتخلصوا من ظلم واضطهاد الآشوريين لهم, قاموا بعمل اتفاقية حلف آرياني**

فإنهم يكونون بعيدين عن التحول نحو الأمة. صحيح بأنهم يعملون دعاية باستمرار للحداثة الرأسمالية و الدولة القومية. ولكن في الحقيقة هم ما يزالون بعيدين عن الحياة ومفهوم والروح القومية. فيريدون أن يكون لهم دولة لكي يبسطوا سلطتهم أكثر على الأمة الكردية وأن يضطهدوا المواطن والفرد الكردي تحت سلطتهم. ولهذا فإن القضية الكردية لم تتحول لديهم إلى قضية واحدة. بل ما تزال لديهم كردستان العراق وتركيا وإيران وسوريا. لا يقدرون أن ينظروا إلى جميع محتلي كردستان كعدوّ. ولحد الآن يعتبرون أردوغان صديقاً. ويحتضنون وزير دفاع دولة الاحتلال التركي. وبكل سهولة يركبون دبابات ومدرعات العدو ليقضوا بها على الثوار والوطنيين. وأن يطلقوا على قوات المرتزقة والعصابات التابعة لهم اسم «المعارضة»؛ وأن يقولوا عن احتلال عفرين وسري كاني وكري سبي «بأنه تمت السيطرة عليها من قبل تركيا». ولهذا فإن عزف المزمار للدولتية ومسألة التحول نحو الأمة شيئان مختلفان. وهنا يجب أن نشير إلى أن التحول نحو الأمة والوطنية. أي الإخلاص للأمة والوطنية والذي صاغه المفكر عبدالله أوجلان بتعبير الأمة الديمقراطية والذي أصاب الهدف بصورة جيدة.

الأمة الديمقراطية تختلف عن التعصب القومي و جعل القومية أداة للسلطة. ففي أوروبا سُميت هذه بالقومية الشوفينية (Nationasim). أي التعصب القومي. وفي كردستان سماها السيد أوجلان بالقومية البدائية. لأن عملية البورجوازية والاقتصاد الوطني المستقل في كردستان لم تتقدم. ولهذا هنالك أمة متخلفة وتتواجد على أساس التبعية للمحتلين. فلا يمكن رؤية هذه كعصبية قومية اعتيادية. بل إن هذا تخلف و لايمكن له أن يخدم عملية تحرير و ديمقراطية وإنقاذ كردستان. ولهذا فإن مصطلح «القومية البدائية». يلائمه بامتياز. أي متعصب قومي غير مكتمل. عندما يتم التحدث عن عملية التحول نحو الأمة. فهذا لا يعني انصهار مجمل القبائل و العشائر في بوتقة التحول نحو الأمة. مثلما فعله مصطفى كمال في تركيا. أو كما فعله هتلر في ألمانيا. فالقبيلة يجب أن لا تصبح عائقاً أمام التحول نحو الأمة. ولكن في عملية التحول نحو الأمة لا يمكن فرض جميع المعايير على القبائل والعشائر. مثل إدارة شؤونهم. وحماية أنفسهم. وأشكال لهجاتهم و لغاتهم. وأشكال ملابسهم وطريقة أكلهم وشربهم. ومن الممكن أن تحافظ قبيلة على هويتها. ولكن دون أن تتناسى النضال من أجل هويتها القومية. في عام ٢٠٠٤ في إحدى القرى التابعة لمدينة ماردين تقاتل بعض الأكراد المسلحين التابعين للدولة التركية فيما بينهم وقتلوا ٣٠-٤٠ شخصاً فيما بينهم. قائد جيش الدولة التركية آنذاك كان قد قال بأن الكرد لأنهم ما زالوا قبليين لهذا يقتلون بعضهم البعض. كان السيد أوجلان في ذلك الوقت

قد التقى بمحاميه فقال لهم: «صحيح بأن حقيقة القبلية ما زالت موجودة عند الكرد، ولكن هؤلاء كانوا من الكرد المسلحين للدولة التركية، وقال أيضاً إن السيد أحمد تورك هو من الكرد القبليين المقرّبين لنا، فلينظروا إليه كنموذج». كان هذا الجواب في محله ١٠٠٪، أي أن السيد احمد تورك أيضاً هو رئيس قبيلة كردية كبيرة في إقليم ماردين، ولكن له دور كبير في النضال القومي الديمقراطي في ماردين والشمال، بل في مجمل كردستان .

القبيلة والحزب و العراقيل أمام التحول نحو الأمة

لقد بات للنزعة القبلية في جنوب كردستان ٧٥ سنة وهي تمتهن السياسة والتحزّب وتمارس السلطة لـ٣٠ سنة. ولهذا ففي هذه الـ ٣٠ سنة لم يقتصر الوضع على عدم وجود تقدم، بل هناك تراجع في مسألة دفع التحول نحو الأمة للأمام في كثير من النقاط، مثال ذلك أن موضوع الانتماء للوطن والأمة قد ضعف جداً. سابقاً كان بعض الناس والآغاوات والبيكات بالسرّ يصبحون من أزلام الأعداء باسم الفرسان، ورجال الدولة المركزية في بغداد يقبلون التبعية والارتزاق خجلاً، ولكن الآن يمارسون العمالة تحت مسمى الكردايتي (الحركة القومية البدائية الكردية) والحزب والقبيلة وحتى أنهم في بعض الأحيان يتجاوزون ذلك فيحاربون بالملابس الكردية الحركات التحررية والثوار في كردستان، جنباً إلى جنب المحتل تحت مسمى القومية، وبكل سهولة يتخلون عن حماية بعض المناطق من وطنهم ويسلمونها إلى عصابات داعش كما حدث في شنكال (سنجار) في ٢٠١٤، يهربون بدبابات ومدافع وسيارات وأسلحة كردستان، ويسلمون نساء وأملاك أمتهم إلى المحتلين. يتفقون مع المحتلين حتى ينزعوا من المجتمع اليزيدي تلك المكتسبات التي حصلوا عليها في الحماية والإدارة الذاتية الديمقراطية، ويعيدون الإيزيديين إلى العبودية والاضطهاد، ويسلمون بعض المناطق الأخرى المتنازع عليها إلى مليشيات الحشد الشعبي دون خجل.

في عمليات الأنفال وحرق وهدم قرى بعض العشائر باسم الفرسان المرتزقة (جاش) والمسلحين للنظام البعثي المقبور، أصبحوا سبباً للقضاء على الآلاف من الناس الأبرياء، أولئك المسلحون المتورطون في تلك الجرائم بدل أن تتم محاسبتهم خلال هذه الـ ٣٠ سنة الماضية، قامت السلطة الكردية بحماية التابعين لهم من أولئك المجرمين، حتى أن معظمهم أصبحوا مسؤولين وقادة، مثال ذلك خسين شاويس وقاسم كوير (قاسم الأعور) وعائلة شيم الهاروني و قاله فرج و ... الخ.

ولكن هذا لا يعني بأن ننظر إلى كل العشيرة والأسر التي ينتمي إليها هؤلاء المذنبون كمتهمين، ومن الممكن أن يكون بينهم الكثيرين من الشرفاء ويتم الاستفادة من الطاقة الكامنة لهؤلاء. فالذي تم عمله لحد الآن هو تجزئة المجتمع تحت السلطة الحزبية، أي أنه لم يتم تحديد المعايير والمبادئ لكيفية المسائلة ومنحهم فرص الخدمة وتصحيح الذات.

في بداية هذه السنة وفي أحد ستوديوهات تلفزيون نظام الاحتلال الإيراني (صدا و سما) قيل للشاب الكردي الذي كان يلبس الزي الكردي (هل هذه ملابس الرعاة التي تلبسها؟)، وجاء ردّ الشاب عليهم (بأنها ملابس الميديين). هناك نظرة دونية من قِبل بعض الشوفينيين تجاه ثقافات الشعوب من طقوس ولباس، وفي جنوب كردستان عندما يتم ملاحظة شخص بالملابس الكردية يمكن بكل سهولة اعتباره متخلفاً، أو قروياً وأمياً، وعندما تلبس المرأة الملابس الكردية وإن افتقرت إلى المصوغات الذهبية فإنها لا تُعتبر مرتدية للملابس الكردية. ويتم الافتخار باللغة الكردية في جنوب كردستان، إلا أن العدد الهائل من الجامعات الأهلية الأجنبية والخاصة، جعل نصف مفردات التحدث عند الناس كلمات أجنبية، ويعتبرون ذلك تقدماً وتطوراً. ويتم عزف الأبواق في الـ٣٠ سنة الماضية للحداثة

”في القرن العشرين أصبحت الكثير من القبائل والآغاوات في كردستان أدوات بيد المحتلين، وخاصة بعد قيام السلطان عبد الحميد الثاني بتأسيس فرق الفرسان الحميدية في شمال كردستان, وجعلهم أداة لإبادة الأرمن والآشوريين, وفي جنوب كردستان بعد الحرب العالمية الأولى وتأسيس دولة العراق, تم تسليح الآشوريين تحت اسم (ليفي)، وبعدها تم تسليح آغاوات وبيكات الكُرد باسم الشرطة، ليتم استخدامهم ضدّ الانتفاضات والمخاطر التي قد تواجهها السلطة البريطانية“

الأوروبية, والمرأة التي تعتبر إحدى الأعمدة الرئيسية للأمة، غدت قتلها بحجة غسل العار مسألة عادية، ويتم تقديم بعض النساء لعمل مكياج لوجه السلطة، ولكن في الأساس فإن نمط السلطة في جنوب كردستان هي سلطة ذكورية ومركزية ومناطقية متأزمة.

فالشباب الذين يُعتبرون القوة الحركية والطاقة الرئيسية للمجتمع يهاجرون بالآلاف والذين بقوا يهيمون بلا أمل يعانون من البطالة, وعدم توفر فرص الحياة والمعيشة. اغتصاب الحريات السياسية والإعلامية، فالفرص السياسية والصحفية المتاحة هي بقدر أن تفكر مثلهم، وأن تفكر أكثر منهم هو ضرب لمصالحهم الحزبية والشخصية والعائلية, وبالتالي سيتم القضاء عليك لا محال، وهناك حالات عديدة تؤكد ذلك، بدءاً من رؤوف العقراوي إلى أن تصل إلى الدكتور سيروان وزردشت عثمان ووبدات حسين و كاوه كرمياني و سوران مامه حمه، بالإضافة إلى أن العشرات قد اقتيدوا إلى السجون وفرض عليهم العقوبات لغاية الآن من خلال اختلاق التهم ضدهم، كما هو حال شيروان شيرواني وبدل بروازي ورفاقهم.

كيف من الممكن أن نقترب من مسألة العشيرة، في الوقت الذي يكمن الحل في مسألة الأمة، أو نواجه كأمة هجمات الإبادة الجماعية للمحتلين على أيدي دول الاحتلال في تركيا وإيران. ولهذا نحتاج للتوحد ووحدة الصف الوطني من أجل المقاومة ومواجهة المحتلين، أي أن جميع الأفخاذ والقبائل والعشائر في كردستان يجب أن تأخذ دوراً لها في هذه المقاومة، يجب أن يصطف البيشمركة جنباً إلى جنب مع الكريلا و الشرفان، لا يجوز للكريلا أن يكون بوحده في خندق المقاومة.

من الممكن أن يتم تأسيس اتحاد القبائل والعشائر في كردستان، أي أنه من الضروري أن يتم جمع القبائل والعشائر حول بعضها البعض ليتم الاستفادة من طاقاتهم وإمكانياتهم، لماذا بمقدور المحتلين أن يستخدموا القبائل والعشائر بحسب مصالحهم, ولا يتم توحيد صفوفهم وتوظيفهم في خدمة عملية التحول نحو الأمة الديموقراطية. في تجربة غرب كردستان نرى هذه قد نفذت إلى حدٍ ما، ولكن من الضروري أن يتم تطوير هذه التجربة في عموم كردستان.

هوامش

- تيره: فخذ، كلأن
- هوز : عشيرة
- خوز : قبيلة
- كورديتي: الحركة الكردية القومية
- جاش: فرسان مرتزقة للنظام البعثي

الشرق الأوسط الديمقراطي

لقد جرت العادة لدى المؤرّخين والباحثين في حديثهم عن الحضارات أن يمهّدوا لها بالكلام عن تاريخ تلك البلاد التي يبحثون في حضارتها، وعن جغرافيّتها وتركيبتها السكّانيّة، مع التنويه إلى أنّ العامل الجغرافيّ ليس هو الأساس في تشكيل وتسيير الحضارات. إلا أنّه ينبغي إدخال هذا العامل في الحساب، لأنّه وإن كان صحيحاً أنّ الإنسان هو العامل الفاعل والحاسم في الموضوع، إلا أنّه لا يمكن تجاهل أثر الإنسان في تشكيل حضارته وتسييرها من مبدأ التّفاعل بينه وبين بيئته، وإيجاد الطرق والوسائل التي ابتدعها لترويض الطبيعة واستغلال موجودات البيئة وتسخيرها، وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه تسمية "الجغرافيّا التّاريخيّة"، وهي تغيّرات جغرافيّة مهمّة تؤثّر في حركة التّاريخ لدى شعب ما، كتغيير مجرى نهر مثلاً أو شقّ طريق في جبل أو إغلاق ممرّ طبيعيّ، فكلّ ذلك يمكن أن يعكس آثاره سلباً أو إيجاباً على حركة وفاعليّة ذلك الشعب وعلى مدى تفاعله مع واقعه ومحيطه الجغرافيّ الجديد، وبالتّالي قد تتغيّر طرق التّجارة والسّياحة، فينعكس أثرها على تلك المنطقة الجغرافيّة بما تحتويها من سكّان وعلى تفاعلهم مع جغرافيّتهم، وما ينتج عن ذلك من أحداث قد تؤثّر في تاريخهم وتنعكس مع الأيّام على حضارتهم.

فصلية فكرية تحليلية حرة تعنى بشؤون الشرق الأوسط

رقم الاعتماد

لدى نقابة الصحفين العراقيين 148

رقم الإيداع

دار الكتب و الوثائق في بغداد 868 لسنة 2005

لدى وزارة الثقافة المصرية

دار الكتب و الوثائق في القاهرة

رقم 24217